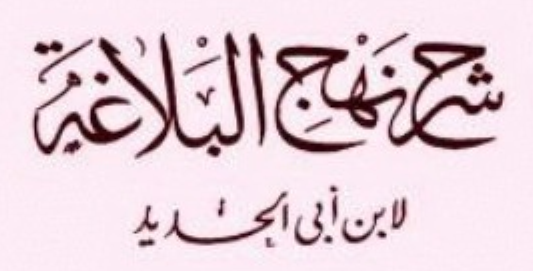


شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الحادي عشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٣٨٧هـ — ١٩٦٧م)

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤هـ ق

٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(١٩٦)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

أيُّها النّاسُ، إنّما الدُّنيا دارُ مَجازٍ، والآخرةُ دارُ قرارٍ، فخُذُوا مِنْ ممرِّكُمْ لِمَقرِّكُمْ؛ وَلَا تَهتِكُوا أستارَكُمْ، عِندَ مَنْ يَعلَمُ أسرارَكُمْ، وأخرِجُوا مِنَ الدُّنيا قُلوبَكُمْ مِنْ قَبلِ أنْ تَخرُجَ مِنها أبدانُكُمْ، ففيها اختُبِرْتُمْ، ولِغيرِها خُلِقتُمْ.

إنَّ المرْءَ إذا هَلَكَ قالَ النّاسُ: ما تَرَكَ! وقالتِ الملائِكةُ: ما قدَّمَ! لِلهِ آباؤُكُمْ! فقدِّمُوا بعضاً يَكُنْ لَكُمْ، ولا تُخلِفُوا كُلاًّ فيكونَ فرْضاً عليكُمْ.

* * *

الشرح :

ذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في " الكامل " [١] عن الأصمعيّ ، قال : خطبنا أعرابيّ بالبادية ، فحمد الله واستغفره ، ووحّده وصلّى على نبيه صلّى الله عليه وسلّم ؛ فأبلغ في إيجاز ، ثم قال : أيها النّاس ، إنّ الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، فخذوا لمقرّكم من ممرّكم ، ولا تهتكوا أستاركم، عند مَنْ لا تخفى عليه أسراركم . في الدّنيا أنتم،

(١) الكامل ٤ : ١٠٨ (طبعة نهضة مصر) .

ولغيرها خلقتم . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، والمصلَّى عليه رسول الله ، والمدعوّ له الخليفة[1]، والأمير جعفر بن سليمان

وذكر غيره الزيادة التي في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وهي : « إنّ المرء إذا هلك ... » ، إلى آخر الكلام .

وأكثر النّاس على أنّ هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام .

ويجوز أن يكونَ الأعرابيّ حفظه فأورده كما يورِد النّاسُ كلامَ غيرهم .

* * *

قوله عليه السلام : « دار مجاز » ، أي يُجاز فيها إلى الآخرة ، ومنه سُمّيَ المجاز في الكلام مجازاً ، لأنّ المتكلّم قد عَبَر الحقيقة إلى غيرها ، كما يَعبُر الإنسان من موضع إلى موضع .

ودار القرار : دار الاستقرار الذي لا آخر له .

فخذوا من ممرّكم ، أي من الدنيا . لمقرّكم ؛ وهو الآخرة .

قوله عليه السلام : « قال الناس : ما ترك ! » ، يريد أنّ بني آدم مشغولون بالعاجلة ، لا يفكّرون في غيرها ، ولا يتساءلون إلّا عنها ، فإذا هلك أحدكم ، فإنّما قولهم بعضهم لبعض : ما الذي ترك فلان من المال ؟ ما الذي خلف من الولد ؟ وأما الملائكة فإنّهم يعرفون الآخرة ، ولا تستهويهم شهواتُ الدّنيا ، وإنّهم مشغولون بالذّكر والتسبيح ، فإذا هلك الإنسان ، قالوا : ماقدّم ؟ أي أيّ شيء قدّم من الأعمال ؟

ثم أمرهم عليه السلام ، بأن يقدّموا من أموالهم بعضها صدقة ، فإنّها تبقى لهم ، ونهاهم أن يخلّفوا أموالهم كلّها بعد موتهم ، فتكون وبالًا عليهم في الآخرة .

---

(١) يريد به أبا جعفر المنصور ؛ وقد ولي ابن عمه جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس المدينة سنة ست وأربعين ومائة .

(١٩٧)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام كان كثيرا ماينادى به أصحابه :

تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللهُ ! فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ ، وَأَقِلُّوا الْعَرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا ، وَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ ؛ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَئُوداً ، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً ، لَابُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَهَا .

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ[١] ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ مِنْهَا مُفْظِعَاتُ الْأُمُورِ ، وَمُضْلِعَاتُ[٢] الْمَحْذُورِ .

فَقَطِّعُوا عَلَائِقَ الدُّنْيَا ، وَاسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى .

* * *

وقد مضى شيء من هذا الكلام فيما تقدّم بخلاف هذه الرِّوَايَة .

* * *

الشَّرْحُ :

تجهّزوا لكذا ، أى تهيّئوا له .

والعرْجة : التعريج ، وهو الإقامة ، تقول : مالى على ربعك عَرْجة[٣] ، أى إقامة ، وعرّج فلان على المنزل ، إذا حبَس عليه مطيّته .

---

(١) مخطوطة النهج : « دانية » .

(٢) مخطوطة النهج : « المضلات » .

(٣) فى اللسان : « مالى عندك عرجة [مثلثة العين مع إسكان الراء] ، ولا عرجة [بفتحتين] ، ولا تعريج ، ولا تعرج ، أى مقام ، وقيل : محبس » .

والعقبة الكئود: الشاقة المصعد. ودائبة: جادّة. والمخلب للسَّبُع بمنزلة الظّفر للإنسان.

وأفظع الأمرُ، فهو مفظع، إذا جاوز المقدار شدّة.

ومضلعات المحذور: الخطوب التى تُضلِع، أى تجعل الإنسان ضليعاً، أى معوجًّا، والماضى ضَلِع بالكسر يَضلَع ضَلَعاً.

ومن رواها بالظاء، أراد الخطوب التى تجعل الإنسان ظالعا، أى يغمز فى مَشْيِه لثقلها عليه، والماضى ظَلَع بالفتح، يظلَع ظَلَعاً، فهو ظالع.



(١٩٨)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة ، وقد عتبا عليه [١] من ترك مشورتهما والاستعانة فى الأمور بهما :

لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيراً ، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيراً . أَلَا تُخْبِرَانِي أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمَا عَنْهُ ؟ أَمْ أَيُّ قَسْمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ ؟ أَوْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ ، أَمْ جَهِلْتُهُ ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ !

وَاللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ ؛ وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا ، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا ، فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَمَا وَضَعَ لَنَا ، وَأَمَرَنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ ، وَمَا اسْتَنَّ [٢] النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاقْتَدَيْتُهُ . فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى رَأْيِكُمَا ، وَلَا رَأْيِ غَيْرِكُمَا ، وَلَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهِلْتُهُ فَأَسْتَشِيرَكُمَا وَإِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا وَلَا عَنْ غَيْرِكُمَا .

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأُسْوَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكُمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي ، وَلَا وَلِيتُهُ هَوًى مِنِّي ، بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَأَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ ، فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَغَ اللهُ مِنْ قَسْمِهِ ، وَأَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ . فَلَيْسَ لَكُمَا وَاللهِ عِنْدِي وَلَا لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُتْبَى .

أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ !

---

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .

(٢) مخطوطة النهج « استسن » .

ثم قال عليه السلام :

رَحِمَ اللهُ رَجلًا رَأى حَقًّا فَأعانَ عَلَيْهِ ،أوْ رَأى جَوْراً فرَدَّهُ ، وَكانَ عَوْناً بِالْحَقِّ عَلَى صاحِبِهِ .

***

الشَّـرْحُ :

نَقَمت عليه ، بالفتح أنقِم ، هذه اللغة الفصيحة ، وجاء نقِمت بالـكسر ، أنقَم .

وأرجأتما : أخّرتما ، أى نقمتما من أحوالى اليسير ، وتركتما الـكثير الذى ليس لـكما ولا لغيركما فيه مطعَن ، فلم تذكراه ، فهلّا اغتفرتُما اليسير للـكثير !

وليس هذا اعترافا بأنّ مانقماه موضع الطّعن والعيب ، ولـكنه على جهة الجدَل والاحتجاج ، كما تقول لمن يطعن فى بيتٍ من شعر شاعر مشهور : لقد ظلمتَه إذْ تتملّق عليه بهذا البيت ، وتنسى ماله من المحاسن الـكثيرة فى غيره !

ثم ذكر وجوه العتاب والاستزادة[1]، وهى أقسام : إمّا أن يكون لهما حقٌّ يدفعهما عنه ، أو استأثر عليهما فى قَسْم ، أو ضَعُف عن السياسة ، أو جَهِل حُكْماً من أحكام الشريعة ، أو أخطأ بابه .

فإن قلت : أىّ فرق بين الأوّل والثانى ؟

قلت : أما دفعهما عن حقهما ، فمنعهما عنه ؛ سواء صار إليه عليه السّلام أو إلى غيره ، أو لم يصِرْ إلى أحد ، بل بقىَ بحاله فى بيت المال .

---

(١) الاستزادة : طلب الرجوع واللين والانقياد ، ومنه الحديث : فاستزاد لأمر الله ، أى رجع ولان وانقاد . (اللسان) .

وأما القسم الثانى فهو أن يأخُذَ حقَّهما لنفسه ، وبين القسمين فرق ظاهر ، والثانى أفحش من الأوّل .

فإن قلت : فأىّ فرق بين قوله : « أم جهلته » ، أو « أخطأت بابه » !

قلت : جَهْل الحكم أن يكونَ الله تعالى قد حكم بحرمة شىء ، فأحَلّه الإمام أوالمفتى، وكونه يخطىء بابه ؛ هو أن يصيب فى الحكم ويخطىء فى الاستدلال عليه .

ثم أقسم أنّه لم يكن له فى الخلافة رغبة ولا إرْبة ، بكسر الهمزة ، وهى الحاجة . وصدَق عليه السلام ! فهكذا نَقَل أصحابُ التواريخ وأرباب عِلْم السِّيَر كلُّهم ، وروى الطبرىّ فى التاريخ ورواه غيره أيضاً أنّ الناسَ غَشُوه وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته ، وهو يأبى ذلك ويقول : دعونى والتمسوا غيرى ، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لاتثبت عليه العقول ، ولاتقوم له القلوب. قالوا : نَنْشُدك الله ! ألَا ترَى الفِتنة ! ألاترى إلى ما حدث فى الإسلام ! ألا تخاف الله ! فقال : قد أجبتكم لما أرى منكم ، واعلموا أنى إنْ أجبتُكم ركبتُ بكم ما أعلم ، وإن تركتمونى فإنما أنا كأحدكم، بل أنا أسمعُكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمرَكم إليه . فقالوا : مانحن بمفارقيك حتى نبايعك . قال : إن كان لابدّ مِن ذلك ففى المسجد؛ فإن بَيْعتى لاتكون خَفَياً، ولاتكون إلا عن رضاَ المسلمين، وفى ملأ وجماعة . فقام والنّاس حوله ، فدخل المسجد ، وانثال عليه المسلمون فبايعوه ، وفيهم طلْحة والزبير[1] .

قلت: قوله : « إن بيعتى لا تكون خَفَيا ، ولا تكون إلّا فى المسجد بمحضَرٍ من جمهور النّاس » ، يشابه قوله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله للعبّاس لمّا سامَه مدّ يدِه للبيعة : إنّى أحبُّ أن أصحِرَ بها[2] ، وأكره أن أبايع من وراء رِتاج .

---

(١) تاريخ الطبرى ٥ : ١٥٢ (الطبعة الحسينية) مع تصرف .
(٢) أصحر : من قولهم : أصحر الأمر وبه،إذا أظهره .

ثم ذكر عليه السلام أنه لما بويع عمل بكتاب الله وسنة رسوله ، ولم يحتج إلى رأيهما ولا رأي غيرهما ، ولم يقع حكم يجهله فيستشيرهما ، ولو وقع ذلك لاستشارهما وغيرهما ، ولم يأنف من ذلك .

ثم تكلم في معنى التنفيل في العطاء ، فقال : إني عملت بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك . وصدق عليه السلام ! فإن رسول الله صلى الله عليه وآله سوى في العطاء بين الناس ، وهو مذهب أبي بكر .

والعُتبى : الرضا ، أي لست أرضيكما بارتكاب ما لا يحل لي في الشرع ارتكابه .

والضمير في « صاحبه » ، وهو الهاء المجرورة يرجع إلى الجور ، أي وكان عونا بالعمل على صاحب الجور .

***

[من أخبار طلحة والزبير]

قد تقدم منا ذكر ما عتب به طلحة والزبير على أمير المؤمنين عليه السلام، وأنهما قالا : ما نراه يستشيرنا في أمر ، ولا يفاوضنا في رأي ، ويقطع الأمر دوننا ، ويستبد بالحكم عنا ! وكانا يرجوان غير ذلك ، وأراد طلحة أن يوليه البصرة ، وأراد الزبير أن يوليه الكوفة، فلما شاهدا صلابته في الدين ، وقوته في العزم، وهجره الإدهان والمراقبة، ورفضه المدالسة والمواربة ، وسلوكه في جميع مسالكه منهج الكتاب والسنة ، وقد كانا يعلمان ذلك قديما من طبعه وسجيته ، وكان عمر قال لهما ولغيرهما : إن الأجلح[1] إن وليها ليحملنكم على المحجة البيضاء والصراط المستقيم، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) الأجلح ، من الجلح ، وهو ذهاب الشعر من مقدم الرأس ، وكان رضي الله عنه كذلك .

من قبل قال : وإنْ تولّوها عليًّا ، تجدوه هاديًا مهديًّا » ، إلّا أنه ليس الخبرُ كالعيان ، ولا القول كالفعل ، ولا الوعد كالإنجاز . وحالّا عنه ، وتنكّرا له ، ووقعا فيه ، وعاباه وغمَصاه[1] ، وتطلّبا له العلل والتأويلات، وتنقّما عليه الاستبداد وترك المشاورة ، وانتقلا من ذلك إلى الوقيعة فيه بمساواة النّاس فى قسمة المال ، وأثنيا على عمرَ ، وحمِدا سيرته ، وصوّبا رأيه ، وقالا : إنه كان يفضّل أهلَ السوابق ، وضلّلا عليًا عليه السلام فيما رآه ، وقالا : إنّه أخطأ ، وإنّه خالف سيرة عمر ، وهى السيرة المحمودة التى لم تفضحها النبوّة ، مع قرب عهدنا منها ، واتصالها بها . واستنجدا عليه بالرّؤساء من المسلمين، كان عمر يفضّلهم وينفّلهم[2] فى القَسم على غيرهم — والنّاس أبناء الدّنيا ، ويحبّون المال حُبًّا جمًّا — فتنكّرتْ على أمير المؤمنين عليه السلام بتنكّرهما قلوبٌ كثيرة ، ونغِلت[3] عليه نيّاتٌ كانت من قبل سليمة، ولقد كان عمر موفّقًا حيث منع قريشًا والمهاجرين وذوى السّوابق من الخروج من المدينة ،ونهاهم عن مخالطة النّاس ،ونهى النّاس عن مخالطتهم ،ورأى أنّ ذلك أسُّ الفساد فى الأرض ،وأنّ الفتوح والغنائم قد أبطرت المسلمين، ومتى بَعُد الرءوس والكبراء منهم عن دار الهجرة، وانفردوا بأنفسهم ، وخالَطهم النّاس فى البلاد البعيدة لم يأمن أن يحسِّنُوا لهم الوثوب ، وطلب الإمْرة ومفارقة الجماعة ، وحلّ نظام الألفة ، ولكنّه رضىَ الله عنه نقضَ هذا الرأى السّديد بما فعله بعد طعن أبى لؤلؤة له من أمْرِ الشورى ، فإنّ ذلك كان سبب كلّ فتنة وقعت ، وتقع إلى أن تنقضىَ الدنيا. وقد قدّمنا ذكر ذلك ، وشرحنا ما أدّى إليه أمرُ الشورى من الفساد بما حصل فى نفس كلّ من السّتة من ترشيحه للخلافة .

***

---

(١) غمصاه : تهاونا بحقه .
(٢) ينفلهم : يعطيهم النفل .
(٣) نغلت : فسدت .

وروى أبو جَعْفَرٍ الطبريّ في تاريخه ، قال : كان عمر قد حَجَرَ على أعلام قريش من المهاجرين الخروجَ في البلدان إلاّ بإذن وأجَلٍ ، فشكوْه ، فبلغه ، فقام فخطب ، فقال : ألا إني قد سننتُ الإسلام سنّ البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ، ثم ثنياً [1] ، ثم يكون رَباعياً [2] ، ثم سَديساً ، ثم بازلاً [3] . ألا فهل يُنتَظر بالبازل إلا النقصان ألا وإنّ الإسلام قد صار بازلاً ، وإنّ قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معوناتٍ على ما في أنفسهم . ألا إنّ في قريش منْ يُضمِر الفرقة ، ويروم خَلْع الرِّبْقة . أمّا وابنُ الخطاب حيّ فلا ؛ إنّي قائم دون شِعْب الحَرّة ، آخذ بحلاقيم قريش وحُجَزها أن يتهافتُوا في النار .

وقال أبو جعفر الطّبري في التّاريخ أيضاً : فلما وَلِيَ عثمان لم يأخذْهم بالّذي كان عمر يأخذهم به ، فخرجوا إلى البلاد ، فلما نزلوها ورأوا الدّنيا ، ورآهم النّاس، خَمَلَ مَنْ لم يكن له طَوْل ولا قَدَمٌ في الإسلام ، ونبُه أصحاب السّوابق والفضل، فانقطع إليهم النّاس، وصاروا أوزاعاً معهم ، وأمّلوهم ، وتقرّبوا إليهم ، وقالوا: يملكون فيكون لنا في مُلْكهم حظوة، فكان ذلك أوّل وَهَنٍ على الإسلام ، وأوّل فتنة كانت في العامة .

وروى أبو جعفر الطبريّ ، عن الشعبيّ ، قال : لم يمت عمر حتى ملّته قريش، وقد كان حَصَرهم بالمدينة ، وسألوه أنْ يأذَنَ لهم في الخروج إلى البلاد ، فامتنع عليهم ، وقال : إنّ أخوَف ما أخافُ على هذه الأمة انتشاركم في البلاد ، حتى إنّ الرّجُلَ كان يستأذنه في غزو الروم أو الفرس ، وهو ممّنْ حبسه بالمدينة من قُريش، ولاسيما من المهاجرين فيقول له: إنّ لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وآله مايكفيك ويبلغك ويُحْسِبُك [4] ، وهو خيرٌ لك من الغزو اليوم ، وإنّ خيراً لك ألّا ترى الدنيا ولا تراك .

---

(١) الثنيّ : الذي يلقي ثنيته .

(٢) الرباعي : هو الذي ألقى رباعيته ، والرباعية : السن التي بين الثنية والناب .

(٣) البازل : البعير فطر نابه وانشق ، ويكون ذلك في السنة التاسعة .

(٤) يقال : أحسبه إذا أرضاه أو أعطاه ما يرضيه وكفاه .

فلما مات عمر وولى عثمان خلّى عنهم فانتشروا فى البلاد واضطربوا ، وانقطع إليهم الناس وخالطوهم ، فلذلك كان عثمان أحبّ إلى قريش من عمر .

فقد بان لك حسنُ رأى عمر فى منْع المهاجرين وأهل السّابقة من قُريش من مخالطة النّاس والخروج من المدينة ، وبان لك أنّ عثمان أرخى لهم فى الطِّوَل (١) ، فخالطهم الناس ، وأفسدوهم ، وحبّبوا إليهم الملك والإمرة والرئاسة ، لاسيّما مع الثروة العظيمة التى حصلت لهم ، والثّراء مفسدة وأىّ مفسدة ! وحصل لطلحة والزبير من ذلك مالم يحصل لغيرهما ثروة ويسارا ، وقدما فى الإسلام ، وصار لهما لفيف عظيم من المسلمين يمنّونهما الخلافة ، ويحسّنون لهما طلب الإمْرة ، لاسيما وقد رشّحهما عمر لها ، وأقامهما مقام نفسه فى تحمّلها ، وأى امرئ منّى بها قطّ نفسَه ففارقها حتى يغيّب فى اللّحد ! ولا سيّما طلحة ، قد كان يحدّث بها نفسه وأبو بكر حىّ ، ويروم أن يجعلها فيه ، بشبهة أنّه ابن عمّه ، وسخط خلافة عمر ، وقال لأبى بكر : ماتقول لربّك وقد ولّيتَ علينا فظًّا غليظا ، وكان له فى أيام عمر قوم يجلسون إليه ، ويحادثونه سرًّا فى معنى الخلافة ، ويقولون له : لو مات عمر لبايعناك بَغْتةً ، جلب الدّهرُ علينا ماجلب ! وبلغ ذلك عمر ، فخطب النّاس بالكلام المشهور ، إنّ قوما يقولون : إنّ بيعة أبى بكر كانت فَلْتة ، وإنه لو مات عمر لفعلنا وفعلنا ، أما أنّ بيعة أبى بكر كانت فَلْتة ، إلّا إنّ الله وَقَى شرّها ، وليس فيكم من تقطع إليه الرقاب كأبى بكر ، فأىّ امرئ بايع امرأ من غير مشورة من المسلمين ، فإنّهما بغرّة أن يقتلا ، فلما صارت إلى عثمان سخطها طلحة بعد أنْ كان رضيها ، وأظهر مافى نفسه ، وألّب عليه حتى قُتِل ، ولم يشكّ أنّ الأمر له ، فلمّا صارت إلى علىّ عليه السلام ، حدث منه ماحدث ، وآخر الدواء الكىّ .

وأما الزّبير فلم يكن إلّا عَلَوِىّ الرأى ، شديد الوَلاء ، جاريا من الرّجل مجرى نفسه .

---

(١) الطول : الحبل ، يريد أنه لان وترك لهم الحبل على الغارب ، حتى فعلوا مافعلوا .

ويقال : إنّه عليه السلام لما استنجد بالمسلمين عَقِيب يوم السّقيفة وما جرى فيه ، وكان يحمل فاطمة عليها السلام ليلا على حمار ، وابناها بين يدي الحمار ، وهو عليه السلام يسوقه فيطرُق بيوتَ الأنصار وغيرهم ، ويسألهم النّصْرة والمعونة ، أجابه أربعون رجلا، فبايعهم على الموت ، وأمرهم أن يصبحوا بكرةً محلِّقي رءوسهم ومعهم سلاحهم ، فأصبح لم يوافِهِ منهم إلّا أربعة : الزبير ، والمقداد ، وأبوذرّ ، وسَلْمان . ثم أتاهم من الليل، فناشدهم، فقالوا: نصبّحك غدوة ؛ فما جاءه منهم إلا أربعة ، وكذلك في الليلة الثالثة ، وكان الزّبير أشدّهم له نصرة ، وأنفذهم في طاعته بصيرة ، حلّق رأسه، وجاء مرارا وفي عنقه سيفه ، وكذلك الثلاثة الباقون ، إلّا أنّ الزبير هو كان الرأس فيهم . وقد نقل النّاس خبر الزّبير لما هَجَم عليه بيت فاطمة عليها السلام ، وكسر سيفه في صخرة ضربت به ، ونقلوا اختصاصه بعليّ عليه السلام ، وخلواته به . ولم يزل مواليا له ، متمسّكا بحبّه ومودّته ، حتى نشأ ابنُه عبدالله وشبّ ، فنزع به عِرْقٌ من الأمّ ، ومال إلى تلك الجهة وانحرف عن هذه ، ومحبّة الوالد للولد معروفة ، فانحرف الزبير لانحرافه ؛ على أنه قد كانت جرت بين عليّ عليه السلام والزّبير هَنَاتٌ في أيام عمر كدّرت القلوب بعض التكدير ، وكان سببها قصّة موالي صفيّة ومنازعة عليّ الزبير في الميراث ، فقضى عمر للزّبير ، فأذعن عليّ عليه السلام لقضائه بحكم سلطانه ، لارجوعا عمّا كان يذهب إليه من حكم الشرع في هذه المسألة وبقيت في نفس الزّبير ، على أنّ شيخنا أبا جعفر الإسكافيّ رحمه الله ذكر في كتاب "نقض العثمانية" عن الزبير كلاما ، إنْ صحّ ، فإنّه يدلّ على انحراف شديد ، ورجوع عن موالاة أمير المؤمنين عليه السلام .

قال : تفاخَر عليّ عليه السلام والزبير ، فقال الزبير : أسلمتُ بالغا ، وأسلمتَ طفلا ، وكنتُ أوّلَ مَنْ سلّ سيفا في سبيل الله بمكّة وأنت مستخف في الشّعب[1]، يكفُلك الرجال ،

(١) هو شعب أبي يوسف بمكة ؛ وانظر معجم البلدان ٥ : ٢٧٠

و بكونك الأقارب من بنى هاشم . وكنتُ فارساً ، وكنتَ راجلا ، وفى هيئتى نزلت الملائكة ، وأنا حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال شيخنا أبو جعفر : وهذا الخبر مفتعل مكذُوب ، ولم يجر بين علىّ والزبير شىء من هذا الكلام ، ولكنّه من وضع العثمانية ، ولم يسمع به فى أحاديث الحشوّية ، ولا فى كتب أصحاب السّيرة .

ولعلىّ عليه السلام أن يقول : طفلٌ مسلم خير من بالغ كافر ، وأمّا سلّ السيف بمكة ، فلم يكنْ فى موضعه ، وفى ذلك قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ... ﴾[1] الآية ، وأنا على منهاج الرسول فى الكفّ والإقدام ، وليس كفالة الرجال والأقارب بالشّعب عارًا علىّ ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشّعب يكفُله الرّجال والأقارب . وأمّا حربُك فارساً ، وحربى راجلا ، فهلّا أغنت فروسيّتُك يوم عمرو ابن عبدوَدّ فى الخندق ! وهلّا أغنت فروسيّتُك يوم طلحة بن أبى طلحة فى أُحُد ! وهلّا أغنت فروسيّتك يوم مرحب بخيبر ! ما كانتْ فرسُك التى تحارب عليها فى هذه الأيام إلا أذلّ من العَنْز الجرْباء ، ومَنْ سلّمتْ عليه الملائكة أفضل ممّن نزلتْ فى هيئته ، وقد نزلت الملائكة فى صورة دِحْية الكلبىّ ، أفيجب من ذلك أن يكون دحْية أفضلَ منّى ! وأما كونك حوارىّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فلو عددت خصائصى فى مقابلة هذه اللفظة الواحدة لك ، لاستغرقت الوقت ، وأفنيْت الزمان ، وربّ صمتٍ أبلغُ من نطق[2] .

***

ثم نرجع إلى الحديث الأوّل ، فنقول : إنّ طلحة والزبير لما أيِسا من جهة علىّ عليه

---

(١) سورة النساء ٧٧ .

(٢) انظر رسالة العثمانية ٢٢٤ وما بعدها .

السلام ، ومن حصول الدنيا من قِبَلِه ، فَبَدا له ظهر المِجنّ ، فكاشفاه وعاتباه قبل المفارقة عتاباً لاذعاً ، روى شيخنا أبو عثمان قال :

أرسل طلحةُ والزّبير إلى عليّ عليه السلام قبل خروجهما إلى مكّة مع محمد بن طلحة، وقالا : لا تقل له : « يا أمير المؤمنين » ، ولكن قل له : « يا أبا الحسن » ، لقد فال فيك رأيُنا ، وخاب ظنُّنا . أصلحنا لك الأمر ، ووطّدنا لك الإمْرة ، وأجلبنا على عثمان حتى قتِل ، فلمّا طلبك النّاس لأمرهم ، أسرعنا إليك ، وبايعناك ، وقُدْنا إليك أعناقَ العرب ، ووطئ المهاجرون والأنصار أعقابنا في بَيْعتك حتى إذا ملَكْت عنانك ، استبدَدْت برأيك عنّا ، ورفضتنا رفض التّريكة [1] ، وأذلْتنا إذالة [2] الإماء ، وملّكت أمرَك الأشتر وحكيم بن جبلة وغيرهما من الأعراب ونُزّاع الأمصار ، فكنّا فيما رجوناه منك ، وأمّلناه من ناحيتك ، كما قال الأوّل :

فكُنتَ كمُهريق الذي في سِقائه ... لرَقْراقِ آلٍ فوقَ رابيةٍ صَلْدِ

فلمّا جاء محمّد بن طلحة ، أبلغه ذاك ، فقال : اذهبْ إليهما ، فقل لهما : فما الذي يرضيكما ؟ فذهب وجاءه ، فقال : إنهما يقولان : وَلِّ أحدَنا البصرة والآخر الكوفة ! فقال : لاها الله ! إذَنْ يحلُم الأديم ، ويستشري الفساد ، وتنتقض عليّ البلاد من أقطارها ، والله إني لا آمنهما وهما عندي بالمدينة ، فكيف آمنهما وقد ولّيتهما العراقين ! اذهبْ إليهما فقل : أيها الشيخان ، احذرا من سَطْوة الله ونقمته ، ولا تبغيا للمسلمين غائلة وكيداً ، وقد سمعتما قول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [3] . فقام محمد بن طلحة فأتاهما ، ولم يعد إليه ، وتأخّرا عنه أياما ، ثم جاءاه فاستأذناه في الخروج إلى مكة للعمرة ، فأذِن لهما بعد أن أحلفهما

(١) التريكة : التي تترك فلا يتزوجها أحد . (٢) الإذالة : الإهانة .
(٣) سورة القصص ٨٣ .

ألّا ينقضا بيعته ، ولا يغـدِرَا به ، ولا يشقّا عصا المسلمين ، ولا يُوقِعاَ الفرقة بينهم،وأن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالمدينة ، فحلفا على ذلك كلّه ثم خرجا ففعلا مافعلا .

***

وروى شيخنا أبو عثمان ، قال : لمّا خرج طلحة والزبير إلى مكّة ،وأوْهَما النّاس أنّهما خرجا للعمْرة ، قال علىّ عليه السلام لأصحابه : والله مايريدان العمرة ، وإنّما يريدان الغَدْرة ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فإنّما ينكُث على نفسه ، ومَنْ أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما[1] ﴾ .

وروى الطّبرى فى التاريخ ، قال : لمّا بايع طلحة والزبير عليًّا عليه السلام ، سألاه أن يؤمّرهما على الكوفة والبصرة ، فقال : بل تكونان عندى أتجمّل بكما ، فإننى أستوحش لفراقكما .

قال الطبرىّ : وقد كان قال لهما قبل بيعتهما له : إنْ أحببتما أنْ تبايعانى ، وإنْ أحببتما بايعتكما ؛ فقالا : لا ؛ بل نبايعك ؛ ثم قالا بعد ذلك : إنما بايعناه خشية على أنفسنا، وقد عرفنا أنّه لم يكن ليبايعنا . ثم ظهرا إلى مكة ، وذلك بعد قتل عثمان بأربعة أشهر .

وروى الطبرىّ أيضا فى التاريخ قال : لمّا بايع النّاس عليا ، وتمّ له الأمر ، قال طلحة للزبير : ما أرى أن لنا من هذا الأمر إلّا كحِسّة[2] أنف الكلب .

وروى الطبرىّ أيضا فى التاريخ ، قال : لمّا بايَع النّاس عليا عليه السلام بعد قتل عثمان ، جاء علىٌّ إلى الزّبير ، فاستأذن عليه . قال أبو حبيبة مولى الزبير :فأعلمتُه به ،فسلّ السيفَ ، ووضعه تحت فراشه ، وقال : ائذن له ، فأذنت له ، فدخل فسلّم عَلَى الزّبير وهو واقف . ثم خرج ، فقال الزبير : لقد دخل لأمرٍ ماقضاه ، قم مقامه وانظر : هل ترى من

---

(١) سورة الفتح ١٠

(٢) كذا فى تاريخ الطبرى ١ : ٣٠٦٩ (طبع أوربا) ، والكلمة غير واضحة فى الأصول .

السيف شيئا ! فقمت فى مقامه ، فرأيت ذُباب السيف ، فأخبرتُه وقلت : إن ذُباب السيف لَيظهر لمن قام فى هذا الموضع ، فقال : ذاك أجلَ الرجل .

وروى شيخُنا أبو عثمان ، قال : كتب مُصْعب بن الزبير إلى عبد الملك :

مِنْ مُصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان : سلام عليك ، فإنى أحمَدَ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد :

سَتَعْلَمُ يافَتَى الزَّرْقاء أنِّى ... سأهتِك عن حلائلك الحِجابَا
وأترك بلدةً أصبحت فيها ... تَهوّر من جَوانبها خَرَابا

أمَا إن لله علىّ الوفاء بذلك ؛ إلّا أن تتراجع أو تتوب ! ولعمرى ماأنت كعبدالله بن الزبير ، ولا مرْوان كالزّبير بن العوام ، حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمّته . فسلِّم الأمر إلى أهله ، فإنّ نجاتك بنفسك أعظم الغنيمتين . والسلام .

فكتب إليه عبد الملك :

من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين ، إلى الذّلول الذى أخطأمَنْ سماهالمُصْعَب ؛سلام عليك ، فإنّى أحمَدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد :

أتُوعِدُنِى وَلَمْ أرَ مِثْلَ يومِى ... خَشاش الطّير يوعِدن العُقَابا
مَتَى تَلْقَ العُقاب خَشَاشَ طيرٍ ... يهتّك عن مقاتِلها الحِجَابا
أتوعد بالذئاب أسودَ غابٍ ... وأُسْدُ الغاب تَلْتَهِم الذئابا !

أمّا ماذكرت من وفائك ، فلعمرى لقد وفّى أبوكَ لتيْم وعدىّ بعداءقريش وزعانفها ، حتى إذا صارت الأمور إلى صاحبها عثمان ، الشريف النسب ، الكريم الحسب ، بغاه الغوائل ، وأعدّ له المخاتل ، حتى نال منه حاجته ، ثم دعا النّاس إلى علىّ وبايعه ، فلما

دانت له أمور الأمّة ، وأجمعت له الكلمة ، وأدركه الحسد القديم لبني عبد مناف ، فنقض عهدَه ، ونكث بيعته بعد توكيدها، « فَكَّرَ وقدَّر ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ »؛ وتمزقت لحمه الضباع بوادي السباع. ولعمري إنّك تعلم ياأخا بني عبد العزّى بن قصيّ ؛ أنّا بنو عبد مناف لم نزل سادتكم وقادتكم في الجاهلية والإسلام ، ولكن الحسد دعاك إلى ما ذكرت ، ولم ترث ذلك عن كلالة ، بل عن أبيك ، ولاأظنّ حسدك وحسد أخيك يؤول بكما إلّا إلى ما آل إليه حسدُ أبيكما من قبل ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾[1]؛ ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾[2] .

وروى أبو عثمان أيضا ، قال: دخل الحسن بن عليّ عليهما السلام على معاوية ، وعنده عبد الله بن الزبير — وكان معاوية يحبّ أن يغري بين قريش — فقال : ياأبا محمد، أيّهما كان أكبر سنًّا ؛ عليّ أم الزبير ؟ فقال الحسن : ماأقرب مابينهما، وعليّ أسن من الزبير، رحم الله عليا ! فقال ابن الزّبير رحم الله الزّبير — وهناك أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب، فقال : ياعبد الله، ومايهيجك من أن يترحم الرجل على أبيه ! قال: وأنا أيضا ترحّمت على أبي! قال: أتظنه ندًّا له وكفؤا ؟ قال : وما يَعدلُ به عن ذلك ! كلاهما من قريش ، وكلاهما دعا إلى نفسه ولم يتمّ له . قال : دع ذاك عنك يا عبدالله ؛إنّ عليا من قُريش ومن الرسول صلى الله عليه وآله حيث تعلم ، ولمّادعا إلى نفسه أتبِع فيه ، وكان رأساً، ودعا الزّبير إلى أمر وكان الرأس فيه امرأة ، ولما تراءت الفئتان نكص على عقبيه، وولّى مدبراً قبل أنْ يظهر الحقّ فيأخذه ، أو يدحض الباطل فيتركه ، فأدركه رجل لو قيسَ ببعض أعضائه لكان أصغر، فضرب عنقه ،وأخذ سَلَبه، وجاء برأسه، ومضى عليّ قُدُما كعادته مع ابن عمّه، رحم الله عليا!

---

(١) سورة فاطر ٤٣ .

(٢) سورة الشعراء ٢٢٧ .

فقال ابن الزبير : أما لو أنّ غيرك تكلّمَ بهـذا يا أبا سعيد ، لعلم ! فقال : إنّ الذى تعرّض به يرغب عنك . وكفّه معاوية ، فسكتوا .

وأخبِرتْ عائشة بمقالتهم ، ومرّ أبو سعيد بِفنائها ، فنادته : يا أبا سعيد ، أنت القائل لابن أختي كذا ؟ فالتفت أبو سعيد ، فلم ير شيئا، فقـال : إنّ الشيطان يرانا ولا نراه ! فضحكت عائشة ، وقالت : لله أبوك ! ما أذلق لسانك !



(١٩٩)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام وقد سمع قوما من أصحابه يسبّون أهل الشام أيام حربهم بصفين :

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ ، كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ :

اللَّهُمَّ أَحْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِمْ ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ ، حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهِلَهُ ، وَيَرْعَوِيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهِجَ بِهِ !

•••

الشرح :

السبّ : الشتم ، سبّه يسبُّه بالضمّ ، والتّساب : التشاتم ، ورجلٌ مِسَبّ بكسر الميم : كثير السِّباب ، ورجلٌ سُبَّة ، أى يسبُّه الناس ، ورجل سُبَبَة ، أى يسبّ الناس ، ورجل سَبّ : كثير السباب ، وسِبُّك : الذى يسابّك ، قال :

لا تَسُبَّنَّنِي فَلَسْتَ بِسِبِّي إِنَّ سِبِّي من الرجال الكريمُ[1]

والذى كرهه عليه السلام منهم ، أنهم كانوا يشتمون أهلَ الشام ، ولم يكن يكره منهم لعنهم إياهم ، والبذاءة منهم ، لا كما يتوهّمه قومٌ من الحشوية ، فيقولون : لا يجوز

---

(١) لعبد الرحمن بن حسان ، وانظر الصحاح ١ : ١٤٥ .

لعن أحدٍ ممّن عليه اسم الإسلام ، وينكرون عَلَى مَنْ يلعن ، ومنهم مَنْ يغالى فى ذلك ، فيقول : لا ألعن الكافر ، ولا ألعن إبليس ، وإن الله تعالى لا يقول لأحدٍ يوم القيامة : لم لم تلعن ؟ وإنما يقول : لِمَ لَعَنْتَ ؟

واعلم أنّ هذا خلاف نصّ الكتاب ، لأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ [1] .

وقال : ﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [2] .

وقال فى إبليس : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [3] .

وقال : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ [4] .

وفى الكتاب العزيز من ذلك الكثير الواسع .

وكيف يجوز للمسلم أن ينكر التبرّؤ ممّن يجب التبرّؤ منه ! ألم يسمع هؤلاء قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ﴾ [5] وإنما يجب النظر فيمن قد اشتبهت حاله ؛ فإن كان قد قارف كبيرة من الذنوب يستحقّ بها اللعن والبراءة ؛ فلا ضيرَ على مَنْ يلعنه ويبرأ منه ، وإن لم يكن قد قارف كبيرة لم يَجُزْ لعنُه ، ولا البراءة منه .

وممّا يدلّ على أنّ مَنْ عليه اسم الإسلام إذا ارتكب الكبيرة يجوز لعنُهُ ، بل يجب فى وقت ، قول الله تعالى فى قصّة اللّعان : ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّه

---

(١) سورة الأحزاب ٦٤ .
(٢) سورة البقرة ١٥٩ .
(٣) سورة ص ٧٨ .
(٤) سورة الأحزاب ٦١ .
(٥) سورة الممتحنة ٤ .

لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى فى القاذف : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

فهاتان الآيتان فى المكلّفين من أهل القبلة ، والآيات قبلهما فى الكافرين والمنافقين ؛ ولهذا قنّت أمير المؤمنين عليه السلام على معاوية وجماعة من أصحابه ، ولعنهم فى أدبار الصلوات .

فإن قلت : فما صُورة السبّ الذى نَهَى أمير المؤمنين عليه السلام عنه ؟

قلت : كانوا يشتمُونهم بالآباء والأمهات ، ومنهم مَنْ يطعن فى نسب قوم منهم ، ومنهم مَنْ يذكرهم باللؤم ، ومنهم مَنْ يعيّرهم بالجبن والبخل وبأنواع الأهاجى التى يتهاجَى بها الشعراء ، وأساليبها معلومة ، فنهاهم عليه السلام عن ذلك ، وقال : إنى أكره لكم أن تكونوا سبّابين ؛ ولكن الأصوب أن تصِفُوا لهم أعمالهم ، وتذكروا حالهم ؛ أى أن تقولوا : إنّهم فسّاق ؛ وإنهم أهل ضلال وباطل .

ثم قال : اجعلوا عِوَض سبهم أن تقولوا : اللّهمّ احقنْ دماءنا ودماءهم !

حقنت الدمَ أحقُنه ، بالضمّ : منعت أن يسفك ، أى ألهمهم الإنابة إلى الحقّ والعدول عن الباطل ؛ فإنّ ذلك إذا تمّ حقنت دماء الفريقين .

فإن قلت : كيف يجوز أن يدعو الله تعالى بما لا يفعله ؟ أليس من أصولكم أنّ الله تعالى لا يضطر المكلّف إلى اعتقاد الحق ، وإنما يكله إلى نظره ؟ !

قلت : الأمر وإن كان كذلك ، إلّا أنّ المكلفين قد تُعبّدُوا بأن يدعوا الله تعالى

---

(١) سورة النور ٦ ، ٧ .
(٢) سورة النور ٢٣ .

بنك ، لأنّ فى دعائهم إياه منك لطفاً لهم ومصالح فى أديانهم ؛ كالدعاء بزيادة الرزق وتأخير الأجل .

قوله : « وأصلح ذات بيننا وبينهم » ؛ يعنى أحوالنا وأحوالهم . ولمّا كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها : « ذات البين » ؛ كما أنه لما كانت الضمائر ملابسة الصدور قيل : « ذات الصدور » ، وكذلك قولهم : اسقنى ذا إنائك لما كان ما فيه من الشراب ملابسا له ، ويقولون للمتبرّز قد وضع ذا بطنه ؛ وللحبلى تضع : ألقت ذا بطنها .

وارعوى عن الغىّ : رجع وكفّ .

لهِج به بالكسر ، يلهَج : أغرى به وثابر عليه .



(٢٠٠)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى بعض أيام صِفِّين وقد رأى الحسن ابنه عليه السلام يتسرّع إلى الحرب :

اَمْلِكُوا عَنِّى هَـذَا الْغُلاَمَ لاَ يَهُدَّنِى ؛ فَإِنَّنِى أَنْفَسُ بِهَذَيْنِ ـ يَعْنِى الْحَسَنَ وَالحسَيْنَ عليهما السلام ـ عَلَى الْمَوْتِ لِئَـلاَّ يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

* * *

قَالَ الرَّضِىُّ أَبُو الحَسَنِ رَحِمَهُ اللهُ : قوله عليه السَّلاَمُ : «اَمْلِكُوا عَنِّى هَذَا الْغُلاَمَ» من أعْلَى الْكَلاَمِ وَأَفْصَحه .

* * *

الشّرْحُ :

الألف فى « اَملِكوا » ألف وصل ، لأن الماضى ثلاثىّ ، من ملكت الفرس والعبد والدار ، أملِك بالكسر ، أى احجُروا عليه كما يُحجَر المالك على مملوكه .

وعن ، متعلّقة بمحذوف تقديره : استولوا عليه وأبعدوه عنّى . ولما كان الملك سبب الحجْر على المملوك عبّر بالسبب عن المسبّب ، كما عبّر بالنكاح عن العقد ، وهو فى الحقيقة اسم الوطء ، لما كان العَقْدُ طريقا إلى الوطء ، وسببا له .

ووجه علوّ هذا الكلام وفصاحته أنّه لما كان فى : « املكوا » معنى البعد ، أعقبه

بعن ، وذلك أنهم لايملكونه دون أمير المؤمنين عليه السلام إلّا وقد أبعدوه عنه؛ ألا ترى أنك إذا حجرت على زيد دون عمرو ، فقد باعدت زيدا عن عمرو ! فلذلك قال: املكوا عنّي هذا الغلام ، واستفصح الشارحون قول أبي الطيّب :

إذا كان شَمُّ الرَّوْحِ أدْنَى إليكمُ   فلا برحتْني رَوْضَةٌ وقَبُولُ [1]

قالوا : ولمّا كان في « فلا برحتني » معنى « فارقتني » عدّى اللفظة ، وإن كانت لازمة ، نظرا إلى المعنى [1] .

قوله : « لايَهدّني » أي لئلا يهدّني ، فحذف كما حذف طَرَفَة في قوله :

* ألا أيُّهذا الزّاجري أحضُرَ الوَغَى [2] *

أي لأن أحضر .

وأنفس : أبخل ، نفِسْت عليه بكذا ، بالكسر .

فإن قلت : أيجوز أن يقال للحسن والحسين وولدهما : أبناء رسول الله وولد رسول الله، وذرية رسول الله ، ونسل رسول الله ؟

قلت : نعم؛ لأن الله تعالى سمّاهم « أبناءه » في قوله تعالى: ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ [3] ، وإنما عَنَى الحسن والحسين ، ولو أوصى لولد فلان بمالٍ دخل فيه أولاد البنات، وسمّى الله تعالى عيسى ذريّة إبراهيم في قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [4] إلى أن قال : ﴿ وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ ؛ ولم يختلف أهل اللغة في أنّ وَلَدَ البنات من نسل الرجل .

---

(١) ديوانه ٣ : ٩٦ .

(٢) من المعلقة ـ بشرح التبريزي ٨٠ ، وبقيته :

* وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي *

(٣) سورة آل عمران ٦١ .

(٤) سورة الأنعام ٨٤ .

فإن قلت :فما تصنع بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾؟قلت: أسألك عن أبوّته لإبراهيم بن مارية ؛ فكما تجيب به عن ذلك ؛ فهو جوابى عن الحسن والحسين عليهما السلام .

والجواب الشامل للجميع أنه عنَى زيدَ بن حارثة؛ لأنّ العرب كانت تقول: «زيد بن محمد» على عادتهم فى تبنّى العبيد ، فأبطل الله تعالى ذلك ، ونهى عن سنّة الجاهلية ،وقال: إنّ محمدا عليه السلام ليس أبًا لواحدٍ من الرجال البالغين المعروفين بينكم ليعتزى إليه بالنبوّة ، وذلك لاينفى كونه أبًا لأطفال ، لم تطلق عليهم لفظة الرجال ، كإبراهيم وحسن وحسين عليهم السلام .

فإن قلت : أتقول إنّ ابنَ البنتِ ابنٌ على الحقيقة الأصليّة أم على سبيل المجاز ؟

قلت : لذاهب أن يذهب إلى أنه حقيقة أصليّة ؛لأنّ أصل الإطلاق الحقيقة ،وقد يكون اللفظ مشترَكاً بين مفهومين وهو فى أحدهما أشهر ، ولا يلزم من كونه أشهر فى أحدهما ألّا يكون حقيقة فى الآخر .

ولذاهبٍ أن يذهب إلى أنّه حقيقة عُرْفية ، وهى التى كثر استعمالها ؛وهى فى الأكثر مجاز ؛ حتى صارت حقيقة فى العرف ، كالراوية للمزَادة ، والسماء للمطر .

ولذاهب أن يذهب إلى كونه مجازا قد استعمله الشارع ، فجاز إطلاقه فى كلّ حال؛ واستعماله كسائر المجازات المستعملة .

ومما يدلّ على اختصاص ولد فاطمة دون بنى هاشم كافّة بالنبىّ عليه السلام ،أنّه ما كان يحلّ له عليه السلام أن ينكح بنات الحسن والحسين عليهما السلام ولا بنات ذريتهما ، وإن بعُدْن وطال الزمان ، ويحلّ له نكاح بنات غيرهم من بنى هاشم من الطالبيّين وغيرهم؛ وهذا يدلّ على مزيد الأقربيّة ، وهى كونهم أولاده ، لأنه ليس هناك من القُرْبى غير

هذا الوجه ، لأنهم ليسوا أولاد أخيه ولا أولاد أخته ، ولا هناك وجه يقتضي حرمتهم عليه إلا كونه والداً لهم ، وكونهم أولاداً له ، فإن قلت قد قال الشاعر :

بَنُونَا بنُو أبنائِنَا وبناتُنا * بنوهُنّ أبناء الرّجال الأباعد

وقال حكيم العرب أكثم بن صيفيّ في البنات يذمّهن : إنّهن يلدن الأعداء ، ويورّثن البُعداء .

قلت : إنما قال الشاعر ما قاله على المفهوم الأشهر ، وليس في قول أكثم مايدلّ على نفي بنوّتهم ، وإنما ذكر أنهن يلدن الأعداء ؛ وقد يكون ولد الرجل لصلبه عدوا ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾[1] ، ولا ينفي كونه عدوّاً كونه ابنا ، قيل لمحمد ابن الحنفيّة عليه السلام : لِمَ يغرّر بك أبوك في الحرب ، ولِمَ لا يغرر بالحسن والحسين ؟ فقال : لأنهما عيناه ؛ وأنا يمينه، فهو يذبّ عن عينيه بيمينه .

---

(١) سورة التغابن ١٤ .

(٢٠١)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله لما اضطرب عليه أصحابه فى أمر الحكومة :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِى مَعَكُمْ عَلَى مَا أُحِبُّ ، حَتَّى نَهِكَتْكُمُ الْحَرْبُ ، وَقَدْ وَاللهِ أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَتَرَكَتْ ، وَهِىَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ .
لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيراً ، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُوراً ، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِياً ، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيّاً . وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ ؛ وَلَيْسَ لِى أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ !

***

الشَّـرْحُ :

نهِكتكم ، بكسر الهاء : أدنفتكم وأذابتكم ، ويجوز فتح الهاء ، وقد نهك الرجل أى دنف وضَنِىَ ، فهو منهوك . وعليه نَهْكَة المرض ، أى أثرة الحرب، مؤنثة .

وقد أخذتْ منكم وتركتْ ، أى لم تستأصلكم، بل فيكم بعدُ بقيّة ، وهى لعدوّكم أنهك ، لأنّ القتل فى أهل الشام كان أشدّ استحرارا ، والوهَن فيهم أظهر ، ولولا فساد أهل العراق برفعِ المصاحف ، لاستؤصل الشام، وخلص الأشتر إلى معاوية ، فأخذه بعنقه، ولم يكن قد بقِىَ من قوّة الشام إلا كحركة ذَنَب الوزغة عند قتلها ، يضطرب يمينا وشمالا؛ ولكن الأمورَ السماويّة لا تغالَب .

فأما قوله : « كنت أمس أميرا ، فأصبحتُ اليوم مأمورا » ، فقد قدّمنا شرح حالم من قبل ، وأنّ أهل العراق لمّا رفع عمرو بن العاص ومَنْ معه للصاحف على وجه المكيدة

حين أحسّ بالعطب وعلوّ كلمة أهلِ الحقّ ، ألزموا أمير المؤمنين عليه السلام بوضع أوزار الحرب ، وكفّ الأيدى عن القتال ، وكانوا فى ذلك على أقسام :

فمنهم مَنْ دخلت عليه الشبهة برفع المصاحف ، وغلب على ظنّه أنّ أهل الشام لم يفعلوا ذلك خُدعة وحيلة ، بل حقّا ودعاء إلى الدين وموجب الكتاب ، فرأى أنّ الاستسلام للحجّة أولى من الإصرار عَلَى الحرب .

ومنهم مَنْ كان قد ملّ الحرب، وآثر السِّلْم ، فلمّا رأى شبهةً ما يسوغُ التعلّق بها فى رفض المحاربة وحبّ العافية أخلد إليهم .

ومنهم مَنْ كان يُبْغِض عليا عليه السلام بباطنه ، ويطيعه بظاهره ، كما يطيع كثير من النّاس السلطان فى الظاهر ويبغضه بقلبه ، فلمّا وجدوا طريقا إلى خذلانه وترك نصرته ، أسرعوا نحوها ، فاجتمع جمهور عسكره عليه ، وطالبوه بالكفّ وترك القتال ، فامتنع امتناع عالم بالمكيدة ، وقال لهم : إنها حيلة وخديعة ، وإنّى أعرَفُ بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب قرآن ولا دين ، قد صحبتهم وعرفتهم صغيرا وكبيرا ، فعرفت منهم الإعراض عن الدّين ، والركون إلى الدنيا ، فلا تُراعُوا برفع المصاحف ، وصمّموا على الحرب ، وقد ملكتموهم ، فلم يبق منهم إلّا حشاشة ضعيفة ، وذَماء قليل . فأبوا عليه ، وألحوا وأصرُّوا على القعود والخذلان ، وأمروه بالإنفاذ إلى المحاربين من أصحابه ، وعليهم الأشتر أن يأمُرهم بالرجوع ، وتهدّدوه إن لم يفعل بإسلامه إلى معاوية . فأرسل إلى الأشتر يأمره بالرجوع وترك الحرب ، فأبى عليه فقال : كيف أرجع وقد لاحت أمارات الظفر ! فقولوا له : «ليمهلنى ساعة واحدة» ، ولم يكن علم صورة الحال كيف قد وقعت. فلمّا عاد إليه الرسول بذلك ، غضبوا ونفروا وشغبوا ، وقالوا: أنفذت إلى الأشتر سرًّا وباطنًا، تأمره بالتصميم ، وتنهاه عن الكفّ ، وإن لم تمدّهُ الساعة ، وإلّا قتلناك كما قتلنا عثمان، فرجعت الرّسل إلى الأشتر فقالوا له : أتحبّ أن تظفر بمكانك وأمير المؤمنين قد سُلّ عليه

خمسون ألف سيف ! فقال : ما الخبر ؟ قال ؛ إنّ الجيش بأسره قد أحدق به ، وهو قاعد بينهم على الأرض ، تحته نِطَع ، وهو مُطرِق ، والبارقة تلمع على رأسه ، يقولون : لئن لم تُعِد الأشتر قتلناك ! قال : ويحكم ! فما سبب ذلك ؟ قالوا : رفع المصاحف ، قال : والله لقد ظننت حين رأيتها رُفعت أنّها ستوقع فرقةً وفتنة .

ثم كرّ راجعا على عَقِبيه ، فوجد أمير المؤمنين عليه السلام تحت الخطر ، قد ردّده أصحابه بين أمرين : إمّا أن يُسلِموه إلى معاوية ، أو يقتلوه ، ولا ناصر له منهم إلّا ولداه وابن عمّه ونفر قليل لا يبلغون عشرة ، فلما رآهم الأشتر سبّهم وشتمهم ، وقال : ويحكم ! أبعد الظَّفَر والنّصر صبّ عليكم الخذلان والفرقة ! ياضعاف الأحلام ! يا أشباه النساء ! يا سفهاء العقول ! فشتموه وسبّوه ، وقهروه وقالوا : المصاحف المصاحف ! والرّجوع إليها ، لا نرى غير ذلك ! فأجاب أميرُ المؤمنين عليه السلام إلى التحكيم ، دفعاً للمحذور الأعظم بارتكاب المحظور الأضعف ، فلذلك قال : « كنت أميراً فأصبحت مأموراً ؛ وكنت ناهيا فصرت منهيًا » . وقد سبق من شرح حالِ التحكيم وما جرى فيه مايغني عن إعادته.

(٢٠٢)

الأَصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام بالبصرة ، وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثى ؛ وهو من أصحابه يعوده ، فلما رأى سعة داره قال :

مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسَعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا ، أَمَا أَنْتَ إِلَيْهَا فِي الآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ ! وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ : تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ ، وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ ، وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا ، فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الآخِرَةَ !

فَقَالَ لَهُ الْعَلاَءُ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ .

قال : وماله ؟

قال : لَبِسَ الْعَبَاءَ ، وَتَخَلَّى مِنَ الدُّنْيَا .

قال : عَلَيَّ بِهِ . فلما جاء ، قال :

يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ ! لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ ! أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ ! أَتَرَى اللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ ، وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا ! أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ !

قال :

يا أمير المؤمنين ، هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ ، وَجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ !

قال :

وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْحَقِّ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ ، كَيْلاَ يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ !

الشرح

كنت هاهنا زائدة ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾[1] .

وقوله : « وبلى إن شئت بلغتَ بها الآخرة » ، لفظ فصيح ، كأنه استدرك ، وقال : وبلى على أنك قد تحتاج إليها فى الدنيا لتجعلها وصلة إلى نيل الآخرة . بأن تَقرِىَ فيها الضيف ؛ والضيف لفظ يقع على الواحد والجمع ، وقد يجمع فيقال : ضيوف وأضياف . والرَّحِم : القرابة .

وتطلع منها الحقوق مطالعها : توقعها فى مظانّ استحقاقها .

والعباء جمع عَباءة ، وهى الكِساء ، وقد تليّن، كما قالوا: عَظاءة وعَظاية، وصلاءة وصلاية .

وتقول : علىّ بفلان ، أى أحضره ، والأصل أعجلْ به علىّ ، لحذف فعلَ الأمر ، ودلّ الباقى عليه .

ويا عُدَىّ نفسه ، تصغير « عدوّ » ، وقد يمكن أن يراد به التحقير المحض هاهنا، ويمكن أن يراد به الاستعظام لمداوته لها ، ويمكن أن يخرج مخرج التحنّن والشفقة ، كقولك : يابُنىّ .

واستهام بك الخبيث ، يعنى الشيطان ، أى جعلك هائما ضالًّا ، والهاء زائدة .

فإن قيل : مامعنى قوله عليه السلام : « أنت أهون على الله من ذلك » ؟

قلت : لأنّ فى الشاهد قد يحلّ الواحد منا لصاحبه فعلا مخصوصا ، محاباة ومراقبة ،

---

(١) سورة مريم ٢٩ .

وهو يكره أن يفعله ، والبشر أهونُ على الله تعالى من أن يحِلّ لهم أمراً مجاملة واستصلاحا للحال معهم ، وهو يكره منهم فعله .

وقوله : « هذا أنت ! » ، أى فما بالنا نراك خشِنَ الملبس ! والتقدير : « فها أنت تفعل كذا ، فكيف تنهى عنه ! »

وطعام جَشِب ، أى غليظ ، وكذلك مجشوب ، وقيل : إنّه الذى لا أُدْمَ معه .

قوله عليه السلام : « أن يقدّروا أنفسهم بضَعفة الناس » ، أى يشبّهوا ويمثّلوا .

وتبيّغ الدم بصاحبه ، وتبوّغ به ، أى هاج به ، وفى الحديث : « عليكم بالحجامة لا يتبيّغ بأحدكم الدم فيقتله » ، وقيل : أصل « يتبيغ » يتبغّى ، فقلب ، جَذَب وجبَذ ، أى يجب على الإمام العادل أنْ يشبّه نفسَه فى لباسه وطعامه بضَعَفة الناس — جمع ضعيف — لكيلا يهلِكَ الفُقراء من الناس ، فإنّهم إذا رأوا إمامهم بتلك الهيئة وبذلك المطعم ، كان أدعى لهم إلى سُلْوان لذّات الدنيا والصبر عن شهوات النفوس .

***

[ذكر بعض مقامات العارفين والزُّهاد]

وروى أنّ قوماً من المتصوّفة دخلُوا خراسان على علىّ بن موسى الرضىّ ، فقالوا له : إنّ أمير المؤمنين فكّر فيما ولّاه الله من الأمور ، فرآكم — أهلَ البيت — أولى النّاس أن تؤمُّوا النّاس ، ونظر فيك من أهل البيت ، فرآك أوْلَى النّاس بالناس ، فرأى أن يردّ هذا الأمر إليك ، والإمامة تحتاج إلى من يأكل الجشِب ، ويلبس الخشن ، ويركب الحمار ، ويعود المريض . فقال لهم : إنّ يوسف كان نبياً ، يلبس أقبية الديباج المزرّرة بالذهب ، ويجلس على متكآت آل فرعون ، ويحكم ؛ إنّما يراد من الإمام قِسْطه وعدْله ؛ إذا قال صدق ،

وإذا حكم عدل ، وإذا وعد أنجز . إنّ الله لم يحرّم لبوساً ولا مطعما ، ثم قرأ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ . . . . ﴾ [١] الآية .

وهذا القول مخالف للقانون الذى أشار أمير المؤمنين إليه ، وللفلاسفة فى هذا الباب كلام لابأس به ، وقد أشار إليه أبو علىّ بن سينا فى كتاب " الإشارات " وعليه يتخرّج قولا أمير المؤمنين وعلىّ بن موسى الرضىّ عليهما السلام . قال أبو علىّ فى مقامات العارفين : « العارفون قد يختلفون فى الهمم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر ، على حسب مايختلف عندهم من دواعى العبَر ، فربّما استوى عند العارف القشَف والترف ، بل ربما آثر القشَف ، وكذلك ربما سوّى عنده التّفِل والعِطْر ، بل ربما آثر التّفِل ، وذلك عند ما يكون الهاجس بباله ، استحقار ماعدا الحقّ ، وربما صغا إلى الزينة ، وأحبّ من كلّ شىء عقيلته [٢] ، وكره الخداج والسَّقَط ، وذلك عندما يعتبر عادته من صحبته الأحوال الظاهرة ، فهو يرتاد إليهما فى كلّ شىء ، لأنه مزيّة خطوة من العناية الأولى ، وأقرب أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه ، وقد يختلف هذا فى عارفيْن ، وقد يختلف فى عارف بحسب وقتيْن .

واعلم أنّ الذى رويتُه عن الشيوخ ، ورأيته بخطّ عبد الله بن أحمد بن الخشاب رحمه الله ، أنّ الربيع بن زياد الحارثىّ ، أصابته نشّابة فى جبينه ، فكانت تنتقض عليه فى كلّ عام ، فأتاه علىّ عليه السلام عائداً ، فقال : كيف تجدك أباعبد الرحمن ؟ قال : أجدُنى يا أميرَ المؤمنين لو كان لا يذهب ما بى إلا بذهاب بصرى لتمنيت ذهابه ، قال : وما قيمة بصرك عندك ! قال : لو كانت لى الدنيا لفديته بها ، قال : لاجرم ! ليعطينّك الله على قدر ذلك . إنّ الله تعالى يُعطى على قدر الألم والمصيبة ، وعنده تضعيف كثير . قال الربيع :

---

(١) سورة الأعراف ٣٢ .

(٢) العقيلة من كل شىء أكرمه ، جمعها عقائل

يا أمير المؤمنين، ألا أشكو إليك عاصمَ بن زياد أخي ؟ قال : ماله ، قال : لبس العَباء، وترك المُلاء ، وغمَّ أهلَه ، وحزَن ولده .

فقال عليّ : ادعُوا لي عاصماً ، فلما أتاه عبَس في وجهه ، وقال : ويحك ياعاصم أترى الله أباح لك اللذات، وهو يكره ماأخذت منها ! لأنتَ أهونُ على الله من ذلك. أوَ ماسمعته يقول: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾[1]، ثم يقول: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[2] وقال : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[3] ، أما والله إنّ ابتذال نعم الله بالفعال أحبّ إليه من ابتذالها بالمقال ، وقد سمعتَ الله يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ ، إنّ الله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين ، فقال : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[5] ، وقال : ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا صَالِحًا ﴾[6] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض نسائه : « مالي أراكِ شَعْثاء مرهاء سلْتاء ! »[7] .

قال عاصم : فلمَ اقتصرتَ ياأمير المؤمنين على لبس الخشن ، وأكل الجشب ؟ قال: إن الله تعالى افترض على أئمة العدل أن يقدروا لأنفسهم بالقوام ، كيلا يتبيّغ بالفقير فقره .

فما قام عليّ عليه السلام حتى نزع عاصم العَباء ، ولبس مُلاءة .

والرّبيع بن زياد هو الذي افتتح بعض خُراسان، وفيه قال عمر: دُلّوني على رجل إذا كان

---

(١) سورة الرحمن ١٩ .
(٢) سورة الرحمن ٢٢ .
(٣) سورة فاطر ١٢ .
(٤) سورة الضحى ١١ .
(٥) سورة البقرة ١٧٢ .
(٦) سورة المؤمنون ٥١ .
(٧) المرهاء : التي لا تكتحل . والسلتاء : التي لا تختضب .

فى القوم أميراً فكأنه ليس بأمير ، وإذا كان فى القوم ليس بأمير فكأنّه الأمير بعينه !
وكان خيّراً متواضعاً ، وهو صاحب الوقعة مع عمر لما أحضر العمال فتوحّش له الربيع ،
وتقشّف وأكل معه الجشب من الطعام ، فأقرّه على عمله ، وصرف الباقين ، وقد ذكرنا
هذه الحكاية فيما تقدم .

وكتب زياد بن أبيه إلى الربيع بن زياد، وهو على قطعة من خراسان : إنّ أمير المؤمنين
معاوية كتب إلىّ يأمرك أن تحرِز الصّفراء والبيضاء وتقسم الخُرْثِيّ [1] وما أشبهه على أهل
الحرب . فقال له الربيع : إنّى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، ثم نادى فى
الناس : أن اغدُوا على غنائمكم ، فأخذ الخمس وقسّم الباقى على المسلمين ، ثم دعا الله أن يميته؛
فما جمع حتى مات .

وهو الربيع بن زياد بن أنس بن ديان بن قطر بن زياد بن الحارث بن مالك بن
ربيعة بن كعب بن مالك بن كعب بن الحارث بن عمرو بن وَعلة بن خالد بن مالك
ابن أدد .

وأما العلاء بن زياد الذى ذكره الرضىّ رحمه الله فلا أعرفه ، لعلّ غيرى يعرفه .

(١) الخرثىّ : أردأ المتاع .

(٢٠٣)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام وقد سأله سائل عن أحاديث البدع،وعما فى أيدى الناس من اختلاف الخبر ، فقال عليه السلام :

إنَّ فِي أَيْدِي النَّاسِ حَقًّا وَ بَاطِلاً ، وَصِدْقًا وَ كَذِبًا ، وَنَاسِخًا وَمَنْسُوخًا ، وَعَامًّا وَخَاصًّا ، وَمُحْكَماً وَمُتَشَابِهاً ، وَحِفْظاً وَوَهَماً .

وَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَهْدِهِ ، حَتَّى قَامَ خَطِيباً ، فَقَالَ : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . وَإِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ ، لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ :

رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلإِيمَانِ ، مُتَصَنِّعٌ بِالْإِسْلاَمِ ، لَا يَتَأَثَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ ، يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَه ، وَلَـكِنَّهُمْ قَالُوا : صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، رَآهُ وَسَمِعَ مِنْهُ ، وَلَقِفَ عَنْهُ ؛ فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَكَ اللهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ ، وَوَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ ، ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ ، فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَئِمَّةِ الضَّلَالَةِ ، وَالدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَالْبُهْتَانِ ، فَوَلَّوْهُمُ الْأَعْمَالَ ، وَجَعَلُوهُمْ حُكَّاماً عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَالدُّنْيَا، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ . فَهَذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ .

وَرَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَوَهِمَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَمَّدْ

كَذِباً فَهُوَ فِي يَدَيْهِ ، وَيَرْوِيهِ وَيَعْمَلُ بِهِ ، وَيَقُولُ : أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَوْ عَلِمَ ٱلْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَهِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ ، وَلَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ .

وَرَجُلٌ ثَالِثٌ ، سَمِعَ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم شَيْئاً ، يَأْمُرُ بِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ، أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، فَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ وَلَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ،وَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ .

وَآخَرُ رَابِعٌ ، لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ ، مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللهِ ، وَتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يَهِمْ ، بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ ، فَجَاءَ بِهِ عَلَى سَمْعِهِ ، لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ ، فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ ، وَحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ ، وَعَرَفَ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ ، وَالْمُحْكَمَ وَالْمُتَشَابِهَ،فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ ، وَقَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم الْكَلَامُ ، لَهُ وَجْهَانِ،فَكَلَامٌ خَاصٌّ ، وَكَلَامٌ عَامٌّ ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنَى ٱللهُ سُبْحَانَهُ بِهِ ، وَلَا مَا عَنَى رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عليه وسلم،فَيَحْمِلُهُ السَّامِعُ ،وَيُوَجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ، وَمَا قَصَدَ بِهِ ،وَمَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ ،وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ ، وَيَسْتَفْهِمُهُ ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ ٱلْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِئُ ، فَيَسْأَلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَتَّى يَسْمَعُوا ، وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ ، وَحَفِظْتُه .

فَهَذِهِ وُجُوهُ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ وَعِلَلِهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ .

***

الشـرح :

الـكلام فى تفسير الألفاظ الأصوليّة ؛ وهى العامّ والخاصّ ، والناسخ والمنسوخ ، والصدق والـكذب ، والمحكَم والمتشابه ، موكول إلى فنّ أصول الفقه ، وقدذكرناه فيما أمليناه من الـكتب الأصولية ، والإطالة بشرح ذلك فى هذا الموضع مستهجَنة .

قوله عليه السلام : « وحفظا ووهَما » الهاء مفتوحة ، وهى مصدر وَهِمتُ ،بالـكسر، أوْهَم ، أى غلطت وسهوت ، وقد روى : « وَهْماً » بالتسكين ،وهو مصدر وهَمت بالفتح أوْهُم ، إذا ذهب وهْمك إلى شىء وأنت تريد غيره ، والمعنى متقارب .

وقول النبىّ صلى الله عليه وآله : « فليتبوّأ مقعده من النار » كلامٌ صيغته الأمر ، ومعناه الخبر ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾[1] ، وتبوّأت المنزلَ : نزلته ، وبوّأته منزلا : أنزلته فيه .

والتأثّم : الـكفّ عن موجب الإثم ، والتحرّج مثله ، وأصله الضّيق ، كأنه يضيق على نفسه .

ولَقِفَ عنه : تناول عنه .

وجَنّب عنه : أخذ عنه جانبا .

و « إنْ » فى قوله : « حتى إنْ كانوا لَيحبّون » مخففة من الثقيلة ، ولذلك جاءت اللام فى الخبر .

والطارئ ، بالهمز : الطالع عليهم ، طَرَأ أى طلع ، وقد روى : « عِلّهم » ، بالرفع عطفا على « وجوه » ، وروى بالجرّ عطفا على « اختلافهم » .

* * *

---

(١) سورة مريم ٧٥ .

[ذكر بعض أحوال المنافقين بعد وفاة محمد عليه السلام]

واعلم أن هذا التقسيم صحيح ، وقد كان فى أيام الرسول الله صلى الله عليه وآله منافقون ، وبقُوا بعده ، وليس يمكن أن يقال : إنّ النّفاق مات بموته ، والسبب فى استتار حالهم بعدَه أنه صلى الله عليه وآله كان لايزال يذكرهم بما ينزل عليه من القرآن ، فإنّه مشحون بذكرهم ، ألا ترَى أنّ أكثر مانزل بالمدينة من القرآن مملوء بذكر المنافقين ، فكان السبب فى انتشار ذكرهم وأحوالهم وحركاتهم هو القرآن ، فلما انقطع الوحيُ بموتِه صلّى الله عليه وآله لم يبقَ من ينعَى عليهم سقطاتِهم ويوبّخهم على أعمالهم ، ويأمر بالحذَر منهم ، ويجاهرهم تارةً ، ويجاملهم تارة ، وصار المتولّى للأمر بعده يحمِلُ النّاس كلّهم على كاهل المجاملة ، ويعاملهم بالظاهر ، وهو الواجب فى حكم الشرع والسياسة الدنيويّة ، بخلاف حال الرسول الله صلى الله عليه وآله فإنّه كان تكليفه معهم غيرَ هذا التكليف ، ألاترى أنّه قيل له : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾[1] ! فهذا يدلّ على أنّه كان يعرفهم بأعيانهم ، وإلّا كان النّهيُ له عن الصّلاة عليهم تكليفَ مالا يطاق ، والوالى بعده لايعرفهم بأعيانهم ، فليس مخاطباً بماخُوطب به صلّى الله عليه وآله فى أمرهم ، ولسكوت الخلفاء عنهم بعده خَمَل ذكرُهم ، فكان قُصارَى أمرِ المنافق أن يُسِرّ مافى قلبه ، ويعاملَ المسلمين بظاهره ، ويعاملونه بحسب ذلك . ثم فُتِحت عليهم البلاد ، وكثرت الغنائم ، فاشتغلوا بها عن الحركات الّتى كانوا يعتمدونها أيّام رَسولِ الله ، وبعثهم الخلفاء مع الأمراء إلى بلاد فارس والرّوم ، فألهتهم الدّنيا عن الأمور الّتي كانت تُنقَم منهم فى حياةِ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومنهم مَن استقام اعتقاده ، وخلصت نيّته ، لمّا رأوا الفتوح وإلقاءالدّنيا أفلاذَ كبدها من الأموال العظيمة ، والكنوز الجليلة إليهم ، فقالوا : لولم يكن هذاالدّين

---

(١) سورة التوبة ٨٤ .

حقًّا لما وصلنا إلى ماوصلنا إليه . وبالجملة لمّا تَركوا تُرِكوا ، وحيث سُكِت عنهم سكتوا عن الإسلام وأهله ؛ إلّا فى دسيسة خفيّة يعملونها ، نحو الكذب ، الذى أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنّه خالط الحديث كذبٌ كثيرٌ ، صدرَ عن قوم ٍ غيرِ صحيحِى العقيدة ، قصدوا به الإضلالَ وتخبيط القلوب والعقائد ، وقَصَدَ به بعضهم التنويه بذكر قوم كان لهم فى التنويه بذكرِهم غرض دنيوىّ . وقد قيل : إنَّه افتُعِل فى أيّام معاوية خاصّة حديث كثير على هـذا الوجه ، ولم يسكت المحدّثون الراسخون فى علم الحديث عن هذا ، بل ذكروا كثيرا من هذه الأحاديث الموضوعة ، وبيّنوا وضعها ؛ وأنّ رواتها غير موثوق بهم ، إلّا أن المحدّثين إنّمـا يطعنون فيما دون طبقة الصحابة ، ولا يتجاسرون فى الطعن على أحـدٍ من الصحابة ؛ لأنّ عليه لفظ « الصحبة » ؛ على أنهم قد طعنوا فى قوم ٍ لهم صُحْبة كبُسْر بن أرطاة وغيره .

فإن قلت : مَنْ هم أئمة الضلالة ، الّذين يتقرّب إليهم المنافقون الذين رأوا رسول الله صلى الله عليـه وآله ، وصحبوه للزور والبهتان ؟ وهل هـذا إلّا تصريح بمـا تذكره الإمامية ، وتعتقده !

قلت : ليس الأمر كما ظننت وظنّوا ، وإنّمـا يعنى معاوية وعمرو بن العاص ومَنْ شايعهما على الضّلال ، كالخبر الذى رواه مَنْ رَوَاه فى حقّ معاوية : « اللهمّ قِهِ العـذاب والحساب ، وعلّمه الـكتاب » ؛ وكرواية عمرو بن العاص تقرُّبًا إلى قلب معاوية: « إنّ آل أبي طالب ليسوا لى بأولياء ، إنّما وليّى الله وصالح المؤمنين » وكرواية قوم فى أيّام معاوية أخبارا كثيرة من فضائل عثمان ، تقرُّبا إلى معاوية بها ، ولسنا نجحَدُ فضلَ عُثْمان وسابقته ، ولـكنّا نعلم أنّ بعض الأخبار الواردة فيه موضوع ، كخبر عمرو بن مرّة فيه وهو مشهور ، وعمرو بن مرّة ممّن له صحبة ، وهو شامىّ .

[ذكر بعض ما مُنِيَ به آل البيت من الأذى والاضطهاد]

وليس يجب من قولنا : إنّ بعضَ الأخبار الواردة فى حقّ شخص فاضل مفتعَلة أن تكون قادحة فى فضل ذلك الفاضل ؛ فإنّا مع اعتقادنا أنّ علياً أفضلُ الناس ، نعتقد أنّ بعضَ الأخبار الواردة فى فضائله مفتعل ومختلق .

وقد رُوِى أنّ أبا جعفر محمد بن علىّ الباقر عليه السلام ، قال لبعض أصحابه : يافلان، مالقينا من ظلم قريش إيانا ، وتظاهرهم علينا ، ومالقى شيعتنا ومحبونا من الناس ! إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِض وقد أخبر أنّا أوْلى الناس بالناس ، فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معْدِنه ، واحتجّت على الأنصار بحقّنا وحجّتنا . ثم تداولتْها قريش ، واحدٌ بعد واحد ، حتى رجعت إلينا ، فنكثت بيعتَنا ، ونصبت الحربَ لنا ، ولم يزل صاحبُ الأمر فى صعود كئود ، حتى قُتِل ، فبويع الحسن ابنُه وعُوهِد ثم غُدِر به ، وأُسْلِم ، ووثب عليه أهلُ العراق حتى طُعِن بخنجر فى جَنْبه ، ونُهِبت عسكره ، وعولجت خلاخيل أمهات أولاده ، فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته ، وهمْ قليلٌ حقّ قليل . ثم بايع الحسينَ عليه السلام من أهل العراق عشرون ألفا، ثم غدرُوا به ، وخرجوا عليه ، وبيعته فى أعناقهم وقتلوه ، ثم لم نزل - أهلَ البيتِ - نُسْتَذَلّ ونُستضام ، ونُقصَى ونُمتَهن ، ونُحرَم ونُقتَل ، ونَخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء فى كلّ بلدة ، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ، ورووْا عنّا مالم نقله وما لم نفعلْه، ليبغّضونا إلى النّاس ، وكان عُظْمُ ذلك وكُبره زمنَ معاوية بعد موت الحسن عليه السلام، فقُتِلَتْ شيعتُنا بكل بلدة ، وقطعت الأيدى والأرجل على الظِّنّة ، وكان مَنْ يذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجِن أو نُهِبَ ماله ، أو هُدِمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد ،

إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتلِ الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كلَّ قِتلة ، وأخذهم بكلّ ظِنّة وتهمة ، حتى إنّ الرجل ليقال له : زنديق أو كافر ، أحبُّ إليه من أن يقال : شيعة عليّ ، وحتى صار الرّجل الذى يذكر بالخير ـ ولعلّه يكون ورعا صدوقا ـ يحدّث بأحاديث عظيمة عجيبة ، من تفضيل بعض من قد سَلَف من الولاة ، ولم يخلق الله تعالى شيئا منها ، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنّها حقّ لكثرة مَنْ قد رَوَاها ممّن لم يعرف بكذب ولا بقلّة ورع .

وروَى أبو الحسن عليّ بن محمد بن أبي سيف المدايني فى كتاب « الأحداث » قال : كتب معاوية نسخة واحدةً إلى عمّاله بعد عام الجماعة : أن برئت الذمّة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته ، فقامت الخطباء فى كلّ كورة ، وعلى كلّ منبر ، يلعنون عليا ويبرءون منه ويقعون فيه وفى أهل بيته ؛ وكان أشدَّ الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة ؛ لكثرة مَنْ بها من شيعة عليّ عليه السلام ، فاستعمل عليهم زياد بن سُمَيّة ، وضمّ إليه البصرة ، فكان يتتبع الشّيعة وهو بهم عارف ؛ لأنّه كان منهم أيام علي عليه السلام ؛ فقتلهم تحت كلّ حَجَر وَمَدَر ، وأخافهم ، وقطع الأيدىَ والأرجل ، وسَمَل العيون ، وصَلّبهم على جُذوع النّخل ، وطردهم وشرّدهم عن العراق ؛ فلم يبق بها معروف منهم .
وكتب معاويةُ إلى عُمّاله فى جميع الآفاق : ألا يجيزوا لأحدٍ من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة . وكتب إليهم : أن انظروا مَن قِبَلكم من شِيعَةِ عثمان ومحبّيه وأهل ولايته ؛ والذين يروون فضائله ومناقبه ؛ فأدنُوا مجالسَهم وقرّبُوهم وأكرمُوهم ، واكتبُوا لى بكلّ ما يروِى كلّ رجل منهم ، واسمه واسم أبيه وعشيرته .

ففعلوا ذلك ، حتى أكثروا فى فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يبعثُه إليهم معاوية من الصّلات والكساء والحِباء والقطائع ، ويفيضه فى العرب منهم والموالى ؛ فكثر ذلك فى كلّ مصر ، وتنافسوا فى المنازل والدنيا ، فليس يجيء أحد مردود من النّاس عاملا من

عمال معاوية ، فيروى فى عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه . فلبثوا بذلك حينا .

ثم كتب إلى عماله أن الحديث فى عثمان قد كثر وفشا فى كل مصر وفى كل وجه وناحية ؛ فإذا جاءكم كتابى هذا فادعوا الناس إلى الرواية فى فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، ولا تتركوا خبرا يرويه أحد من المسلمين فى أبى تراب إلا وتأتونى بمناقض له فى الصحابة ؛ فإن هذا أحب إلى وأقر لعينى ، وأدحض لحجة أبى تراب وشيعته ، وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضله .

فقرئت كتبه على الناس ، فرويت أخبار كثيرة فى مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها ، وجد الناس فى رواية ما يجرى هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر ، وألقى إلى معلمى الكتاتيب ؛ فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن ، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم ، فلبثوا بذلك ما شاء الله .

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان : انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته ، فامحوه من الديوان ، وأسقطوا عطاءه ورزقه ، وشفع ذلك بنسخة أخرى : من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم ، فنكلوا به ، واهدموا داره . فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ؛ ولا سيما بالكوفة ، حتى إن الرجل من شيعة على عليه السلام ليأتيه من يثق به ، فيدخل بيته ، فيلقى إليه سره ، ويخاف من خادمه ومملوكه ، ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ، ليكتمن عليه ، فظهر حديث كثير موضوع ، وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ؛ وكان أعظم الناس فى ذلك بلية القراء المراءون ، والمستضعفون ، الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ، ويقربوا مجالسهم ، ويصيبوا به الأموال والضياع

والمنازل ؛ حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدى الديانين الذين لا يستحلُّون الكذب والبهتان ؛ فقبلوها ورَووها ، وهم يظنّون أنها حق ، ولو علمُوا أنّها باطلة لما رَووها ، ولا تدينّوا بها .

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسنُ بن علىّ عليه السلام ، فازداد البلاء والفتنة ، فلم يبق أحدٌ من هذا القبيل إلّا وهو خائف على دَمه ؛ أو طريد فى الأرض .

ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحُسين عليه السلام ، وولّىَ عبد الملك بن مروان ، فاشتدّ على الشّيعة ، وولّىَ عليهم الحجاج بن يوسف ، فتقرّب إليه أهل النُّسك والصلاح والدّين ببغض على ؛ وموالاة أعدائه ، وموالاة مَنْ يدّعى من الناس أنّهم أيضاً أعداؤه ، فأكثروا فى الرواية فى فضلهم وسوابقهم ومناقبهم ، وأكثروا من الغضّ من علىّ عليه السلام وعيبه ، والطعن فيه ، والشنآن له ، حتى إن إنسانا وقف للحجاج — ويقال إنّه جدّ الأصمعىّ عبد الملك بن قُريب — فصاح به : أيُّها الأمير إن أهلي عقُّونى فسمَّونى عليًّا ، وإنى فقير بائس ، وأنا إلى صلة الأمير محتاج . فتضاحك له الحجاج ، وقال : لِلُطفِ ما توسّلت به قد ولّيتك موضع كذا .

وقد روى ابنُ عرفة المعروف بنِفطويه — وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم — فى تاريخه ما يناسب هذا الخبر ، وقال : إن أكثر الأحاديث الموضوعة فى فضائل الصحابة افتُعلت فى أيام بنى أمية ، تقرُّبا إليهم بما يظنّون أنهم يُرغمون به أنوف بنى هاشم .

قلت : ولا يلزم من هذا أن يكون علىّ عليه السلام يسوءه أن يذكر الصحابة والمتقدمون عليه بالخير والفضل ، إلا أن معاوية وبنى أمية كانوا يبنُون الأمر من هذا على ما يظنّونه فى علىّ عليه السلام من أنه عدوّ مَنْ تقدم عليه ؛ ولم يكن الأمر فى الحقيقة كما

يظنّونه ، ولكنه كان يرى أنه أفضلُ منهم ، وأنّهم استأثروا عليه بالخلافة من غير تفسيقٍ منه لهم ، ولا براءة منهم .

***

فأما قوله عليه السلام : « ورجل سمع من رسول الله شيئاً ولم يحفظه على وجهه فوهم فيه » ، فقد وقع ذلك . وقال أصحابنا فى الخبر الّذى رواه عبدالله بن عمر : « إنّ الميّت ليُعذّب ببكاء أهله عليه » : إن ابن عباس لمّا رُوِى له هذا الخبر ، قال : ذَهَل ابن عمر ، إنّما مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله على قبر يهوديّ ، فقال : إنّ أهله ليبكون عليه ، وإنه ليعذّب .

وقالوا أيضاً : إن عائشه أنكرت ذلك ، وقالت : ذَهَل أبو عبد الرحمن ، كما ذهل فى خبر قَلِيب بدر ، إنّما قال عليه السلام : « إنهم ليبكون عليه ، وإنّه ليعذب بجرمه » .

قالوا : وموضع غلطه فى خبر القَلِيب أنه روى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وقف على قَلِيب بدر ، فقال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقّاً » ؟ ثم قال : « إنهم يسمعون ما أقول لهم » ، فأنكرت عائشة ذلك ، وقالت : إنما قال : « إنهم يعلمون أن الذى كنت أقوله لهم هو الحق » ، واستشهد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [1] .

فأما الرّجل الثالث ، وهو الذى يسمع المنسوخ ولم يسمع الناسخ ، فقد وقع كثيرا ، وكتُب الحديث والفقه مشحونة بذلك ، كالذين أباحوا لحوم الحُمُرِ الأهلية لخبر رووه فى ذلك ، ولم يرووا الخبر الناسخ .

وأما الرجل الرابع فهم العلماء الراسخون فى العلم .

وأما قوله عليه السلام : « وقد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له

---

(١) سورة النمل ٨٠ .

وجهان » ، فهذا داخلٌ فى القسم الثانى وغير خارج عنه ، ولـكنّه كالنّوع من الجنس ، لأنّ الوهم والغلط جنس تحته أنواع .

***

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان مخصوصاً من دون الصّحابة رضوان الله عليهم بخلوات كان يخلو بها مع رسول الله صلّى الله عليـه وآله ، لا يطّلع أحدٌ من النّاس على مايدور بينهما ، وكان كثيرَ السؤال للنبيّ صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن وعن معانى كلامه صلّى الله عليه وآله ، وإذا لم يسأل ابتدأه النبيُّ صلى الله عليه وآله بالتّعليم والتثقيف ولم يكن أحدٌ من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله كذلك ، بل كانوا أقساماً : فمنهم مَنْ يهابه أن يسأله ، وهم الذين يحبّون أن يجئ الأعرابىّ أو الطارئ فيسأله وهم يسمعون ، ومنهم مَنْ كان بليدا بعيد الفهم قليل الهمّة فى النظر والبحث ، ومنهم مَنْ كانَ مشغولا عن طلب العلم وفهم المعانى ، إمّا بعبادة أو دنيـا ، ومنهم المقلّد يرى أنّ فرضه السكوت وترك السؤال ، ومنهم المبغض الشّانئ الذى ليس للدّين عنده من الموقع مايضيّع وقتـه وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه ؛ وانضاف إلى الأمر الخاص بعلىّ عليه السلام ذكاؤه وفطنته ، وطهارة طينته ، وإشراق نفسه وضوءها ، وإذا كان المحـلّ قابلا متهيّئا ، كان الفاعل المؤثّر موجودا ، والموانع مرتفعة ، حصل الأثر على أتمّ مايمكن ؛ فلذلك كان علىٌّ عليه السلام – كما قال الحسن البصرىّ – ربّانىّ هذه الأمة وذا فضلها ؛ ولذا تسمّيه الفلاسفة: إمام الأئمة وحكيم العرب .

[فصل فيما وضع الشيعة والبـكرية من الأحاديث]

واعلم أنّ أصلَ الأكاذيب فى أحاديث الفضائل كان من جهة الشّيعة ، فإنّهم وضعوا

فى مبدأ الأمر أحاديثَ مختلفة فى صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم ، نحو حديث « السطل » وحديث « الرّمانة » وحديث غزوة البئر التى كان فيها الشياطين ، وتعرف كما زعموا بـ « ذات العلَم » ، وحديث غَسْل سلمان الفارسىّ ، وطىّ الأرض ، وحديث الجمجمة ، ونحو ذلك . فلما رأت البَكْرِيّة ما صنعت الشيعة ، وضعت لصاحبها أحاديثَ فى مقابلة هذه الأحاديث ، نحو « لو كنت متخذا خليلا » ، فإنهم وضعوه فى مقابلة حديث الإخاء ، ونحو سدّ الأبواب ؛ فإنّه كان لعلىّ عليه السلام فقلبته البكْرية إلى أبى بكر ، ونحو « ائتونى بدواة وبياض أكتب فيه لأبى بكر كتابا لا يختلف عليه اثنان » . ثم قال : « يأبَى الله تعالى والمسلمون إلا أبا بكر » ، فإنهم وضعوه فى مقابلة الحديث المروىّ عنه فى مرضه : « ائتونى بدواةٍ وبياضٍ أكتب لكم ما لا تضلّون بعده أبدا » ، فاختلفوا عنده . وقال قوم منهم : لقد غلبه الوجع ، حسْبنا كتاب الله ونحو حديث : « أنا راضٍ عنكَ فهل أنت عنّى راضٍ ! » ، ونحو ذلك . فلمّا رأت الشيعة ما قد وضعت البكْرية أوسعوا فى وضع الأحاديث ، فوضعوا حديث الطوق الحديد الذى زعموا أنه فتله فى عُنق خالد ، وحديث اللّوح الذى زعموا أنه كان فى غدائر الحنفيّة أم محمد ، وحديث : « لا يفعلنّ خالد ما آمر به » ، وحديث الصحيفة التى علّقت عام الفتح بالكعبة ، وحديث الشيخ الذى صعد المنبر يوم بويع أبو بكر ، فسبق النّاس إلى بيعته ، وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضى نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم ، وعلىّ أدون الطبقات فيهم ، فقابلتهم البكْرية بمطاعن كثيرة فى علىّ وفى ولديه ، ونسبوه تارة إلى ضعف العقل ، وتارة إلى ضعف السياسة ، وتارة إلى حبّ الدنيا والحرص عليها . ولقد كان الفريقان فى غُنْيَةٍ عمّا اكتسباه واجترحاه ، ولقد كان فى فضائل علىّ عليه السلام الثابتة الصحيحة ، وفضائل أبى بكر المحقّقة

الملومة ماينفي عن تكلّف العصبيّة لها ، فإنّ العصبيّة لما أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل ، ومن تعديد المحاسن إلى تعديد المساوئ والمقابح . ونسأل الله تعالى أن يعصمنا من الميل إلى الهوى وحب العصبيّة ، وأن يجريَنا على ماعوّدنا من حبّ الحقّ أين وجد وحيث كان ؛ سخط ذلك من سخط ، ورضي به من رضي ، بمنّه ولطفه !



(٢٠٤)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام:

وَكَانَ مِنْ اقْتِدَارِ جَبَرُوتِهِ، وَبَدِيعِ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتَرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ، يَبَساً جَامِداً، ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقاً، فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ بَعْدَ ارْتِتَاقِهَا، فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ، وَقَامَتْ عَلَى حَدِّهِ يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُثْعَنْجِرُ، وَالْقَمْقَامُ الْمُسَخَّرُ.

قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِهَيْبَتِهِ، وَوَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ. وَجَبَلَ جَلَامِيدَهَا، وَنُشُوزَ مُتُونِهَا، وَأَطْوَادَهَا؛ فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا، وَأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا، فَمَضَتْ رُءُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، وَرَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا، وَمَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا، وَأَطَالَ أَنْشَازَهَا، وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً، وَأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوَجَانِ مِيَاهِهَا، وَأَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا! فَجَعَلَهَا لِخَلْقِهِ مِهَاداً، وَبَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشاً، فَوْقَ بَحْرٍ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي، وَقَائِمٍ لَا يَسْرِي، تُكَرْكِرُهُ الرِّيَاحُ الْعَوَاصِفُ، وَتَمْخُضُهُ الْغَمَامُ الذَّوَارِفُ.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى!

***

الشرح :

أراد أن يقول : « وكان من اقتداره » فقال : « وكان من اقتدار جبروته »، تعظيما وتفخيما ، كما يقال للملك : أمرت الحضرةُ الشريفة بكذا .

والبحر الزاخر : الذى قد امتد جدًّا وارتفع .

والمتراكم : المجتمع بعضُه على بعض .

والمتقاصف : الشديد الصوت ، قصفَ الرّعد وغيره قصيفا .

واليَبَس ، بالتحريك: المكان يكون رطبا ثم ييبس، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾[1]، واليبْس بالسكون: اليابس خِلْقة ، حطب يبْس، هكذا يقوله أهل اللغة وفيه كلام ، لأنّ الحطب ليس يابساً خلْقة بل كان رطبا من قبل ، فالأصوب أن يقال : لا تكون هذه اللفظة محرّكة إلا فى المكان خاصّة .

وفطَر : خلق ، والمضارع يفطُر بالضمّ ، فَطْراً .

والأطباق : جمع طبَق ، وهو أجزاء مجتمعة من جراد أو غيم أو ناس أو غير ذلك من حيوان أو جماد ، يقول : خلق منه أجساما مجتمعة مرتتقة، ثم فتقها سبع سموات . وروى : « ثم فطر منه طِبَاقا » أى أجساماً منفصلة فى الحقيقة متّصلة فى الصورة بعضها فوق بعض، وهى من ألفاظ القرآن[2] المجيد .

والضمير فى « منه » يرجع إلى ماء البحر فى أظهر النّظر ، وقد يمكن أن يرجع إلى اليَبس .

***

واعلم أنه قد تكرّر فى كلام أمير المؤمنين مايماثل هذا القول ويناسبه ، وهو مذهب

---

(١) سورة طه ٧٧

(٢) وهو قوله تعالى فى سورة الملك ٣ : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ﴾ ، وقوله فى سورة نوح ١٥ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ﴾ .

كثير من الحكماء الذين قالوا بحدوث السماء،منهم ثاليس الملطيّ ،قالوا :أصل الأجسام الماء، وخلقت الأرض من زبده ، والسماء من بخاره ، وقد جاء القرآن العزيز بنحو هذا ، قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾(١).
قال شيخُنا أبو عليّ وأبو القاسم رحمهما الله فى تفسيريهما : هذه الآية دالّة على أنّ الماء والعرش كانا قبل خلق السموات والأرض ، قالا : وكان الماء على الهواء ، قالا : وهذا يدلّ أيضا على أنّ الملائكة كانوا موجودين قبل خلقِ السموات والأرض، لأنّ الحكيم سبحانه لايجوز أن يقدّم خلْق الجماد على خلق المكلّفين ، لأنه يكون عبثا .

وقال على بن عيسى الرمانيّ من مشايخنا : إنّه غيرُ ممتنع أن يخلق الجماد قبل الحيوان، إذا علم أنّ فى إخبار المكلّفين بذلك لطفا لهم ، ولا يصحّ أن يخبرهم إلّا وهو صادق فيما أخبر به ، وإنّما يكون صادقا إذا كان الخبر خبره على ما أخبر عنه ،وفى ذلك حسن تقديم خلْق الجماد على خلق الحيوان .وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنه كان يذهب إلى أنّ الأرضَ موضوعة على ماء البحر ، وأنّ البحر حامل لها بقدرة الله تعالى ،وهومعنى قوله : « يحملها الأخضر المثعنجِر ، والقمقام المسخّر » ، وأنّ البحر الحامل لها قد كان جارياً فوقف تحتها ، وأنّه تعالى خلَق الجبال فى الأرض ، فجعل أصولها راسخة فى ماء البحر الحامل للأرض وأعاليها شامخة فى الهواء ، وأنّه سبحانه جعَل هذه الجبال عِماداً للأرض ، وأوتادا تمنعها من الحركة والاضطراب ، ولولاها لما جَثْ واضطربت ، وأنّ هذا البحر الحامل للأرض تصعد فيه الرياح الشديدة فتحرّكه حركة عنيفة ،وتموج السحب التى تغترف الماء منه لتمطر الأرض به ، وهذا كلّه مطابق لما فى الكتاب العزيز ،والسنّة النبويّة، والنظر الحكميّ ، الا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

---

(١) سورة هود ٧

كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾[1]، وهذا هو صريح قوله عليه السلام : « ففتقها سبع سموات بعد ارتتاقها » ، وإلى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾[2] ، وإلى ماورد فى الخبر من أنّ الأرض مدحوّة على الماء، وأنّ الرياح تسوق السحب إلى الماء نازلة، ثم تسوقها عنه صاعدة بعد امتلائها ، ثم تمطر

وأما النّظر الحُكْمِىّ فطابق لكلامه إذا تأمّله المتأمّل ، وحمله على المحمل العقلىّ ، وذلك لأنّ الأرض هى آخر طبقات العناصر ، وقبلها عنصر الماء ، وهو محيط بالأرض كلّها إلّا مابرز منها ،وهو مقدار الربع من كُرَة الأرض ، على ماذكره علماء هذا الفنّ وبرهنوا عليه ، فهذا تفسير قوله عليه السلام : « يَحْمِلُها الأخضر المثعنجر » .

وأما قوله: « ووقف الجارى منه لخشيته » ، فلا يدلّ دلالة قاطعة على أنه كان جارياً ووقف ، ولكن ذلك كلامٌ خرج مخرج التعظيم والتبجيل، ومعناه أنّ الماء طبعه الجريان والسّيلان ، فهو جارٍ بالقوّة ، وإن لم يكن جاريا بالفعل ، وإنما وقف ولم يجرِ بالفعل بقدرة الله تعالى، المانعة له من السيلان ، وليس قوله: « ورست أصولها فى الماء » ممّا ينافى النظر العقلىّ ، لأنه لم يقل : « ورست أصولها فى ماء البحر » ، ولكنه قال : « فى الماء » ، ولا شبهة فى أنّ أصولَ الجبال راسية فى الماء المتخلخل بين أجزاء الأرض ، فإنّ الأرض كلّها يتخلخل الماء بين أجزائها على طريق استحالة البخار من الصّورة الهوائيّة إلى الصورة المائيّة .

وليس ذكره للجبال وكونها مانعةً للأرض من الحركة بمنافٍ أيضا للنظر الحكمىّ لأنّ الجبال فى الحقيقة قد تمنع من الزلزلة إذا وجدت أسبابها الفاعلة ، فيكون ثقلها مانعا من الهدّة والرجفة .

---

(١) سورة الأنبياء ٣٠

(٢) سورة الأنبياء ٣١

وليس قوله : « تكركره الرياح » منافياً للنظر الحكمىّ أيضا،لأنّ كرة الهواء محيطة بكرة ، وقد تعصف الرياح فى كرة الهواء للأسباب المذكورة فى موضعها من هذا العلم ، فيتموّج كثير من الكرة المائية لعصف الرياح .

وليس قوله عليه السلام : « وتمخضه الغمام الذّوارف » صريحا فى أنّ السحب تنزل فى البحر ، فتغترف منـــه ، كما قد يعتقد فى المشهور العامّى ، نحو قول الشاعر :

كالبحرِ تُمْطِرُه السحاب وَمَا لَهَا فَضْـــلٌ عليه لأنّها من مائِهِ

بل يجوز أن تكون الغمام الذّراف تمخضه وتحرّكه بما ترسل عليه من الأمطار السائلة منها ، فقد ثبت أنّ كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام موجّه ؛ إن شئت فسرته بما يقوله أهلُ الظاهر ، وإنْ شئت فسّرتَه بما يعتقده الحكماء .

فإن قلت : فكيف قال الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ؛ وهل كان الّذين كفروا رائين لذلك ؛ حتى يقول لهم ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؟

قلت : هذا فى قوله : « اعلموا أنّ السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » ، كما يقول الإنسان لصاحبه : ألم تعلم أنّ الأمير صرف حاجبه الليلة عن بابه ؟ أى اعلم ذلك إن كنت غير عالم ؛ والرؤية هنا بمعنى العلم .

واعلم أنّه قد ذهب قوم من قدماء الحكماء ــ ويقال : إنه مذهب سقراط ــ إلى تفسير القيامة وجهنّم بما يبتنى على وضع الأرض على الماء ، فقالوا : الأرض موضوعة على الماء ، والماء على الهواء ، والهواء على النار ، والنار فى حشو الأفلاك ؛ ولما كان العُنصران الخفيفان ، ــ وهما الهواء والنار ــ يقتضيان صعودًا ما يحيطان به ، والعنصران الثقيلان اللّذان فى وسطهما ، وهما

الماء والأرض ؛ يقتضيان النزول والهبوط ، وقعت الممانعة والمدافعة ، فلزم من ذلك وقوف الماء والأرض فى الوسط .

قالوا : ثم إنّ النار لاتزال يتزايد تأثيرها فى إسخان الماء، وينضاف إلى ذلك حرّ الشمس والكواكب إلى أن تبلغ البحار والعنصر المائىّ غايتهما فى الغليان والفوَران ، فيتصاعد بخارٌ عظيم إلى الأفلاك شديد السخونة ، وينضاف إلى ذلك حرّ فلك الأثير الملاصق للأفلاك فتذوب الأفلاك كما يذوب الرصاص ، وتتهافت وتتساقط وتصير كالمهل الشديد الحرارة .

ونفوس البشر على قسمين : أحدهما ما تجوهَر وصار مجردا بطريق العلوم والمعارف وقطع العلائق الجسمانية حيث كان مدبّرا للبدن ، والآخر مابقى على جسمانيته بطريق خلوّه من العلوم والمعارف ، وانغماسه فى اللذات والشهوات الجسمانية ، فأمّا الأول فإنه يلتحق بالنفس الكلّية المجردة ، ويخلص من دائرة هذا العالم بالكلّية . وأمّا الثانى فإنّه تنصبّ عليه تلك الأجسام الفلكية الذائبة ، فيحترق بالكلّية ، ويتعذب ويلقى آلاما شديدة .

قالوا : هذا هو باطن ماوردت به الرّواية من العذاب عليها ، وخراب العالم والأفلاك وانهدامها .

***

ثم نعود إلى شرح الألفاظ :

قوله عليه السلام : « فاستمسكت » ، أى وقفت وثبتت.

والماء فى « حدّه » تعود إلى أمره ، أى قامت على حدّ ماأمرت به ؛ أى لم تتجاوزه ولا تعدّته .

والأخضر : البحر ، ويسمّى أيضا « خُضارة » معرفة غير مصروف، والعرب تسميه بذلك؛ إمّا لأنه يصف لون السماء فيرى أخضر ، أو لأنه يرى أسود لصفائه فيطلقون عليه لفظ

الأخضر ؛ كما سمّوا الأخضر أسود، نحو قوله: ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾[1]، ونحو تسميتهم قرى العراق سوادا لخضرتها وكثرة شجرها ، ونحو قولهم للديزج[2] من الدواب أخضر .

المثعنجر : السائل، ثعجرت الدّم وغيره فاثعنجر، أى صببته فانصبّ ، وتصغير المثعنجر مُثَيْعِج ومُثَيْعِيج .

والقمقام ، بالفتح : من أسماء البحر ، ويقال لمن وقع فى أمر عظيم : وقع فى قمقام من الأمر ، تشبيها بالبحر .

قوله عليه السلام : « وَجَبَل جلاميدَها » ، أى وخلق صخورها ؛ جمع جُلْمود .

والنُّشُوز : جمع نَشز ، وهو المرتفع من الأرض . ويجوز فتح الشين .

ومتونها: جوانبها. وأطوادَها: جبالها: «ويروى»: «وأطوادِها» بالجر عطفا على متونها.

فأرساها فى مراسيها، أثبتها فى مواضعها ،رسا الشئ يرسُو: ثبت. ورست أقدامُهم فى الحرب: ثبتت ، ورست السفينة ترسُو رسوًّا ورسْوا ، أى وقفت فى البحر . وقوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾[3] ؛ بالضم من أجريت وأرسيت ، ومن قرأ بالفتح فهو من « رست » هى ، « وجرت » هى .

وألزمها قرارتها : أمسكها حيث استقرّت .

قوله: «فأنهد جبالها»، أى أعلاها. نهد ثدىُ الجارية ينهُد بالضمّ، إذا أشرف وكعَب ، فهى ناهد وناهدة .

وسهولها : ما تطامن منها عن الجبال .

وأساخ قواعدها ، أى غيّبَ قواعد الجبال فى جوانب أقطار الأرض ، ساخت قوائم

---

(١) سورة الرحمن ٦٤ .

(٢) فى اللسان : « يقال : فرس أخضر ، وهو الديزج » .

(٣) سورة هود ٤١ .

الفرس فى الأرض تَسُوخ وتَسِيخ ، أى دخلت فيها وغابت ، مثل ثاخت ، وأسختها أنا مثل أثختها .

والأنصاب: الأجسام المنصوبة ، الواحد نُصُب بضم النون والصاد ، ومنه سميت الأصنام نُصُبا فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾[1] ؛ لأنها نصبت فعبدت من دون الله، قال الأعشى :

وذا النُّصُب المنصوب لا تنسكنّه لعاقبةٍ ، والله ربّك فاعْبُدا[2]

أى وأساخ قواعد الجبالِ فى متون أقطار الأرض ؛ وفى المواضع الصالحة لأن تكون فيها الأنصاب الماثلة ، وهى الجبال أنفسها .

قوله : « فأشهق قِلالها » ، جمع قُلّةٍ وهى ما علا من رأسِ الجبل ، أشهقها : جعلها شاهقة ، أى عالية .

وأرزَها : أثبتها فيها ، رزت الجرادة تَرُزّ رَزًّا ، وهو أن تدخل ذَنبها فى الأرض فتلقى بيضها، وأرَزَّها الله: أثبت ذلك مهاق الأرض ، ويجوز « أرزت »، لازما غير متعد، مثل رزت ، وارْتَزّ السهم فى القرطاس : ثبت فيه . وروى « وآرزها » بالمد من قولهم : شجرة آرزة ، أى ثابتة فى الأرض ، أرَزَت بالفتح، تأرِز بالكسر، أى ثبتت، وآرزها ـ بالمد ـ غيرُها ، أى أثبتها .

وتميد : تتحرك . وتَسِيخ : تنزل وتهوى .

فإن قلت : ما الفرق بين الثلاثة : تميد بأهلها ، أو تسيخ بحملها ، أو تزول عن مواضعها ؟

قلت : لأنها لو تحركت لكانت إمّا أن تتحرك على مركزها أو لا على مركزها ،

---

(١) سورة المائدة ٣ .

(٢) ديوانه ١٠٣ .

والأوّل هو المراد بقوله : « تميد بأهلها » ، والثانى تنقسم إلى أن تنزل إلى تحت أولا تنزل إلى تحت ، فالنزول إلى تحت هو المراد بقوله : « أو تسيخُ بحَمْلها » والقسم الثانى هو المراد بقوله : « أو تزول عن مواضعها » .

فإن قلت : ما المراد بـ « على » فى قوله : « فسكنت على حركتها » ؟ .

قلت : هى لهيئة الحال ، كما تقول عفوت عنه على سوء أدبه ، ودخلت إليه على شربه ، أى سكنت ، على أن من شأنها الحركة ؛ لأنها محمولة على سائل متموّج .

قوله : « مَوَجان مياهها » ، بناء « فَعَلان » لما فيه اضطراب وحركة كالغليان والنَّزَوان والخَفَقان ، ونحو ذلك .

وأجمدها ، أى جعلها جامدة . وأكنافها : جوانبها . والمِهاد : الفراش

فوق بحر لجىّ : كثير الماء ، منسوب إلى اللّجّة ، وهى معظم البحر .

قوله : « بكركرة الرياح » ، الكركرة : تصريف الريح السّحاب إذا جمعته بعد تفريق وأصله « يكرّر » من التكرير ، فأعادوا الكاف ، كركرت الفارس عنّى أى دفعته ورددته .

والرياح العواصف : الشديدة الهبوب . وتمخَضه ، يجوز فتح الخاء وضمّها وكسرها ، والفتح أفصح ؛ لمكان حرف الحلق ، من مَخَضت اللبن ، إذا حركته لتأخذ زبده .

والغمام : جمع ، والواحدة غمامة ، ولذلك قال : « الذّوارف » ، لأنّ « فواعل » أكثر ما يكون لجمع المؤنث ، ذرفت عينه أى دمعت ، أى السحب المواطر ، والمضارع من « ذرفت » عينه « تذرِف » بالكسر ، ذَرْفا وذَرَفاً . والمذارف : المدامع .

(٢٠٥)

الأصـل :

ومن خطبة له عليه السلام :

اللَّهُمَّ أيُّما عَبْدٍ مِنْ عِبادِكَ سَمِعَ مَقالَتَنا العَادِلَةَ غَيْرَ الجائِرَةِ ، وَالمُصْلِحَةَ في الدِّينِ وَالدُّنيا غَيْرَ المُفْسِدَةِ ، فَأبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَها إلّا النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ ، وَالإبْطاءَ عَنْ إعْزازِ دِينِكَ ، فَإنّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يا أكْبَرَ الشّاهِدِينَ شَهادَةً ، وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ ما أسْكَنْتَهُ أرْضَكَ وَسَمواتِكَ ، ثُمَّ أنْتَ بَعْدَهُ المُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ ، وَالآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ .

* * *

الشـرح :

ما في « أيما » زائدة مؤكدة ، ومعنى الفصل وعيدُ مَن استنصره فقعد عن نصره ، ووصْف المقالة بأنها عادلة ، إمّا تأكيد ، كما قالوا : شعر شاعر ، وإمّا ذاتُ عدْل ، كما قالوا : رجل تامر ولابن ، أي ذو تمْر ولبن ، ويجوز أيضاً أن يريد بالعادلة المستقيمة التي ليست كاذبة ولا محرّفة عن جهتها ، والجائرة نقيضها وهي المنحرفة ، جارَ فلانٌ عن الطريق ، أي انحرف وعدل .

والنكوص : التأخر .

قوله عليه السلام : « نستشهدُك عليه » ، أي نسألك أن تشهد عليه ، ووصفه تعالى

بأنه أكبرُ الشاهدين شهادة، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ﴾[1]، يقول: اللّهمّ إنّا نستشهدك على خذلان من استنصرناه ،واستنفرناه إلى نُصرتك ،والجهاد عن دينك فأبى النّهوض ، ونـكث عن القيام بواجب الجهاد، ونستشهد عِبادَك ،من البشر فى أرضك ، وعبادك من الملائـكة فى سمواتك عليه أيضاً ، ثم أنت بعد ذلك المغنى لنا عن نصرته ونهضته ، بما تتيحه لنا من النصر ، وتؤيدنا به من الإعزاز والقُوّة ، والآخذ له بذنبه فى القعود والتخلّف .

وهذا قريب من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام ١٩

(٢) سورة محمد ٢٨

(٢٠٦)

الأصْـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

اَلْحَمْدُ لِلهِ الْعَلِيِّ عَنْ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ ؛ وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ . الْعَالِمِ بِلاَ اكْتِسَابٍ وَلَا ازْدِيَادٍ ؛ وَلَا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ ، الْمُقَدِّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِلاَ رَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ ، الَّذِي لَا تَغْشَاهُ الظُّلَمُ ، وَلَا يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ ، وَلَا يَرْهَقُهُ لَيْلٌ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ . لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالْإِبْصَارِ ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْإِخْبَارِ .

***

الشـرحُ :

يجوز شَبَه وشِبْه،والرواية هاهنا بالفتح،وتعاليه سبحانه عن شَبَه المخلوقين ؛ كونُه قديما واجب الوجود ، وكلّ مخلوق محدَث ممكن الوجود .

قوله:« الغالب لمقال الواصفين »،أى إنّ كُنه جلاله وعظمته ،لا يستطيع الواصفون وصفه وإنْ أطنبوا وأسهبوا ، فهو كالغالب لأفواههم امجزها عن إيضاحه وبلوغ منتهاه ، والظاهر،بأفعاله ، والباطن بذاته ، لأنه إنّما يعلم منه أفعاله : وأما ذاته فغير معلومة .

ثم وصف علمه تعالى فقال:إنّه غيرُ مكتسَب كما يكتسِب الواحد منّا علومَه بالاستدلال والنظر ، ولا هو علمٌ يزداد إلى علومه الأولى كما تزيد علوم الواحد منّا ومعارفه ، وتكثر لكثرة الطُّرُق التى يتطرّق بها إليها .

ثم قال : « ولا علم مُستفاد » ، أى ليس يعلم الأشياء بعلم محدث مجدّد ، كما يذهب إليه جَهْم وأتباعه وهشام بن الحكم ، ومن قال بقوله .

ثم ذكر أنه تعالى قدّر الأمور كلّها بغير روية،أى بغير فكر ولاضمير،وهو مايطويه الإنسان من الرأى والاعتقاد والعزم فى قلبه .

ثم وصفه تعالى بأنه لايغشاه ظلامٌ ، لأنه ليس بجسم،ولا يستضىء بالأنوار ؛ كالأجسام ذوات البصر . ولا يرْهقه ليل ، أى لا يغشاه . ولا يجرى عليه نهار ، لأنه ليس بزمانىّ . ولا قابل للحركة ، ليس إدراكه بالإبصار ، لأنّ ذلك يستدعى المقابلة . ولا علمه بالإخبار مصدر أخبر ، أى ليس علمه مقصوراً على أن تخبره الملائكة بأحوال المكلّفين ، بل هو يعلم كلّ شىء ، لأنّ ذاته ذات واجبٌ لها أن تعلم كلّ شىء لمجرّد ذاتها المخصوصة ، من غير زيادة أمر على ذاتها .

* * *

الأصْـلُ :

منها فى ذكر النبي صلى الله عليه وآله :

أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ ، وَقَدَّمَهُ فِي الاصْطِفَاءِ ، فَرَتَقَ بِهِ المَفَاتِقَ ، وَسَاوَرَ بِهِ المُغَالِبَ ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ ، وَسَهَّلَ بِهِ الْحُزُونَةَ ، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ ، عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ .

* * *

الشَّـرْحُ :

أرسله بالضياء ، أى بالحقّ ، وسمّى الحقّ ضياء ، لأنه يهتدَى به ، أو أرسله بالضيـاء أى بالقرآن .

وقدّمه فى الإصطفاء ، أى قدّمه فى الاصطفاء على غيره من العرب والعجم ، قالت قريش : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ ﴾ [1] ، أى على رجل من رجلين من القريتين عظيم ؛ أى إمّا على الوليد بن المغيرة من مكّة ، أو على عروة بن مسعود الثقفىّ من الطائف .

ثم قال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [2] ، أى هو سبحانه العالم بالمصلحة فى إرسال الرسل ، وتقديم من يرى فى الاصطفاء على غيره .

فرتق به المفاتق، أى أصلح به المفاسد ، والرّتْق ضدّ الفتق ، والمفاتق : جمع مَفْتَق ، وهو مصدر ؛ كالمضرب والمقتل .

وساور به المغالب : ساورتُ زيداً أى واثبته ، ورجل سَوار ، أى وثّاب ، وسَوْرة الخمر : وثوبها فى الرأس .

والحزونة ضدّ السهولة ، والحَزْن : ما غَلُظ من الأرض ، والسّهل : مالان منها ، واستعير لغير الأرض كالأخلاق ونحوها .

قوله : « حتى سرح الضلال » ، أى طرده وأسرع به ذهابا .

عن يمين وشمال ، من قولهم : ناقة سَرْح ومنسرحة ، أى سريعة . ومنه تسريح المرأة ، أى تطليقها .

---

(١) سورة الزخرف ٣١

(٢) سورة الزخرف ٣٢

(٢٠٧)

الأصل :

ومن خطبة له عليه السلام :

وَأَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدَلَ ، وَحَكَمٌ فَصَلَ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَسَيِّدُ عِبَادِهِ ، كُلَّمَا نَسَخَ اللهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا ، لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ ، وَلَا ضَرَبَ فِيهِ فَاجِرٌ . أَلَا وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلاً ، وَلِلْحَقِّ دَعَائِمَ ، وَلِلطَّاعَةِ عِصَماً ، وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْناً مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ ، يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ ؛ وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَفْئِدَةَ ؛ فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ ، وَشِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمَهُ ، يَصُونُونَ مَصُونَهُ ، وَيُفَجِّرُونَ عُيُونَهُ ؛ يَتَوَاصَلُونَ بِالْوِلَايَةِ ، وَيَتَلَاقَوْنَ بِالْمَحَبَّةِ ، وَيَتَسَاقَوْنَ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ ، وَيَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ . لَا تَشُوبُهُمُ الرِّيبَةُ ، وَلَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْغِيبَةُ ؛ عَلَى ذَلِكَ عَقَدَ خَلْقَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ ، فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ ، وَبِهِ يَتَوَاصَلُونَ ، فَكَانُوا كَتَفَاضُلِ الْبَذْرِ يُنْتَقَى ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُلْقَى ، قَدْ مَيَّزَهُ التَّخْلِيصُ ، وَهَذَّبَهُ التَّمْحِيصُ .

فَلْيَقْبَلِ امْرُؤٌ كَرَامَةً بِقَبُولِهَا ، وَلْيَحْذَرْ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا ، وَلْيَنْظُرِ امْرُؤٌ فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ وَقَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ ، حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِهِ مَنْزِلاً ؛ فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوَّلِهِ ، وَمَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ .

فَطُوبَى لِذِي قَلْبٍ سَلِيمٍ ، أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ ، وَتَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ ، وَأَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرِ مَنْ بَصَّرَهُ ، وَطَاعَةِ هَادٍ أَمَرَهُ ، وَبَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ ،

وَتَقطَّعَ أَسْبَابُهُ . وَاسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ ، وَأَمَاطَ الْحَوْبَةَ ، فَقَدْ أُقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَهُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ .

***

الشَّرْحُ :

الضمير فى « أنّه » يرجع إلى القَضاء والقَدر المذكورفى صدْرهذه الخطبة،ولم يذكره الرضيّ رحمه الله ؛ يقول : أشهد أنّ قضاءه تعالى عَدْل عَدلَ وحَكَم بالحق ، فإنّه حَكَمٌ فصّل بين العباد بالإنصاف ، ونسب العدل والفصل إلى القضاء على طريق المجاز ، وهو بالحقيقة منسوب إلى ذى القضاء ، والقاضى به هو الله تعالى .

قوله : « وسيّد عباده » ، هذا كالمجمَع عليه بين المسلمين ، وإن كان قد خالف فيه شذوذٌ منهم ، واحتجّ الجمهور بقوله: « أنا سيّد ولد آدم ولا فخر » ، وبقوله : « ادعوا لِي سيّدَ العرب عليّاً » ، فقالت عائشة : ألستَ سيّد العرب ! فقال : « أنا سيّد البشر،وعلىّ سيّد العرب » ، وبقوله : « آدم ومَنْ دونه تحت لوائى » .

واحتجّ المخالف بقوله عليه السلام : « لا تفضّلونى على أخى يونس بن متّى » .

وأجاب الأولون تارةً بالطعن فى إسناد الخبر ، وتارة بأنه حكاية كلام حكاه صلى الله عليه وآله عن عيسى بن مريم ، وتارة بأنّ النهى إنّما كان عن الغلوّ فيه كما غلت الأمم فى أنبيائها ، فهو كما ينهى الطبيب المريض فيقول : لا تأكل من الخبز ولا درهما ، وليس مراده تحريمَ أكل الدّرهم والدرهمين ، بل تحريم مايستضرّ بأكله منه .

قوله عليه السلام : « كلّما نسخَ الله الخلْق فرقتين جعله فى خيرهما » ، النّسْخ:النقل، ومنه نسخ الكتاب ، ومنه نَسَخَت الرّيحُ آثار القوم ، ونسخت الشمس الظلّ ، يقول:

كلّما قسم الله تعالى الأب الواحد إلى ابنين ، جعل خيرهما وأفضلهما لولادة محمد عليه السلام، وسمّى ذلك نسخا ، لأنّ البطن الأول يزول ، ويخلفه البطن الثانى ، ومنه مسائل المناسخات فى الفرائض .

وهـذا المعنى قد وردَ مرفوعاً فى عدّة أحاديث ، نحو قولِه صلّى الله عليه وآله : « ماافترقتْ فرقتان منذُ نَسَل آدم ولدَه إلّا كنتُ فى خيرهما » .

ونحو قوله : « إنّ الله اصطفَى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل مُضَر ، واصطفى من مُضَر كنانة ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش هاشما، واصطفانى من بنى هاشم » .

قوله : « لم يُسهِمْ فيه عاهر ، ولا ضرب فيه فاجر » ، لم يسهم : لم يضرب فيه عاهر بسهم ، أى بنصيب ، وجمعه سُهمان ، والعاهر: ذو العَهَر ، بالتحريك وهو الفجور والزنا، ويجوز تسكين الهاء ، مثل نَهْر ونَهَر ، وهذا هو المصدر، والماضى عَهَر بالفتح، والاسم العِهْر، بكسر العين وسكون الهاء ، والمرأة عاهرة ومعاهِرة وعَيْهرة ، وتعيْهَرَ الرّجل إذا زنى ، والفاجر كالعاهر هاهنا ، وأصلُ الفجور: الميْلُ ، قال لَبِيد :

فإنْ تتقَــدّمْ تَغشَ مِنْهَا مقدّماً ... غليظاً، وإن أخّرتَ فالكِفْلُ فاجِرُ[1]

يقول : مقعد الرديف مائل .

* * *

[ذكر بعض المطاعن فى النسب وكلام للجاحظ فى ذلك]

وفى الكلام رمْز إلى جماعة من الصّحابة فى أنسابهم طعن ، كما يقال : إنّ آل سعد ابن أبى وقّاص ليسوا من بنى زُهرة بن كلاب ، وإنّهم من بنى عُذْرة من قحطان ،

---

(١) ديوانه ٢ : ٥

وكما قالوا : إن آل الزّبير بن العوام من أرض مصر من القِبْط ، وليسوا من بنى أسد بن عبد العُزّى . قال الهيثم بن عدىّ فى كتاب " مثالب العرب " : إنّ خُوَيلد بن أسَد بن عبد العُزّى كان أتى مصر ثم انصرف منها بالعوّام ، فتبنّاه ، فقال حسان بن ثابت يهجو آل العوام بن خُويلد :

بَنِى أســـدٍ مابالُ آل خويلدٍ   يحنون شَوْقاً كلّ يوم إلى القِبْطِ !(1)

مَتَى يذكروا قِهْقِى يحنوا لذكرهـــا   والرّمَث المقرون والسّمَـــكِ الرّقطِ

عيون كأمثال الزّجاج وضـــيمةٌ   تخالف كعبا فى لِحًى كَثّـــةٍ ثُطٍّ(2)

يُرَى ذاك فى الشّبان والشيب منهمُ   مبينـــا وفى الأطفال والجِـلّة الشُّمْطِ

لَعَمْرُ أبِى العوام إنّ خُوَيلداً   غَـــداة تبنّاه ليُوثَق فى الشُّرطِ(3)

وكما يقال فى قوم آخرين : نرفع هذا الكتاب عن ذكر مايُطْعَنُ به فى أنسابهم ، كى لايظنّ بنا أنّا نحب المقالة فى النّاس .

قال شيخنا أبو عثمان فى كتاب " مفاخرات قريش " : لاخيرَ فى ذكر العيوب إلّا من ضرورة ، ولا نجد كتاب مثالب قطّ إلالدعىّ أو شعوبىّ ، ولست واجدَه لصحيح النسب ، ولا لقليل الحسد ، وربّما كانت حكاية الفحش أفحشَ من الفحش ، ونقلُ الكذب أقبحَ من الكذب . وقال النبى صلّى الله عليه وآله : « اعف عن ذى قَبْر » ، وقال : « لاتؤذوا الأحياء بسبّ الأموات » ، وقيل فى المثل : « يكفيك من شرّ سماعه » . وقالوا : أسمعك مَنْ أبلغك ، وقالوا : من طلَب عيبا وجده ، وقال النابغة :

وَلَسْتَ بِمستبقٍ أخـــاً لا تَلُمُّهُ   عَلَى شَعَثٍ ، أىُّ الرّجال المهذّبُ !(4)

---

(1) ديوانه ٢٣٩ .

(2) يقال : رجل ثط وأثط ؛ إذا عرى وجهه من الشعر إلاطاقات فى أسفل ضلعه .

(3) يريد شرط الخليفة .

(4) ديوانه ١٤ .

قال أبو عثمان : وبلغ عمرَ بن الخطّاب أنّ أناسا من رُواة الأشعار وحَمَلة الآثار يعيبون النّاس ، ويثلبونهم فى أسلافهم ، فقام على المنبر ، وقال : إيّاكُم وذِكر العيوب ، والبحث عن الأصول ، فلو قلت : لايخرجُ اليوم من هذه الأبواب إلّا مَنْ لا وَصْمَة فيه لم يخرج منكم أحـد . فقام رجلٌ من قريش ــ نكره أن نذكره ــ فقال : إذاً كنتُ أنا وأنت ياأمير المؤمنين نخرج ! فقال : كذبت ، بل كان يقال لك ، ياقين ابن قين ، اقعد!

قلت : الرّجل الذى قام هو المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومىّ ، كان عمرُ يبغضه لبغضه أباه خالدا ، ولأن المهاجر كان عَلَوِىّ الرأى جدا ، وكان أخوه عبد الرحمن بخلافه ، شهد المهاجر صِفّين مع علىّ عليه السلام ، وشهدها عبدُ الرحمن مع معاوية ، وكان المهاجر مع علىّ عليه السلام فى يوم الجمل ، وفقئت ذلك اليوم عينُه . ولأنّ الكلام الذى بلغ عمر بلغه عن المهاجر ، وكان الوليد بن المغيرة مع جلالته فى قريش ــ وكونه يسمّى ريحانة قريش ، ويسمّى العدْل ، ويسمى الوحيد ــ حدّادا يصنع الدروع وغيرها بيده ، ذكر ذلك عنه عبدُ الله بن قتيبة فى كتاب " المعارف [1] " .

وروى أبو الحسن المدائنىّ هذا الخبرَ فى كتاب " أمّهات الخلفاء " وقال : إنه رُوِى عند جعفر بن محمد عليه السلام بالمدينة ، فقال : لاتلمْه يابن أخى ، إنه أشفق أن يُحْدَج [2] بقضيّة نُفيل بن عبد العزى وصهاك أمَة الزبير بن عبد المطلب . ثم قال : رحم الله عمر ! فإنه لم يعدُ السنّة ، وتلا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [3] .

أمّا قول ابن جرير الآمُلىّ الطّبرستانىّ فى كتاب " المسترشد " : إنّ عثمان والد

---

(١) المعارف ٢٠٠

(٢) يقال : حدجه بذنب غيره ؛ أى عزاه إليه

(٣) سورة النور ١٩

أبي بكر الصديق كان نا كحاً أمّ الخير ابنة أخته ، فليس بصحيح ، ولكنها ابنة عمّه، لأنها ابنة صخر بن عامر ، وعثمان هو ابن عمرو بن عامر ؛ والعجب لمن اتبعه من فضلاء الإمامية على هذه المقالة من غير تحقيق لها من كتب الأنساب ، وكيف تتصور هذه الواقعة في قريش ، ولم يكن أحدٌ منهم مجوسيًّا ولا يهوديًّا ، ولا كان من مذهبهم حِلّ نكاح بنات الأخ ولا بنات الأخت !

* * *

ثم نعود لإتمام حكاية كلام شيخنا أبي عثمان ، قال : ومتى يقدر الناس ــ حفظك الله ــ على رجل مسلَّمٍ من كلّ أُبْنة ، ومبرّأ من كلّ آفة ؛ في جميع آبائه وأمهاته وأسلافه وأصهاره ، حتى تسلم له أخواله وأعمامه ، وخالاته وعمّاته ، وأخواته وبناته ، وأمّهات نسائه ، وجميع مَنْ يناسبه من قِبَل جدّاته وأجداده ، وأصهاره وأختانه ! ولو كان ذلك موجوداً لما كان لنسب رسول الله صلّى الله عليه وآله فضيلة في النّقاء والتّهذيب، وفي التّصفية والتّنقيح ، قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « ما مسّني عِرْقُ سِفَاحٍ قطّ ، ومازلت أُنْقَلُ من الأصلاب السليمة من الوُصوم [1] ، والأرحام البريئة من العيوب » ، فلسنا نقضي لأحدٍ بالنّقاء من جميع الوجوه ، إلّا لنسب من صدّقه القرآن ، واختاره الله على جميع الأنام ، وإلّا فلا بدّ من شيء يكون في نفس الرجل أو في طرفيه ، أو في بعض أسلافه ، أو في بعض أصهاره ؛ ولكنّه يكون مغطًّى بالصلاح ، ومحجوبا بالفضائل ، ومغمورا بالمناقب .

ولو تأمّلت أحوالَ النّاس ، لوجدت أكثرهم عيوبا أشدَّهم تعييباً ، قال الزّبرقان بن بدر : ما استبّ رجلان إلّا غلب الأمُهما . وقال : خَصْلتان كثيرتان في امرئ السّوء :

(١) الوصوم : العيوب .

كثرة الطعام ، وشدّة الشّباب ، ولو كان مايقوله أصحابُ الثالب حقًّا ، لما كان على ظهرها عربيّ ، كما قال عبد الملك بن صالح الهاشميّ : إنْ كانَ مايقول بعضٌ في بعض حقًّا ، فما فيهم صحيح ، وإن كان ما يقولُ بعضُ المتكلّمين في بعض حقًّا ، فما فيهم مسلم !

* * *

قوله عليه السلام : « ألا وإنّ الله قد جَعل للخير أهلا ، وللحق دعائم ، وللطاعة عِصَماً » . الدعائم : مايدعَم بها البيت لئلا يسقُط ، والعِصَم : جمع عِصْمة ، وهو مايُحفظ به الشيء ويمنع ، فأهل الخير هم المتقون . ودعائم الحق : الأدِلّة الموصّلة إليه المثبتة له في القلوب. وعِصَم الطّاعة : هي الإدمان على فعلها ، والتمرّن على الإتيان بها ، لأن المُرون على الفعل يكسب الفاعل ملَكةً تقتضي سهولته عليه . والعون هاهنا : هو اللطف المقرّب من الطاعة، المبعِد من القبيح .

ثم قال عليه السلام : « إنّه يقولُ على الألسنة ، ويثبّت الأفئدة » ، وهذا من باب التوسّع والمجاز ، لأنّه لما كان مستهلا للقول أطلق عليه أنّه يقول على الألسنة ،ولمّا كان الله تعالى هو الّذي يثبت الأفئدة ، كما قال : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [1] ، نسب التثبيت إلى اللّطف ، لأنّه من فعل الله تعالى ، كما ينسَب الإنبات إلى المطر ، وإنما المنبِت للزّرع هو الله تعالى ، والمطر فعله .

ثم قال عليه السلام : « فيه كِفاء لمكتفٍ ، وشفاء لمشتفٍ »، والوجه فيه « كفاية »، فإنّ الهمز لا وجه له هاهنا ، لأنّه من باب آخر ؛ ولكنه أتى بالهمزة للازدواج بين « كِفاء »،

---

(١) سورة إبراهيم ٢٧ .

و « شفاء » كما قالوا : الغدايا والعشايا ، وكما قال عليه السلام : « مأزورات غير مأجورات » ، فأتى بالهمز ، والوجه الواو ، للازدواج .

* * *

[ذكر بعض أحوال العارفين والأولياء]

ثم ذكر العارفين ، فقال : « واعلموا أنّ عباد الله المستحفظين علمه » ، إلى قوله : « وهذّبه التمحيص » .

واعلم أن الكلام و« العرفان لم يأخذه أهل الملّة الإسلامية إلّا عن هذا الرّجل ، ولعمري لقد بلغ منه إلى أقصى الغايات ، وأبعد النّهايات . والعارفون هم القوم الّذين اصطفاهم الله تعالى ، وانتخبهم لنفسه ، واختصّهم بأنسه ، أحبوه فأحبهم ، وقربوا منه فقرُب منهم .

قد تكلّم أرباب هذا الشأن في المعرفة والعرفان ، فكلّ نطق بما وقع له ، وأشار إلى ما وجده في وقته .

وكان أبو علي الدّقاق يقول : منْ أمارات المعرفة حصولُ الهيبة من الله ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

وكان يقول : المعرفة توجبُ السّكينة في القلب ، كما أنّ العلم يوجب السّكون ، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته .

وسئل الشّبليّ عن علامات العارف ، فقال : ليس لعارفٍ علامة ، ولا لمحبّ سكون ، ولا لخائف قرار .

وسئل مرّة أخرى عن المعرفة ، فقال : أوّلها الله ، وآخرها مالا نهاية له .

وقال أبو حفص الحدّاد : منذ عرفت الله ما دخل قلبي حقّ ولا باطل . وقد أشكل هذا الكلامُ على أرباب هذا الشأن ، وتأوّله بعضُهم ، فقال : عند القوم أنّ المعرفة توجب

غَيْبة العبد عن نفسه لاستيلاء ذِكْر الحق عليه ، فلا يشهد غير الله ، ولا يرجع إلّا إليه ، وكما أنّ العاقل يرجع إلى قلبه وتفكّره وتذكّره فيما يسنح له من أمر ، أو يستقبله من حال ، فالعارف رجوعه إلى ربّه ، لا إلى قلبه ، وكيف يدخل المعنى قلبَ مَنْ لا قلبَ له !

وسئل أبو يزيد البِسْطامىّ عن العِرْفان ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾[1] ، وهذا معنى ما أشار إليه أبو حفص الحدّاد .

وقال أبو يزيد أيضاً : للخَلْق أحوال ، ولا حال للعارف ، لأنّه محيت رسومه وفنىَ هو ، وصارت هويّته هويّة غيره ، وغيبت آثاره فى آثار غيره .

قلت : وهذا هو القول بالاتحاد الذى يبحث فيه أهل النظر .

وقال الواسطىّ : لا تصحّ المعرفة وفى العبد استغناء بالله ، أو افتقار إليه . وفسّر بعضُهم هذا الكلام ، فقال : إنّ الافتقار والاستغناء من أمارات صَحْو العبد وبقاء رسومه على ما كانت عليه ، والعارف لا يصحّ ذلك عليه ، لأنّه لاستهلاكه فى وجوده ، أو لاستغراقه فى شهوده ؛ إنْ لم يبلغْ درجة الاستهلاك فى الوجود مختطف عن إحساسه بالغنى والفقر وغيرهما من الصّفات ، ولهذا قال الواسطىّ : منْ عَرَف الله انقطع وخرس وانقمع ، قال صلى الله عليه وآله : « لا أحصى ثناء عليك ، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك » .

وقال الحسينُ بن منصور الحلّاج : علامة العارف أن يكون فارغاً من الدّنيا والآخرة .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرىّ : غاية العرفان شيئان : الدَّهَش والحيْرة .

وقال ذو النّون : أعرَفُ النّاس بالله أشدُّهم تحيُّرا فيه .

وقيل لأبى يزيد : بماذا وصلت إلى المعرفة ؟ قال : ببدنٍ عارٍ ، وبطن جائع .

---

(١) سورة النمل ٣٤ .

وقيل لأبى يعقوب السُّوسىّ :هل يتأسّف العارف على شيء غير الله ؟ فقال :وهل يرى شيئاً غيره ، ليتأسّف عليه !

وقال أبو يزيد : العارف طيّار ، والزاهد سيّار .

وقال الجُنَيد : لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يَطَؤُها البَرّ والفاجر ، وكالسحاب يُظلّ كلّ شيء ، وكالمطر يسقِى ما ينبت وما لا ينبت .

وقال يحيى بن معاذ: يخرُج العارف من الدّنيا ،ولا يقضى وطره من شيئين: بكائه على نفسه ، وحبّه لربه.

وكان ابن عطاء يقول : أركان المعرفة ثلاثة : الهيبة ، والحياء ، والأنس .

وقال بعضهم: العارف أنِسَ بالله فأوحَشه من خلْقه ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خَلْقه، وذلّ لله فأعزّه فى خلْقه .

وقال بعضهم : العارف فوق ما يقول ، والعالم دون ما يقول .

وقال أبو سُليمان الدّارَانىّ : إنّ الله يفتح للعارف على فراشِه ، ما لا يفتح للعابد وهو قائم يصلّى .

وكان رُوَيْم يقول : رياء العارفين أفضلُ من إخلاص العابدين .

وسئل أبو تراب النخشبىّ عن العارف ، فقال : هو الّذى لا يكدّره شيء ، ويصفُو به كلّ شيء .

وقال بعضهم : المعرفة أمواج ترفع وتَحُطّ .

وسئل يحيى بن مُعاذ عن العارف ، فقال : الكائن البائن .

وقيل : ليس بعارف مَنْ وصف المعرفة عند أبناء الآخرة ، فكيف عند أبناء الدنيا!

وقال محمد بن الفضل : المعرفة حياة القلب مع الله .

وسئل أبو سعيد الخرّاز : هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البكاء ؟ قال

نعم ، إنّما البكاء في أوقات سيرهم إلى الله ، فإذا صاروا إلى حقائق القرب ، وذاقوا طعم الوصُول ، زال عنهم ذلك .

***

واعلم أنّ إطلاق أمير المؤمنين عليه السلام عليهم لفظة « الولاية » ، في قوله : « يتواصَلُون بالولاية ، ويتلاقون بالمحبّة » يستدعي الخوْض في مقامَيْن جليلين من مَقامات العارفين : المقام الأوّل الولاية ، وهو مقام جليل ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

وجاء في الخبَر الصّحيح عن النبيّ صلّى الله عليه وآله ، يقول الله تعالى : « مَنْ آذى لي وليًّا فقد استحلّ محارِمي ، وما تقرّب إليّ العبد بمثل أداء ما فرضتُ عليه ، ولا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه ، ولا تردّدت في شيء أنا فاعله كتردّدي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ، ولابُدّ لهُ منه » .

واعلم أنّ الوليّ له معنيان :

أحدهما « فَعِيل » بمعنى « مفعول » ، كَقتيل وجَريح ، وهو من يتولّى الله أمره كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ ﴾ (٢) ، فلا يكِله إلى نفسه لحظة عين ، بل يتولّى رعايته .

وثانيهما « فَعِيل » بمعنى « فاعل » كَنَذِير وعَلِيم ؛ وهو الّذي يتولّى طاعة الله وعبادته فلا يعصيه .

ومن شرط كون الوليّ وليًّا ألّا يعصِيَ مولاه وسيّده ، كما أن من شرط كون النبيّ

---

(١) سورة يونس ٦٢ .
(٢) سورة الأعراف ١٩٦ .

نبيا العصمة ، فمن ظنّ فيه أنّه من الأولياء ، ويصدر عنه ما للشرع فيه اعتراض ، فليس بولىّ عند أصحاب هذا العلم . بل هو مغرور مخادع .

ويقال : إنّ أبا يزيدَ البِسْطامىّ قصد بعض مَنْ يوصف بالولاية ، فلما وافى مسجده، قعد ينتظر خروجه ، فخرج الرجل وتنخّم فى المسجد ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلّم عليه ، وقال : هذا رجلٌ غير مأمون على أدبٍ من آداب الشريعة ، كيف يكون أمينا على أسرار الحق !

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل : أتحبّ أن تكون لله وليا ؟ قال : نعم ، قال: لا ترغب فى شىء من الدّنيا ولا من الآخرة ، وفرّغ نفسك لله ، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك .

وقال يحيى بن معاذ فى صِفَة الأولياء : هم عبادٌ تسربَلُوا بالأنس بعد المكابدة ، وادّرَعُوا بالرّوح بعد المجاهدة ، بوصولهم إلى مقام الولاية .

وكان أبو يزيدَ يقول : أولياء الله عرائس الله ، ولا يرى العرائسَ إلّا المحارم ، فهم مخدّرون عنده فى حجاب الأنس ، لا يراهم أحدٌ فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقال أبو بكر الصّيْدلانىّ : كنت أصلِحُ لقبر أبى بكر الطمستانى لوحا أنقر فيه اسمه، فيُسرَق ذلك اللوح، فأنقر له لوحا آخر وأنصبه على قبره ، فيُسرق، وتكرر ذلك كثيرا دون غيره من ألواح القبور ، فكنت أتعجبّ منه ، فسألت أبا علىّ الدّقاق عن ذلك ، فقال : إنّ ذلك الشيخ آثر الخفاء فى الدنيا ، وأنت تريد أن تشهره باللوح الذى تنصبه على قبره فالله سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره ، كما هو ستر نفسه .

وقال بعضهم : إنّما سمى الولىّ وليا ، لأنّه توالت أفعاله على الموافقة .

وقال يحيى بن معاذ : الولى لايرائى ولا ينافق ، وما أقلّ صديق من يكون هذا خلُقه !

***

المقام الثانى المحبّة قال الله سبحانه : ﴿ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [1] ، والمحبّة عند أرباب هذا الشأن حالة شريفة .

قال أبو يزيدَ البسطاميّ : المحبّة استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك .

وقال أبو عبد الله القرشيّ : المحبة أن تهب كلَّك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شىء . وأكثرهم على نفى صفة العشق ، لأنّ العشق مجاوزة الحدّ فى المحبّة ، والبارئ سبحانه أجلُّ من أن يوصف بأنّه قد تجاوز أحد الحدّ فى محبته .

سئل الشّبلىّ عن المحبة ، فقال : هى أن تَغارَ على المحبوب أن يحبّه أحدٌ غيرك .

وقال سَمنون : ذهب المحبّون بشرف الدنيا والآخرة ، لأنّ النبىّ صلىّ الله عليه وآله قال : « المرء مع من أحبّ » ، فهم مع الله تعالى .

وقال يحيى بن مُعاذ : حقيقة المحبّة مالا ينقُص بالجفاء ، ولا يزيد بالبرّ .

وقال : ليس بصادق من ادّعى محبّته ولم يحفظ حدوده .

وقال الُجنيد : إذا صحّت المحبّة سقطت شروط الأدب .

وأنشد فى معناه :

إذا صَفَت للودّة بين قوم وَدَامَ ودادهم سَمُج الثّناء

وكان أبو علىّ الدقاق يقول : ألست ترى الأب الشفيق لايبجّل ولده فى الخطاب ، والناس يتكلّفون فى مخاطبته ، والأب يقول له : يافلان ، باسمه .

---

(١) سورة المائدة ٥٤ .

وقال أبو يعقوب السُّوسِيّ : حقيقة المحبّة أن ينسَى العبد حظَّه من الله ، وينسى حوائجه إليه .

قيل للنصراباذىّ : يقولون : إنه ليس لك من المحبّة شيء . قال : صدقوا ، ولكن لى حسراتهم ، فهو ذو احتراق فيه .

وقال النصراباذىّ أيضا : المحبّة مجانبة السلوّ على كل حال ، ثم أنشد :

وَمَنْ كَانَ فى طُولِ الهوى ذاقَ سَلْوَةً ... فإنىَ من ليلى لها غير ذائقِ
وأكثرُ شىء نلتُه فى وصالها ... أمانىّ لم تصدق كلمحةِ بارقِ

وكان يقال : الحب أوله خَبْل ، وآخره قتل .

وقال أبو على الدقّاق فى معنى قول النبىّ صلّى الله عليه وآله : « حبّك الشىء يُعمى ويُصِمّ » ، قال : يعمى ويصمّ عن الغير إعراضا وعن المحبوب هَيْبة ، ثم أنشد :

إذَا مابدا لى تعاظمتُه ... فأصدر فى حال مَنْ لم يرَه

وقال الُجنيد : سمعتُ الحارث المحاسبىّ ، يقول : المحبّة إقبالك على المحبوب بكليّتك، ثم إيثارك له على نفسك ، ومالك وولدك ، ثم موافقتك له فى جميع الأمور سرًّا وجهرا، ثم اعتقادك بعد ذلك أنّك مقصّر فى محبته .

وقال الجُنيد : سمعتُ السرىّ يقول : لاتصلح المحبّة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر : يا أنا .

وقال الشّبلىّ : المحبّ إذا سكت هلك ، والعارف إذا لم يسكت هلك .

وقيل : المحبّة نار فى القلب تحرق ماسوى ودّ المحبوب .

وقيل : المحبّة بذلُ الجهد ، والحبيب يفعل مايشاء .

وقال الثّورىّ : المحبّة هَتك الأستار ، وكشف الأسرار .

حبس الشِّبْلِيّ فى المارستان بين المجانين ، فدخل عليه جماعة، فقال : مَنْ أنتم؟ قالوا : محبُّوك أيها الشيخ . فأقبل يرميهم بالحجارة ، ففرُّوا ، فقال : إذ ادعيتم محبتى فاصبروا على بلائى .

كتب يحيى بن معاذ إلى أبى يزيدَ البِسطامىّ : قد سكرتُ من كثرة ما شربتُ من من كأس محبته . فكتب إليه أبو يزيد: غيرُك شربَ بحور السموات والأرض وما روِىَ بعد ، ولسانه خارج ، ويقول : هل من مزيد !

ومن شعرهم فى هذا المعنى :

عجبتُ لمنْ يقولُ ذكرتُ ربِّى وهَــلْ أنسى فأذكر ما نَسِيتُ !
شربتُ الحبَّ كأساً بعــد كأسٍ فما نَفِدَ الشَّرابُ ولا رَوِيتُ

ويقال : إنّ الله تعالى أوحى إلى بعض الأنبياء : إذا اطّلعت على قلب عَبْدٍ فلم أجد فيه حبَّ الدنيا والآخرة ، ملأتُه من حبى .

وقال أبو علىٍّ الدّقاق : إنّ فى بعض الكتب المنزّلة: عبدى ، أنا وحقّك لك محبّ ، فبحقّى عليك كن لى محبًّا .

وقال عبدالله بن المبارك : مَنْ أعطِىَ قِسْطاً من المحبّة ، ولم يعطَ مثله من الخشية ، فهو مخدوع .

وقيل : المحبة ما تمحو أثرك ، وتسلُبك عن وجودك .

وقيل : المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، ثم إنّ السكر الذى يحصل عند المشاهدة لا يُوصف . وأنشد :

فأسكرَ القومَ دَوْرُ كأسٍ وكان سُكْرِى من المدير

وكان أبو علىّ الدقّاق ينشد كثيرا :

لي سكرتان وللندمان واحــــدةٌ ... شيء خصصتُ به من بينهم وحدي

وكان يحيي بن معاذ يقول : مثقالُ خردلة من الحبّ أحبّ إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حبّ .

وقال بعضهم : مَنْ أراد أن يكونَ محبًا ، فليكن كما حُكِي عن بعض الهند أنه أحبّ جاريةً ، فرحلت عن ذلك البلد ، فخرج الفتى في وداعها ، فدمَعَتْ إحدى عينيْه دون الأخرى ، فغمض التي لم تدمع أربعا وثمانين سنة ولم يفتحْها ، عقوبة لأنها لم تبكِ على فراق حبيبته .

وأنشدوا في هذا المعنى :

بكتْ عيني غَــداة البين دَمْعاً ... وأُخرى بالبـكا بخلت علَيْنا

فعاقبتُ التي بخِلَتْ عَلَيْنـــا ... بأن غمّضتها يومَ التقَيْنــا

وقيل : إنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : إني حرمت على القلوب أن يدخلَها حبّي وحبّ غيري .

وقيل : المحبة إيثارُ المحبوب على النفس، كامرأة العزيز لما أفرط بها الحبّ ، قالت: ﴿ أنا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(١) ، وفي الابتداء ، قالت : ﴿ ما جزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إلّا أنْ يُسْجَنَ ﴾(٢) فورّكت(٣) الذنب في الابتداء عليــه ، ونادت في الانتهاء على نفسها بالخيانة .

وقال أبو سعيد الخراز : رأيتُ النبيّ صلى الله عليه وآله في المنام، فقلت : يا رسولَ الله ، اعذرني ، فإنّ محبة الله شغلتني عن حبّك ، فقال : يا مبارك ، مَنْ أحبّ الله فقد أحبّني.

● ● ●

(١) سورة يوسف ٥١ .
(٢) سورة يوسف ٢٥ .
(٣) يقال : ورك الذنب عليه : حمله .

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل :

قوله عليه السلام : « يصونون مَصُونه » ؛ أي يكتمون من العلم الذى استحفظوه ما يجب أن يُكتم . ويفجّرون عيونه: يظهرون منه ماينبغى إظهاره؛ وذلك أنه ليس ينبغى إظهار كلّ ما استودِع العارف من الأسرار ؛ وأهلُ هذا الفنّ يزعمون أنّ قوماً منهم عجزوا عن أن يحمِلوا بما حُمّلوه ، فباحوا به فهلكوا ، منهم الحسين بن منصور الحلّاج . ولأبى الفتوح الجارُودىّ المتأخّر أتباعٌ يعتقدون فيه مثلَ ذلك .

والوَلاية ، بفتح الواو: المحبّة والنُّصرة، ومعنى «يتواصَلُون بالوَلاية» يتواصلون وهم أولياء ، ومثله : « ويتلاقَوْن بالمحبّة » كما تقول : خرجت بسلاحى ، أى خرجت وأنا متسلّح ، فيكون موضع الجار والمجرور نصباً بالحال ، أو يكون المعنى أدقّ وألطف من هذا ، وهو أن يتواصلوا بالوَلاية ، أى بالقلوب لا بالأجسام ، كما تقول : أنا أرَاك بقلبى ، وأزورك بخاطرى ، وأواصلك بضميرى .

قوله : « ويتساقَوْن بكأسٍ رَوِيّة » ، أى بكأس المعرفة ، والأنس بالله ، يأخذ بعضهم عن بعض العلومَ والأسرار ، فكأنهم شَرْبٌ يتساقَوْن بكأس من الخمر[1] .

قال : « ويصدُرون بريّة » يقال : من أين رِيّتكم ؟ مفتوحة الراء ، أى[2] من أين ترتوون الماء ؟

قال : «لا تشوبهم الرِّيبة» ، أى لا تخالطهم الظِّنّة والتُّهمة ، ولا تسرع فيهم الغِيبة ، لأن أسرارهم مشغولةٌ بالحقّ عن الخلق .

قال : « على ذلك عقَد خَلْقهم وأخلاقهم » ، الضمير فى «عقَد» يرجع إلى الله تعالى ، أى على هذه الصفات والطبائع عَقَد الخالق تعالى ، خِلْقتهم وخُلُقهم ، أى هم متهيئون لما صاروا إليه ، كما قال عليه السلام : « إذا أرادك لأمر هيأك له » .

---

(١) ب : « الخمرة » ، وما أثبته من ا (٢) ساقطة من ا .

وقال عليه السلام : « كلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له » .

قال : « فعليه يتحابون ، وبه يتواصلون » ، أي ليس حبُّهم بعضهم بعضاً إلّا في الله ، وليست مواصلتهم بعضهم بعضاً إلا لله ، لا للهوى ، ولا لغرضٍ من أغراض الدنيا ، أنشد منشدٌ عند عمر قولَ طرَفة :

فَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الْفَتَى ... وَجَدِّكَ لم أحفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي [1]

فمنهنَّ سَبق العاذلاتِ بشَرْبةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بالماء تَزْبدِ [2]

وَكَرِّى إذا نادَى المضاف مُحنَّباً ... كَسِيدِ الْغَضَا نبهتَـــــهُ المتوردِ [3]

وَتَقْصِيرُ يوم الدَّجْن والدَّجْنُ مُعجِبٌ ... بِبَهْـــكَنَةٍ تحتَ الطِّرَاف المعمَّدِ [4]

فقـال عمر : وأنا لولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى ، لم أحفِل متى قام عوّدى ؛ حُبِّي في الله ، وبغضي في الله ، وجهادي في سبيل الله .

قوله عليـه السلام : « فـكانوا كتفاضل البَذْر » ، أي مَثَلُهم مثل الحب الذي يُنتقى للبَذْر ، يستصلح بعضه ، ويسقط بعضه .

قد ميزّه التخليص : قد فرّق الانتقاء بين جيده ورديئه .وهذّبه التمحيص، قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « إن المرض ليمحّص الخطايا كما تمحّص النار الذهب »، أي كما تخلّص النار الذهب مما يشوبه .

ثم أمر عليه السلام المكلفين بقبول كرامة الله ونصحه ، ووعظه وتذكيره ، وبالحذر

---

(١) من المعلقة بشرح التبريزى ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الـكميت من الخمر: التي تضرب إلى السواد . وقوله : متى ماتعل بالماء تزبد ؛ أي متى تمزج به تزبد، لأنها عتيقة .

(٣) كرى : عطفى . والمضاف : الذى أضافته الهموم . والمحنب : احديداب فى وظيفى يدى الفرس ، وليس ذلك بالاعوجاج الشديد ؛ وهو مما يوصف صاحبه بالشدة . والسيد : الذئب . والغضا : شجر ؛ وذئابه أخبث الذئاب . ونبهته : هيجته . والمتورد : الذى يطلب أن يرد الماء .

(٤) الدجن : إلباس الغيم السماء ، ومعجب : يعجب من رآه . والبهكنة : التامة الخلق .

مِنْ نزول القارعة بهم ، وهى هاهنا الموت ، وسمّيت الداهية قارعةً لأنها تقرع ، أى تصيب بشدّة .

قوله : « فليصنع لمتحوّله » ؛ أى فليعدّ مايجب إعداده للموضع الذى يتحوّل إليه ، تقول : اصنع لنفسك ، أى اعمل لها .

قوله : « ومعارف منتقَلِه » معارف الدّار : مايعرفها المتوسّم بها واحدها معرَف، مثل معاهد الدار ، ومعالم الدار ، ومنه معارف المرأة ،وهومايظهر منها، كالوجْه واليدين. والمنتقَل ، بالفتح : موضع الانتقال .

قوله : «فطوبَى» هى « فُعْلَى » من الطِّيب ، قلبوا الياء واوا للضمّة قبلها ، ويقال : طوبَى لك ، وطوباك ! بالإضافة .

وقول العامة : « طوبيك » بالياء غير جائز .

قوله : « لذى قلب سليم » ، هو من ألفاظ الكتاب العزيز [١] ، أى سليم من الغلّ والشك .

قوله : « أطاع مَنْ يهديه » ، أى قبل مشورة الناصح الآمر له بالمعروف ،والناهى له عن المنكر .

وتجنّب مَنْ يُرْدِيه ، أى يهلكه بإغوائه وتحسين القبيح له .

والباء فى قوله : « ببصرِ مَنْ بَصّره » ، متعلّقة بـ « أصاب » .

قوله : « قبل أن تغلق أبوابه » ، أى قبل أن يحضره الموت فلا تقبل توبته .

والحوبة : الإثم . وإماطته : إزالته ، ويجوز أمطتُ الأذى عنه ، ومِطت الأذى عنه، أى نحّيته ، ومنع الأصمعىّ منه إلّا بالهمزة .

---

(١) وذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء ٨٩ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ، وقوله فى سورة الصافات ٨٤ : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

(٢٠٨)

الأبدال:

ومن دعاء كان يدعو به عليه السلام كثيرا:

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِي مَيِّتاً وَلَا سَقِيماً، وَلَا مَضْرُوباً عَلَى عُرُوقٍ بِسُوءٍ؛ وَلَا مَأْخُوذاً بِأَسْوَإِ عَمَلِي، وَلَا مَقْطُوعاً دَابِرِي، وَلَا مُرْتَدّاً عَنْ دِينِي، وَلَا مُنْكِراً لِرَبِّي، وَلَا مُسْتَوْحِشاً مِنْ إِيمَانِي، وَلا مُلْتَبِساً عَقْلِي، وَلَا مُعَذَّباً بِعَذَابِ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِي.

أَصْبَحْتُ عَبْداً مَمْلُوكاً، ظَالِماً لِنَفْسِي؛ لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ – وَلَا حُجَّةَ لِي – وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي، وَلَا أَتَّقِيَ إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي.

اَللّٰهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقِرَ فِي غِنَاكَ، أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ، أَوْ أُضَامَ فِي سُلْطَانِكَ، أَوْ أُضْطَهَدَ وَالْأَمْرُ لَكَ!

اَللّٰهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَزِعُهَا مِنْ كَرَائِمِي، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي!

اَللّٰهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ، أَوْ أَنْ نُفْتَتَنَ عَنْ دِينِكَ، أَوْ تَتَابَعَ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ!

***

الشـرح :

قوله : « كثيرا » منصوب بأنه صفة مصـدر محذوف ، أى دعاء كثيرا . وميّتا منصوب على الحال ، أى لم يطلع الصباح علىّ ميتا ، ولا يجوز أن تـكون « يصبح » ناقصة ، ويكون «ميتا» خبرها ، كما قال الراونديّ ؛ لأنّ خبر « كان » وأخواتها، يجب أن يكونَ هو الاسم ، ألا ترى أنّهما مبتدأ وخبر فى الأصل واسم « يصبح » ضمير «الله» تعالى ، و « ميتا » ليس هو الله سبحانه .

قوله : « ولا مضروبا على عروق بسوء » ، أى ولا أبرَص ، والعرب تـكني عن البرص بالسّوء ، ومن أمثالم : ما أنـكرُكَ من سوء ، أى ليس إنـكارى لك عن برَص حَدَث بك فغيّر صورتك .

وأراد بعروقه أعضاءه ، ويجوز أن يريد : ولا مطعونا فى نسبي ، والتفسير الأوّل أظهر .

« ولا مأخوذا بأسوإ عملى » ، أى ولا معاقبا بأفحش ذنوبي .

ولا مقطوعا دابرى ، أى عقبي ونسلِي . والدابر فى الأصل : التابع ، لأنّه يأتى دبرًا ، ويقال للهالك : قد قطع الله دابره ، كأنّه يراد أنه عفا أثره ، ومحا اسمه ، قال سبحانه : ﴿أَنَّ دَابِرَ هٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [(١)] .

ولا مستوحشا ، أى ولا شاكًّا فى الإيمان ، لأنّ مَنْ شكّ فى عقيدةٍ استوحش منها.

ولا ملتبسا عقلى ، أى ولا مختلطا عقلى ، لَبَسْتُ عليهم الأمر بالفتح ، أى خلطته .

وعذاب الأمم من قبلُ المسخُ والزّلزلة والظلمة ونحو ذلك .

---

(١) سورة الحجر ٦٦ .

قوله : « لك الحجة علىّ ، ولا حجّة لى » ، لأنّ الله سبحانه قد كلّفه بعد تمكينه وإقداره وإعلامه قبحَ القبيح ووجوب الواجب وتردید دواعیه إلى الفعل وتركه ، وهذه حجّة الله تعالى على عباده ، ولا حجّة للعباد عليه ، لأنه ما كلّفهم إلّا بما يطيقونه ،ولا كان لم لطف فى أمرٍ إلا وفَعَلَه.

قوله : « لا أستطيع أن آخذ إلّا ما أعطيتَنى ، ولا أتقىَ إلا ما وقَيْتَنى » ، أى لاأستطيع أن أرزق نفسى أمرا ، ولكنك الرزاق ، ولا أدفع عن نفسى محذورا من المرض والموت إلا مادفعته أنتَ عنّى .

وقال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مايَدْرِى الْفَتَى كَيْفَ يتقى   نوائبَ هذا الدّهر أم كيف يحذَرُ ا
يرى الشىء مِمّا يُتّقَى فيخافُهُ[1]   ومالا يرى ممـا يقِى اللهُ أكثَرُ

وقال عبد الله بن سليمان بن وهب :

كفاية الله أجدَى مِن توقّينا   وعادةُ الله فى الأعداء تكفينا
كاد الأعادى فما أبقَوْا ولا تركوا   عَيْباً وطعنا وتقبيحا وتهجينا
ولم نزد نحنُ فى سرّ وفى علَنٍ   عَلَى مقالتِنا : الله يكفينا
وكان ذاك ـ وردّ الله حاسدَنا   بغيظه ـ لم ينل مأمولَه فينا

قوله عليه السلام : « أنْ أفتقِر فى غناك » ، موضع الجار والمجرور نصب على الحال ، و « فى » متعلّقة بمحذوف ، والمعنى أن أفتقِر وأنت الموصوف بالغنى الفائض على الخلق ، وكذلك قوله : « أوأضِلّ فى هداك » ،معناه :أوأضل وأنت ذو الهداية العامّة للبشر كافّة، وكذلك : « أو أضام فى سلطانك » ، كما يقول المستغيث إلى السلطان : كيف أظلم فى عدلك !

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « ويخافه » .

وكذلك قوله : « أو أضطهد والأمرُ لك »، أي وأنت الحاكم صاحبُ الأمر ، والطاء في « أضطهد » هي تاء الافتعال ، وأصل الفعل ضهدت فلانا ، فهو مضهود ، أي قهرته وفلان ضُهَدَة لكلّ أحد ، أي كلّ مَنْ شاء أن يقهره فعل .

قوله : « اللهمّ اجعلْ نفسي » ، هذه الدعوة مثل دَعْوة رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وهي قوله : « اللهمّ مَتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا ، واجعله الوارث منّا » ، أي لا تجعل موتنا متأخِّراً عن ذهاب حواسّنا . وكان عليّ بن الحسين يقول في دعائه : اللهمّ احفَظْ عليّ سمعي وبصري ، إلى انتهاء أجَلي .

وفسّرُوا قوله عليه السلام : « واجعلْه الوارث مِنّا » ، فقالوا : الضمير في «واجعله» يرجع إلى الإمتاع .

فإن قلت : كيف يتّفق الإمتاع بالسمع والبصر ، بعد خروج الرّوح ؟

قلت : هذا توسّع في الكلام ، والمراد : لا تبلُنا بالعمَى ولا الصَّمَم ، فنكون أحياء في الصورة ولسنا بأحياء في المعنى ، لأنّ مَنْ فقدهما لا خَيْر له في الحياة ، فحملتْه المبالغة على أن طلب بقاءهما بعد ذهاب النفس ، إيذاناً وإشعاراً بحبّه ألّا يُبْلَى بفقدهما .

ونُفْتَتَن ، على ما لم يسمّ فاعله : نصابُ بفتنة تُضِلّنا عن الدِّين ، وروى : « نَفْتَتِن » بفتح حرف المضارعة على « نفتعل » ، افتتن الرجل أي فتن ، ولا يجوز أن يكون الافتتان متعدِّياً كما ذكره الراوندي ، ولكنه قرأ في " الصحاح " للجوهري : «والفتون : الافتتان ، يتعدّى ولا يتعدّى » ، فظنّ أنّ ذلك للافتتان وليس كما ظنّ ، وإنما ذلك راجع إلى الفُتون .

والتتابع : التهافت في اللّجاج والشرّ ، ولا يكون إلّا في مثل ذلك ، وروى أو «تتابع» بطرح إحدى التاءات .

(٢٠٩)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام خطبها بصفين :

أمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ ، وَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ ، وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ ، لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ .وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ ، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لِلهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ ، لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ ،وَلِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ ؛ وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ ،وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ، تَفَضُّلاً مِنْهُ، وَتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ .

* * *

الشرح :

الذى له عليهم من الحقّ هو وجوب طاعته ، والذى لهم عليه من الحقّ هو وجوب معدلته فيهم . والحقّ أوسع الأشياء فىالتواصف ، وأضيقُها فى التناصف ؛ معناه أنّ كلّ أحدٍ يصف الحقّ والعدل ، ويذكر حسنه ووجوبه ، ويقول : لو وُلّيت لعدلت ، فهو بالوصف باللسان وسيع،وبالفعل ضيّق،لأنّ ذلك العالَم العظيم الذين كانوا يتواصفون حسنه، ويعِدُون أنْ لو وُلّوا باعتماده وفعله ، لا تجدُ فى الألف منهم واحداً لو وُلّيَ لعدل .ولكنه قول بغير عما

ثم عاد إلى تقرير الكلام الأول ، وهو وجوب الحقّ له وعليه ، فقال : إنّه لايجرى لأحدٍ إلّا وجرى عليه ، وكذلك لايجرى عليه إلّا وجرى له ، أى ليس ولا واحد من الموجودين يرتفع عن أن يجرى الحقّ عليه ، ولو كان أحدٌ من الموجودين كذلك لكان أحقّهم بذلك البارئ سبحانه ، لأنّه غايةُ الشرف ، بل هو فوق الشرف وفوق الكمال والتمام ، وهو مالك الكلّ ، وسيّد الكلّ ، فلو كان لجواز هذه القضية وجه ، ولصحّتها مساغ ، لكان البارئ تعالى أوْلى بها ، وهى ألّا يُستحقّ عليه شىء ، وتقدير الكلام : لكنّه يُستحقّ عليه أمور ، فهو فى هذا الباب كالواحد منّا يَستحقّ ويُستحقّ عليه ، ولكنّه عليه السلام حذف هذا الكلام المقدّر ، أدباً وإجلالا لله تعالى أن يقول : إنه يُستحقّ عليه شىء .

فإن قلت : فما بالُ المتكلّمين لا يتأدّبون بأدبه عليه السلام ! وكيف يطلقون عليه تعالى الوجوب والاستحقاق !

قلت : ليست وظيفة المتكلّمين وظيفةَ أمير المؤمنين عليه السلام فى عباراتهم ، هؤلاء أربابُ صناعة ، وعلم يحتاج إلى ألفاظ واصطلاح لابدّ لهم من استعماله ، للإفهام والجدل بينهم ، وأميرُ المؤمنين إمام يخطب على منبره ، يخاطب عرباً ورعيّة ليسوا من أهل النظر ، ولا مخاطبتُه لهم لتعليم هذا العلم ، بل لاستنفارهم إلى حرْب عدوّه ، فوجب عليه بمقتضى الأدب أن يتوقّى كلّ لفظة توهم ما يستهجنه السامع فى الأمور الإلٰهية وفى غيرها .

فإن قلت : فما هذه الأمور التى زعمتَ أنها تُستحقّ على البارئ سبحانه ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام حذفها من اللفظ ، واللفظ يقتضيها ؟

قلت : الثواب ، والعوض ، وقبول التوْبة ، واللّطف ، والوفاء بالوعد ، والوعيد ، وغير ذلك مما يذكره أهلُ العدل .

فإن قلت : فما معنى قوله : « لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه ، لقدرته على عباده ، ولعدله فى كلّ ماجرتْ عليه صروفُ قضائه » ؟ وهب أنّ تعليل عدم استحقاق شىء على الله تعالى بقدرته على عباده صحيح ، كيف يصحّ تعليلُ ذلك بعدله فى كلّ ماجرت عليه صروف قضائه ؟ ألا ترى أنّه ليس بمستقيم أن تقول لايُستحقّ على البارئ شىء ، لأنه عادل ، وإنّما المستقيم أن تقول لا يُستحقّ عليه شىء ، لأنّه مالك ، ولذلك علّلت الأشعريّة هذا الحكم بأنّه مالك الكلّ ، والاستحقاق إنّما يكون على مَنْ دونه .

قلت : التعليل صحيح ، وهو أيضا مما علّلت به الأشعريّة مذهبها ، وذلك لأنه إنما يتصوّر الاستحقاق على الفاعل المختار إذا كان ممّن يتوقّع منه أو يصحّ منه أن يظلم ، فيمكن حينئذ أن يقال : قد وجب عليه كذا ، واستُحقّ عليه كذا ، فأمّا من لايمكن أن يظلم ، ولا يتصوّر وقوع الظلم منه ، ولا الكذب ، ولا خلف الوعد والوعيد ، فلا معنى لإطلاق الوجوب والاستحقاق عليه ، كما لايقال : كذا الداعى الخالص يستحقّ عليه أن يفعل مادعاه إليه الداعى ، ويجب عليه أن يفعل مادعاه إليه الداعى ، مثل الهارب من الأسد ، والشديد العطش إذا وجد الماء ، ونحو ذلك .

فإن قلت : أليس يُشعر قوله عليه السلام : « وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضّلا منه » بمذهب البغداديين من أصحابكم ، وهو قولهم : إن الثواب تفضّل من الله سبحانه ، وليس بواجب !

قلت : لا ، وذلك لأنّه جعل المتفضَّل به ، هو مضاعفة الثواب ، لا أصل الثواب ، وليس ذلك بمستنكر عندنا .

فإن قلت : أيجوز عندكم أن يستحقّ المكلّف عشرة أجزاء من الثّواب فيعطى عشرين جزءا منه ؟ أليس من مذهبكم أنّ التعظيم والتبجيل لايجوز من البارئ سبحانه أن يفعلهما

فى الجنّة إلا على قدر الاستحقاق ، والثواب عندكم هو النفع المقارن للتعظيم والتبجيل ؟ فكيف قلت : إن مضاعفة الثواب عندنا جائزة !

قلت : مراده عليه السلام بمضاعفة الثواب هنا زيادة غير مستحقّة من النعيم واللذة الجسمانية خاصة فى الجنّة،فسمّى تلك اللذة الجسمانية ثواباً لأنّها جزء من الثواب،فأمّا اللذة العقلية فلا يجوز مضاعفتها.

قوله عليه السلام : « بما هو من للمزيد أهله » ، أى بما هو أهله من المزيد ، فقدّم الجار والمجرور وموضعه نصب على الحال ، وفيه دلالة على أنّ حال المجرور تتقدّم عليه ، كما قال الشاعر :

لَئِنْ كَانَ بَرْدُ المَاءِ حَرَّانَ صادِياً ... إلىّ حبيباً إنّهـــا لحبيبُ

***

الأصْلُ :

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحانَهُ مِن حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَها لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ، فَجَعَلَها تَتَكافَأُ فِي وُجُوهِها ، وَيُوجِبُ بَعْضُها بَعْضاً ، وَلَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُها إلَّا بِبَعْضٍ .
وَأَعْظَمُ مَاافْتَرَضَ سُبْحانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ ، وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي ، فَرِيضَةٌ فَرَضَها اللهُ سُبْحانَهُ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ ، فَجَعَلَها نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ ، وَعِزّاً لِدِينِهِمْ ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إلَّا بِصَلَاحِ الْوُلَاةِ ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ إلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ ، فَإِذا أَدَّتِ الرَّعِيَّةُ إلَى الْوَالِي حَقَّهُ ، وَأَدَّى الْوَالِي إلَيْها حَقَّها ، عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ ، وَقَامَتْ مَناهِجُ الدِّينِ ، وَاعْتَدَلَتْ مَعالِمُ الْعَدْلِ ، وَجَرَتْ عَلَى أذْلَالِها السُّنَنُ ، فَصَلَحَ بِذلِكَ الزَّمانُ ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ .

وَإِذَا غَلَبَتِ ٱلرَّعِيَّـةُ وَالِيَهَا ، أَوْ أَجْحَفَ ٱلْوَالِي بِرَعِيَّتِـهِ ؛ ٱخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ ٱلْـكَلِمَةُ ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ ٱلْجَوْرِ ، وَكَثُرَ ٱلْإِدْغَالُ فِي ٱلدِّينِ ، وَتُرِكَتْ مَحَاجُّ ٱلسُّنَنِ ، فَعُمِلَ بِالْهَوَى ، وَعُطِّلَتِ ٱلْأَحْـكَامُ ، وَكَثُرَتْ عِلَلُ ٱلنُّفُوسِ ، فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقٍّ عُطِّلَ ، وَلَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ ، فَهُنَالِكَ تَذِلُّ ٱلْأَبْرَارُ ، وَتَعِزُّ ٱلْأَشْرَارُ ، وَتَعْظُمُ تَبِعَاتُ ٱللهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ ٱلْعِبَادِ .

فَعَلَيْـكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ،وَحُسْنِ ٱلتَّعَاوُنِ عَلَيْهِ،فَلَيْسَ أَحَدٌ وَإِنِ ٱشْتَدَّ عَلَى رِضَا ٱللهِ حِرْصُهُ ، وَطَالَ فِي ٱلْعَمَلِ ٱجْتِهَادُهُ ، بِبَالِـغٍ حَقِيقَةَ مَا ٱللهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ؛مِنَ ٱلطَّاعَةِ لَهُ.وَلَـكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ ٱلنَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ، وَٱلتَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ ٱلْحَقِّ بَيْنَهُمْ ، وَلَيْسَ ٱمْرُؤٌ وَإِنْ عَظُمَتْ فِي ٱلْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ ، وَتَقَدَّمَتْ فِي ٱلدِّينِ فَضِيلَتُهُ ، بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَّلَهُ ٱللهُ مِنْ حَقِّهِ ؛ وَلَا ٱمْرُؤٌ وَإِنْ صَغَّرَتْهُ ٱلنُّفُوسُ ، وَٱقْتَحَمَتْهُ ٱلْعُيُونُ ، بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ ، أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ .

***

الشَّـرْحُ :

تتكافأ فى وجوهها : تتساوى وهى حقّ الوالى على الرعيّة،وحق الرعيّة على الوالى.

وفريضة ، قد روى بالنصب وبالرفع،فمن رفع فخبر مبتدأ محذوف،ومن نصب فبإضمار فعل ، أو على الحال .

وجرت على أذلالها السّنن ، بفتح الهمزة ، أى على مجاريها وطرقها .

وأجحف الوالى برعيّته : ظلمهم .

والإدغال فى الدين : الفساد .

ومحاجّ السنن: جمع محجّة، وهى جادّة الطريق .

قوله : « وكثرت عِلَل النفوس » ، أى تعلّها بالباطل . ومن كلام الحجّاج : إيّاكم وعلل النفوس، فإنّها أدْوَى لكم من علل الأجساد .

واقتحمته العُيون : احتقرته وازدرته ، قال ابن دُريد :

وَمِنْـــهُ مَاتَقْتَحِمُ ٱلْعَيْنُ فإنْ ذُقْتَ جَنَاهُ سَاغَ عَذْباً فى اللها[1]

ومثل قوله عليه السلام : « وليس امرؤ وإن عظمت فى الحقّ منزلته » ، قول زيد ابن علىّ عليه السلام لهشام بن عبد الملك : إنه ليس أحدٌ وإنْ عظمت منزلته بفوقِ أن يُذَكَّر بالله ، ويحذّر من سطوته ، وليس أحدٌ وإن صغُر بدونِ أن يذكّر بالله ويخوّف من نقمته .

ومثل قوله عليه السلام : « وإذا غلبت الرعيّة واليها » قولُ الحكماء : إذا علا صوت بعض الرعيّة على الملك فالملك مخلوع ، فإن قال : نعم ، فقال أحدٌ من الرعيّة : لا ، فالملك مقتول .

* * *

[فصل فيما ورد من الآثار فيما يصلح الملك]

وقد جاء فى وجوب الطاعة لأولى الأمر الكثير الواسع، قال الله سبحانه : ﴿أَطِيعُوا ٱللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[2].

وروى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله : « السمع والطاعة على المرء

---

(١) من المقصورة ٢٣ (طبعة مصر سنة ١٣١٩) .

(٢) سورة النساء ٥٩ .

المسلم فيما أحبّ وكره مالم يؤمَر بمعصية ، فإذا أُمِر بها فلا سمعَ ولا طاعة » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « إن أُمِّرعليكم عبدٌ أسودَ مجدّع فاسمعوا له وأطيعوا».

ومن كلام على عليه السلام : « إنّ الله جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند تفريط الفجَرة » .

بعث سعد بن أبي وقاص جَرير بنَ عبد الله البَجَليّ من العراق إلى عمر بن الخطاب بالمدينة ، فقال له عمر : كيف تركت الناس ؟ قال : تركتهم كقِداح الجُعْبة ، منها الأعصل[1] الطائش ، ومنها القائم الرائش . قال : فكيف سَعْدٌ لهم ؟ قال : هو ثِقافها ، الذى يقيم أوَدَها ، ويغمز عَصَلها[2] . قال: فكيف طاعتهم؟ قال : يصلّون الصلاة لأوقاتها ، ويؤدون الطاعة إلى ولاتها . قال : الله أكبر ! إذا أقيمت الصلاة ، أدّيت الزكاة؛ وإذا كانت الطاعة، كانت الجماعة .

ومن كلام أبَرْويز الملك : أطعْ مَنْ فوقك يُطعك مَنْ دونك .

ومن كلام الحكماء : قلوب الرعيّة خزائن واليها ، فما أودعه فيها وجَده .

وكان يقال : صِنفان متباغضان متنافيان : السلطان والرعيّة ؛ وهما مع ذلك متلازمان، إن صَلَح أحدهما صلح الآخر ، وإن فسد فسد الآخر .

وكان يقال : محلّ الملك من رعيته محلّ الروح من الجسد ، ومحلّ الرعيّة منه محلّ الجسد من الرّوح ، فالروح تألّم بألم كلّ عضو من أعضاء البدن ، وليس كلّ واحد من الأعضاء يألم بألم غيره ، وفساد الروح فساد جميع البدن ، وقد يفسد بعضُ البدن وغيره من سائر البدن صحيح .

---

(١) السهم الأعصل : القليل الريش .

(٢) العصل : الاعوجاج والميل .

وكان يقال : ظلم الرعية استجلاب البليّة .

وكان يقال : العَجَب ممّن استفسد رعيته ، وهو يعلم أن عزّه بطاعتهم !

وكان يقال : موت الملك الجائر خِصْب شامل .

وكان يقال : لا قحطَ أشدّ من جوْر السلطان .

وكان يقال : قد تعامَل الرعيـة المشمئزّة بالرفق ؛ فتزول أحقادها ، ويذلّ قيـادها ، وقد تعامَل بالخُرْق فتكاشف بما غيبت ، وتقدم على ماعيبت ؛ حتى يعود نفاقها شِقاقا ، ورذاذها سيلا بُعاقا[1] . ثم إن غَلَبت وقهرت فهو الدّمار ، وإن غُلِبت وقُهرت لم يكن بغلَبها افتخار ، ولم يدرَك بقهرها ثار .

وكان يقال : الرعية وإن كانت ثمـارا مجتناة ؛ وذخائر مقتناة ، وسيوفا منتضاة ، وأحراسا مرتضاة ؛ فإن لها نِفارا كنفار الوحوش ، وطغيانا كطغيان السيول ؛ ومتى قَدَرَتْ أن تقول ، قَدَرَتْ على أن تصول .

وكان يقال : أيدى الرعيّة تبع ألسنتها ؛ فلن يملك الملك ألسنتها حتى يملك جسومها ولن يملك جسومها حتى يملك قلوبها فتحبه ، ولن تحبه حتى يعدل عليها فى أحكامه عدلًا يتساوى فيه الخاصة والعامة ؛ وحتى يخفّف عنها المؤن والكلف ، وحتى يعفيها من رفع أوضاعها وأراذلها عليها ؛ وهذه الثالثة تحقد على الملك العِليْة من الرعية ، وتطمع السفلة فى الرتب السنية .

وكان يقال : الرعية ثلاثة أصناف : صِنْف فضلاء مرتاضون بحكم الرياسة والسياسة ، يعلمون فضيلة المِلك وعظيم غَنائه ، ويرثُون له من ثقل أعبائه ، فهؤلاء يحصّل الملك مودّاتهم بالبِشْر عند اللقاء ، ويلقى أحاديثهم بحسن الإصغاء . وصِنف فيهم خير وشرّ ظاهران ، فصلاحهم يكتسَب من معاملتهم بالترغيب والترهيب ؛ وصِنف من السفلة الرّعاع أتباع

---

(١) السيل البعاق . المتصبت بشدة .

لكلّ داعٍ ؛ لا يمتحنون فى أقوالهم وأعمالهم بنقد ، ولا يرجعون فى الموالاة إلى عقد .

وكان يقال : ترك المعاقبة للسفلة على صغار الجرائم تدعوهم إلى ارتكاب الكبائر العظائم ؛ ألا ترى أول نشوز المرأة كلمة سومحت بها ، وأوّل حِران الدابّة حَيدة سومحت عليها .

ويقال : إنّ عثمان قال يوما لجلسائه ، وهو محصور فى الفتنة : وددت أنّ رجلا صدوقا أخبرنى عن نفسى وعن هؤلاء ! فقام إليه فتًى فقال : إنّى أخبرك ؛ تطأطأتَ لهم فركبوك ، وما جرّأهم على ظلمك إلا إفراط حلمك . قال : صدقت ، فهل تعلم ما يُشِبّ نيران الفتن ! قال: نعم ، سألتُ عن ذلك شيخا من تَنُوخ كان باقعة ، قد نقّب فى الأرض وعلم علما جمًّا ، فقال : الفتنة يثيرها أمران : أثَرَة تُضْغِنُ على الملك الخاصّة ، وحلم يجرِّئُ عليه العامّة . قال : فهل سألته عمّا يُخمِدها ؟ قال : نعم ، زعم أنّ الذى يخمدها فى ابتدائها استقالة العَثْرة وتعميم الخاصة بالأثَرة ، فإذا استحكمت الفتنة أخمدها الصبر . قال عثمان : صدقت ؛ وإنّى لصابر حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . ويقال : إن يَزْدَجرد بن بهرام سأل حكيما : ماصلاح الملك ؟ قال : الرفق بالرعيّة ، وأخذ الحقّ منها بغير عنف والتودّد إليها بالعدل وأمن السبُل وإنصاف المظلوم . قال : فما صلاح الملك ؟ قال : وزراؤه ؛ إذا صَلَحوا صَلَح . قال : فما الذى يثير الفتن ؟ قال : ضغائن يظهرها جرأة عامّة، واستخفاف خاصة بها وانبساط الألسن بضمائر القلوب، وإشفاق موسر ، وأمن مُعْسِر ،وغفلة مرزوق ، ويقظة محروم . قال : وما يسكِّنها ؟ قال: أخذ العدّة لما يخاف ، وإيثار الجد حين يلتذ الهزل ، والعمل بالحزم ، وادراع الصبر ، والرضا بالقضاء .

وكان يقال: خير الملوك مَنْ أشرَبَ قلوب رعيته محبّتَه، كما أشعرها هيبتَه ، ولن ينال ذلك منها حتى تظفر منه بخمسة أشياء : إكرام شريفها ، ورحمة ضعيفها ، وإغاثة لهيفها ،

وكفّ عدوان عـدوّها ، وتأمين سبُل رواحها وغدُوّها ، فمتى أعدمها شيئاً من ذلك ، فقد أحقَدها[1] بقدر ما أفقدها .

وكان يقال : الأسباب التى تجرّ الملك إلى الهلك ثلاثة :

أحدها من جهة الملِك ،وهو أن تتأمّر شهواتُه على عقله، فتَستهويه نَشَوات الشّهوات فلا تسنَح له لذّة إلا اقتنصها ، ولا راحة إلا افترصها .

والثانى من جهة الوزراء ، وهو تحاسدهم المقتضى تعارض الآراء ،فلا يسبق أحدُهم إلى حقّ إلّا كُويد وعُورض وعُونِد .

والثالث من جهة الجند المؤهّلين لحراسة الملك والدّين، وتوهين المعاندين،وهو نُكولهم عن الجلاد ،وتضجيعهم فى المناصحة والجهاد ،وهم صنفان : صنف وسّع الملك عليهم فأبطرهم الإتراف ،وضنّوا بنفوسهم عن التعريض للإتلاف ،وصنف قَدر عليهم الأرزاق، فاضطغنوا الأحقاد[2] واستشعروا النفاق .

***

[الآثار الواردة فى العدل والإنصاف]

قوله عليه السلام : « أو أجحف الوالى برعيّته » ،قد جاء من نظائره الكثير جداً، وقد ذكرنا فيما تقدّم نكتاً حسنة فى مدح العدل والإنصاف، وذمّ الظلم والإجحاف. وقال النبىّ صلى الله عليه وآله : « زيّن الله السماء بثلاثة : الشمس ، والقمر ، والكواكب . وزيّن الأرض بثلاثة : العلماء ، والمطر ، والسّلطان العادل » .

وكان يقال : إذا لم يعمّر الملك ملكه بإنصاف الرعيّة خرب ملكه بعصيان الرعيّة .

وقيل لأنوشروان :أىّ الجُنن أوقى؟ قال: الدّين، قيل:فأىّ العُدَد أقوى؟قال:العدل.

---

(١) يقال : أحقده ، أى صيره حاقداً . (٢) اضطغنوا الأحقاد : انطووا عليها .

وقّع جعفر بن يحيى إلى عامل من عمّاله : كثُر شاكوك، وقلّ حامدوك، فإمّا عدلت، وإمّا اعتزلت .

وُجد فى خزانة بعض الأكاسرة سَفَط ، ففُتح فوجد فيه حبّ الرمان ، كلّ حبّة كالنواة الكبيرة من نوى المشمش ، وفى السَّفَط رُقعة فيها : هذا حبّ رمان عملنا فى خراجه بالعدل .

جاء رجل من مصر إلى عمر بن الخطّاب متظلّما ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، هذا مكان العائذ بك . قال له : عذتَ بمعاذ ، ماشأنك ؟ قال : سابقتُ ولد عمرو بن العاص بمصرَ فسبقتُه ، فجعل يقنّعنى بسوطه ، ويقول : أنا ابن الأكرمين ! وبلغ أباه ذلك ، فحبسنى خشية أن أقدُم عليك؛ فكتب إلى عمرو: إذا أتاك كتابى هذا فاشهد الموسم أنت وابنُك. فلمّا قدم عمرو وابنه ، دفع الدِّرة إلى المصرىّ ، وقال : اضربه كما ضرَبك ، فجعل يضربه وعمر يقول : اضرب ابن الأمير ، اضرب ابن الأمير ! يردّدها ، حتى قال : ياأميرَ المؤمنين قد استقدتُ منه ، فقال ــ وأشار إلى عمرو : ضعْها على صَلْعته ، فقال المصرىّ : ياأمير المؤمنين ، إنما أضرب مَنْ ضربنى ، فقال : إنما ضربك بقوّة أبيه وسلطانه ، فاضرب به إن شئت؛ فوالله لو فعلتَ لما منعك أحدٌ منه ، حتى تكون أنت الذى تتبرع بالكفّ عنه ! ثم قال : يابن العاص ، متى تعبّدتم الناسَ وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا !

خطب الإسكندر جنده ، فقال لهم بالرومية كلاماً تفسيره : ياعبادَ الله ، إنما إلهكم الله الذى فى السماء ، الذى نصرنا بعد حين ، الذى يسقيكم الغيث عند الحاجة ، وإليه مفزعكم عند الكرب . والله لايبلغنى أنّ الله أحبّ شيئاً إلا أحببتُه وعملت به إلى يوم أجلى ، ولا يبلغنى أنّه أبغض شيئاً إلّا أبغضتُه وهجرته إلى يوم أجلى . وقد أنبئت أنّ الله يحبّ العدل فى عباده ، ويُبغض الجور ، فويل للظالم من سوطى وسيفى ! ومَنْ ظهر منه

العدل من عمّالي فليتكىء في مجلسي كيف شاء ؛ وليتمنّ عليّ ما شاء ، فلن تخطئه أمنيته والله المجازي كلاً بعمله .

قال رجلٌ لسليمان بن عبد الملك وهو جالس المظالم : يا أميرَ المؤمنين، ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[1] ! قال : ما خطبك ؟ قال : وكيلك اغتصبني ضيعتي وضمّها إلى ضيعتك الفلانية . قال : فإنّ ضيعتي لك ، وضيعتك مردودة إليك . ثم كتب إلى الوكيل بذلك ، وبصرْفه عن عمله .

ورفِعَ إلى كسرى قُباذ أنّ في بطانة الملك قوماً قد فسدت نياتهم ، وخَبُثت ضمائرهم ، لأنّ أحكام الملك جَرَت على بعضهم لبعضهم ، فوقّع في الجواب : أنا أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالهوى ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر .

وتظلّم أهل الكوفة إلى المأمون مِنْ واليهم ، فقال : ما علمت في عمالي أعدلَ ولا أقومَ بأمر الرعية ، ولا أعودَ عليهم بالرفق منه . فقال له منهم واحد : فلا أحد أولَى منك يا أمير المؤمنين بالعدلِ والإنصاف ، وإذا كان بهذه الصفة فمن عدل أمير المؤمنين أن يوليَه بلداً بلداً ، حتى يلحق أهلَ كلّ بلدٍ من عدله ، مثل ما لحقنا منه ، ويأخذوا بقسطهم منه كما أخذنا منه سواهم ، وإذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب الكوفة منه أكثرُ من ثلاث سنين . فضحك وعزله .

كتب عديّ بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز : أما بعد ، فإن قِبَلنا قوماً لا يؤدّون الخراج إلا أن يمسّهم نَصَبٌ من العذاب ، فاكتب إلى أمير المؤمنين برأيك . فكتب : أما بعد، فالعجبُ لك كلّ العجب ! تكتب إليّ تستأذنني في عذاب البشر ، كأن إذني لك جُنّة من عذاب الله ، أو كأنّ رضاي ينجيك من سَخَط الله ! فمَنْ أعطاك ما عليه عفوا

---

(١) سورة الأعراف ٤٤ .

تخذ منه ، ومن أبى فاستحلفه ، وكِلْه إلى الله ، فلأن يلقوا الله بجرائمهم أحبُّ إلى من أن ألقاه بعذابهم .

فُضَيل بن عياض : ما ينبغى أن تتكلمّ بفيك كله ! أتدرى مَنْ كان يتكلم بفيه كلّه ! عمر بن الخطاب كان يعدل فى رعيّته ، ويجور على نفسه ، ويطعمهم الطيب ،ويأكل الغليظ ، ويكسوهم اللين ويلبس الخشن ، ويعطيهم الحق ويزيدهم ، ويمنع ولده وأهله ، أعطى رجلا عطاءه أربعة آلاف درهم ، ثم زاده ألفا ، فقيل له : ألا تزيد ابنك عبد الله كما تزيد هذا ؟ فقال : إن هذا ثبَت أبوه يوم أُحُد ، وإنّ عبد الله فرّ أبوه ولم يثبت .

وكان يقال : لا يكونُ العُمْران ، إلّا حيث يعدل السلطان .

وكان يقال: العدل حصن وثيق ، فى رأس نيق[1] ، لا يحطّمه سيلٌ ، ولا يهدمه منجنيق .

وقّع المأمون إلى عامل كثر التظلّم منه : أنصفْ مَنْ وليت أمرهم ، وإلّا أنصفَهم منك مَنْ ولِىَ أمرك .

بعض السلف : العدل ميزان الله ، والجور مكيال الشيطان .

---

(١) النيق : أرفع موضع فى الجبل .

(٢١٠)

الأصل:

فأجابه عليه السلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه الثناء عليه، ويذكر سمعه وطاعته له، فقال عليه السلام:

إِنَّ مِنْ حَقِّ من عظُمَ جَلَالُ اللهِ سُبْحانَهُ فِي نَفْسِهِ، وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ، أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ ـ لِعِظَمِ ذَلِكَ ـ كلُّ ماسِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعمَةُ اللهِ عَلَيْهِ، وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَى أَحَدٍ، إِلَّا ازْدَادَ حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ عِظَماً.

وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ، أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ، وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبْرِ. وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْإِطْرَاءَ، وَاسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ؛ وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللهِ كَذَلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطاً لِلّهِ سُبْحانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَاهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ.

وَرُبَّما اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَإِلَيْكُمْ مِنَ الْبَقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَابُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِيَ اسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي، وَلَا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ، أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ.

فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ ، أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ ، وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي ، إِلَّا أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَاهُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي ، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لَا رَبَّ غَيْرُهُ ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَالَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَخْرَجَنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَاصَلَحَنَا عَلَيْهِ ، فَأَبْدَلَنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى ، وَأَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى .

***

الشرح :

هذا الفصل وإن لم يكن فيه ألفاظ غريبة سبيلُها أن تشرح ، ففيه معانٍ مختلفة سبيلها أن تذكر وتوضَّح ، وتذكر نظائرها وما يناسبها .

فمنها قوله عليه السلام : إنّ من حقّ مَنْ عَظُمت نعمة الله عليه أن تعظُم عليه حقوق الله تعالى ، وأنْ يعظم جلال الله تعالى فى نفسه ، ومن حقّ مَنْ كان كذلك ، أن يصغُر عنده كلُّ ماسوى الله .

وهذا مقام جليل من مقامات العارفين ، وهو استحقار كلّ ماسوى الله تعالى، وذلك أنّ مَنْ عرف الله تعالى فقد عرف ماهو أعظمُ من كلّ عظيم، بل لا نسبة لشىء من الأشياء أصلاً إليه سبحانه . فلا يظهر عند العارف عظمةُ غيره البتّة ، كما أنّ مَنْ شاهد الشّمس المنيرة يستحقر ضوء القمر والسراج الموضوع فى ضوء الشمس، حال مشاهدته جرْم الشمس، بل لا تظهر له فى تلك الحال صنوبرة السراج ، ولا تنطبع صورتُها فى بصره .

***

ومنها قوله عليه السلام : مِنْ أسخَف حالات الولاة أن يظنّ بهم حبّ الفخر ويُوضع

أسرع على الكِبْر . قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « لايدخل الجنّة مَنْ كان فى قلبه مثقال حبّة من كِبْر » .

وقال صلّى الله عليه وآله : « لولا ثلاث مهلِكات لصَلح الناس: شحّ مطاع، وهوًى متبَع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وكان يقال : ليس لمعجَبٍ رأى ، ولا لمتكبّر صديق .

وكان أبو مسلم صاحب الدولة يقول : ماتاه إلّا وضيع ،ولا فاخر إلّا لقيط ، ولا تعصّب إلّا دخيل .

وقال عمر لبعض ولده : التمس الرفعة بالتّواضع ، والشّرف بالدين ، والعفو من الله بالعفو عن الناس . وإيّاك والخُيَلاء فتضعَ من نفسك ، ولا تحقِرنّ أحداً ، لأنك لاتدرى لعلّ مَنْ تزدَرِيه عيناك أقربُ إلى الله وسيلةً منك .

***

ومنها قوله عليه السلام : قد كرهتُ أن تظنوا بى حبّ الإطراء واستماع الثناء . قد روى عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنه قال : « احثُوا فى وجوه المدّاحين التراب » . وقال عمر : المدح هو الذبح .

وكان يقال : إذا سمعتَ الرّجُل يقول فيك من الخير ماليس فيك ،فلاتأمن أن يقول فيك من الشرّ ماليس فيك .

ويقال : إنّ فى بعض الكتب المنزّلة القديمة : عَجَباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ! ولمن قيل فيه الشرّ وليس فيه كيف يغضب ! وأعجب من ذلك مَنْ أحبّ نفسه على اليقين ، وأبغض النّاس على الظنّ .

وكان يقال : لايغلبنّ جهلُ غيرك بك علمَكَ بنفسك .

وقال رجل لعبد الملك : إنى أريد أن أسِرّ إليك ياأمير المؤمنين شيئاً ، فقال لمنْ حولَه:

إذا شئتم فانهضوا ! فتقدّم الرجل يريد الكلام ، فقال له عبد الملك : قِفْ ، لا تمدحْنى فإنّى أعلمُ بنفسى منك ، ولا تكذبْنِى فإنّه لا رأى لمكذوب ، ولا تغتبْ عندى أحدا ، فإنّى أكره الغيبة ، قال : أفيأذن أمير المؤمنين فى الانصراف ؟ قال : إذا شئت .

وناظر المأمون محمد بن القاسم النوشجانىّ فى مسألةٍ كلاميّة ، فجعل النّوشجانىّ يخضع فى الكلام ، ويستخذِى له ، فقال : يا محمد ، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجّة لى عليك . وقد ساءنى منك ذلك ، ولو شئت أن أقتسر الأمور بعزّة الخلافة، وهيبة الرياسة لصدِّقت وإن كنت كاذبا ، وعدّلت وإن كنت جائرا ، وصوِّبت وإن كنت مخطئا ، ولكنّى لا أقنع إلاّ بإقامة الحجّة ، وإزالة الشّبهة ؛ وإن أنقص الملوك عقلا ، وأسخفهم رأيا مَنْ رضىَ بقولهم : صدق الأمير !

وقال عبد الله بن المقفّع فى " اليتيمة " : إياك إذا كنت واليا أن يكون من شأنك حبّ المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلمة من الثّلم يقتحمون عليك منها ، وبابا يفتتحونك منه ، وغيبة يغتابونك بها ، ويسخرون منك لها . واعلم أنّ قابل المدح كمادحٍ نفسه ، وأنّ المرء جديرٌ أن يكون حُبّه المدح هو الذى يحملُه على ردّه، فإنّ الرادّ له ممدوح ، والقابِل له مَعيب .

وقال معاوية لرجل : مَنْ سَيّد قومك ؟ قال : أنا ، قال : لو كنتَ كذلك لم تقله .

وقال الحسن : ذمُّ الرّجل نفسَه فى العلانية مدحٌ لها فى السرّ

كان يقال : مَنْ أظهر عيب نفسه فقد زكّاها .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : لو كنت كذلك لتركته انحطاطاً لله تعالى عن تناول ما هو أحقّ به من الكبرياء . فى الحديث المرفوع : « مَنْ تواضع لله رفعه الله ، ومَنْ تكبر خفضه الله ».

وفيه أيضا : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيهما قصمتُه .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : « فلا تكلمونى بما تكلَّم به الجبابرة ، ولا تتحفّظوا منّى بما يتحفظ به عند أهل البادرة » .

أحسن ما سمعتُه فى سلطان لا تخافُ الرعية بادرته ، ولا يتلجلج المتحاكمون عنده ؛ مع سطوته وقوته ، لإيثاره العدل . قول أبى تمام فى محمد بن عبد الملك :

وزيرُ حَقٍّ ، ووالِى شُرْطَةٍ ورحاَ   ديوانِ مُلْكٍ ، وشيعىٌّ ، ومحتَسِبُ (١)

كالأرحبىّ المذكّى سَيْرُه المرَطَى   والوخدُ والمَلْعُ والتقريبُ والخَبَبُ (٢)

عَوْدٌ تساجلُه أيامه فبها   مِنْ مَسّه وبه مِنْ مَسِّها جُلَبُ (٣)

ثَبْتُ الخِطاب إذا اصْطَكّت بمظلمةٍ   فى رحلِهِ ألسُن الأقوام والرُّكَبُ (٤)

---

(١) ديوانه ١ : ٢٥٣ .

(٢) قال شارح ديوانه : كان بعض الناس يقول لأبى تمام : أنا أستحسن قول امرئ القيس :

وَتَعرِفُ فيهِ من أبيهِ شَمائِلًا   وَمِنْ خَالِهِ وَمِنْ يَزِيدَ وَمِن حُجُرْ

سَماحَةَ ذَا ، وجودَ ذَا ، ووفاءَ ذَا ،   ونائِلَ ذَا إذَا صَحَا وإذا سَكِرْ

فذكر أربعة وردّ عليها أربعة أصناف ؛ فلقيه أبو تمام بعد مدة ، فقال له : أنشدتنى بيتى امرئ القيس . وتستحسن ذكره لأربعة ورده عليهم أربعة أصناف ، وقد ذكرت خمسة ورددت عليهم خمسة أصناف ، وأنشده هذين البيتين . الأرحبى ، يعنى به نجيبا من الإبل منسوبا إلى أرحب ، وهم حى من همدان . والمذكى الذى قد تمت سنه وذكاؤه ، يقال : فرس مذكّ ووحش مذك . والمرطى : ضرب من العدو سهل ، وقلما يستعمل إلا فى الإبل ، فأما الوخد والملع فمجيئهما كثير فى وصف سير النوق والجمال ، ولا يكادون يقولون : وخد الفرس ، وقد حكى ذلك أبو نصر صاحب الأصمعى . والتقريب أيضاً لا يكاد يستعمل فى الجمال ، يقول : هذا الممدوح جمع إصلاح الملك كما يجمع هذا الأرحبىّ هذه الضروب من السير .

(٣) العود : المسن من الإبل ، والمراد به هنا الرجل المجرب ، على الاستعارة . والجلب : جمع جلبة ، وهو الأثر فى ظهر البعير وغيره من أثر حمل أو نحوه ، يقول : قد جرّب الأمور ، خيرها وشرّها ؛ يكون الدهر مرة معه ومرة عليه ، فكأنه يساجله .

(٤) اصطكت : اضطربت ، وقوله : « بمظلمة » ، أى بخصلة مظلمة .

لا المنطَق اللّغوُ يزْكو في مقَاوِمِهِ   يوماً ، ولا حجة الملهوف تُستَلَبُ [١]
كأنّما هُوَ في نادي قَبيلتِـــــهِ   لا القلبُ يهفو ولا الأحشاء تضطرِبُ [٢]

ومن هذا المعنى قول أبي الجهم العدَوِيّ ، في معاوية :

نُقلّبُهُ لِنَخبُرَ حالتيـــهِ   فنخبر منهما كَرَماً ولِينا
نميـلُ على جوانِبـهِ كأنّا   إذا ملنا نميـلُ على أبينا

* * *

ومنها قوله عليـه السلام : لا تظنوا بي استثقالَ رفع الحقّ إليّ ، فإنه مَن استثقل الحق أن يقال له ، كان العملُ به عليه أثقلَ .

هذا معنى لطيف ، ولم أسمع فيه شيئاً منثورا ولا منظوماً .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : ولا تـكفّوا عن قول بحقّ أو مشورة بعدل .

قد ورد في المشورة شيء كثير : قال الله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [٣] .

وكان يقال : إذا استشرت إنسانا صار عقله لك .

وقال أعرابيّ : ماغُبِنت قطّ حتى يُغْبَن قومي ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم .

وكان يقـال : من أُعطى الاستشارة لم يمنع الصواب ، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيَرة ، ومنْ أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطى الشـكر لم يمنَع المزيد .

وفي آداب ابن المقفع : لا يقـذَفنّ في رُوعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر منك للناس حاجتك إلى رأى غيرك فيقطعك ذلك عن المشاورة ، فإنّك لا تريد الرأى للفخر ؛

---

(١) المنطق اللغو : الهذر وما لا يحتاج إليه من الـكلام . ويزكو : يروج وينمو ، مقاوم : جمع مقام .
(٢) لا القلب يهفو ؛ أي لا يزيغ عما يريد .
(٣) سورة آل عمران ١٥٩

ولكن للانتفاع به ؛ ولو أنك أردته للذكر لكان أحسنَ الذكر عند العقلاء أن يقال : إنه لا ينفرد برأيه دون ذوِي الرأي من إخوانه .

* * *

ومنها أن يقال : مامعنى قوله : عليه السلام : « وربّما استحلَى النّاسُ الثّناء بعد البلاء ...» إلى قوله : « لابدّ من إمْضائها » ؟ فنقول : إنّ معناه أنّ بعض مَنْ يكره الإطراء والثناء ، قد يحبّ ذلك بعد البلاء والاختبار ، كما قال مرْداس بن أديّة لزياد : إنّما الثناء بعد البلاء ، وإنما نثني بعد أن نبتلي ؛ فقال : لو فرضنا أنّ ذلك سائغ وجائز وغير قبيح ، لم يجزْ لكم أن تثنوا عليّ في وجهي ، ولا جاز لي أن أسمَعه منكم ؛ لأنه قد بقيتْ عليّ بقيّة لم أفرُغ من أدائها ، وفرائض لم أُمضِها بعد ، ولا بدّ لي من إمضائها ؛ وإذا لم يتمّ البلاء الذى قد فرضنا أن الثناء يحسن بعده ، لم يحسن الثناء .

* * *

ومعنى قوله : « لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم » أي لاعترافي بين يدي الله وبمحضر منكم أنّ عليّ حقوقا في إيالتكم ، ورياستي عليكم ، لم أقم بها بعد ، وأرجو من الله القيام بها .

* * *

ومنها أن يقال : مامعنى قوله : « فلا تخالطوني بالمصانعة » ؟ فنقول : إنّ معناه لا تصانعوني بالمدح والإطراء عن عمل الحق ، كما يصانَع به كثير من الولاة الذين يستفزّهم المدح ويستخفّهم الإطراء والثناء ، فيغمضون عن اعتماد كثير من الحقّ مكافأةً لما صونعوا به من التقريظ والتزكية والنفاق .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : « فإنّي لست بفوقِ أنْ أخطئ » ؛ هذا اعتراف منه عليه السلام بعدم العصمة ، فإمّا أن يكون الكلام على ظاهره ، أو يكون قاله على سبيل هضم

النفس ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ولا أنا إلا أن يتداركني الله برحمته ».

* * *

ومنها قوله عليه السلام : « أخرجنا مما كنا فيه ، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى » . ليس هذا إشارة إلى خاص نفسه عليه السلام ، لأنه لم يكن كافرا فأسلم ، ولكنه كلام يقوله ويشير به إلى القوم الذين يخاطبهم من أفناء الناس ، فيأتى بصيغة الجمع الداخلة فيها نفسه توسعا ، ويجوز أن يكون معناه : لولا ألطاف الله تعالى ببعثه محمد صلى الله عليه وآله لكنت أنا وغيرى على أصل مذهب الأسلاف من عبادة الأصنام ، كما قال تعالى لنبيه : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ [1] ليس معناه أنه كان كافرا ، بل معناه : لولا اصطفاء الله تعالى لك لكنت كواحد من قومك . ومعنى « ووجدك ضالا » ، أى ووجدك بعرضة [2] للضلال ، فكأنه ضال بالقوة لا بالفعل .

---

(١) سورة الضحى ٧ .

(٢) كذا فى ب ، وفى ا : « بمرضية الضلال » .

(٢١١)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

اَللّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَأَكْفَئُوا إِنَائِي ، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقّاً كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي ، وَقَالُوا : أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُمْنَعَهُ ، فَاصْبِرْ مَغْمُوماً ، أَوْ مُتْ مُتَأَسِّفاً .

فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ ، وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ ، إِلَّا أَهْلَ بَيْتِي؛ فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ ، فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى، وَجَرِعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمَرَّ مِنَ الْعَلْقَمِ ، وَآلَمَ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَارِ .

***

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ اللّهُ : وَقَدْ مَضَى هذا الْكَلامُ في أثناء خُطْبَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ ، إلّا أَنِّي ذَكَرْتُهُ هاهنا لاختلاف الرِّوَايَتَيْن .

***

الشرح :

العدوى : طلبك إلى والٍ ليُعديك على مَنْ ظلمك ، أى ينتقم لك منه ، يقال : استعديتُ الأميرَ على فلان فأعدانى ، أى استعنت به عليه فأعانني .

وقطعوا رحمى : وقطعوا قرابتى ، أى أجرونى مجرى الأجانب ويجوز أن يُريد أنّهم عدّونى كالأجنبيّ من رسول الله صلى الله عليه وآله . ويجوز أن يريد أنّهم جعلونى كالأجنبيّ

منهم ؛ لا ينصرونه ، ولا يقومون بأمره .

وأكفئوا إنائى : قلبوه وكبّوه ، وحذف الهمزة من أوّل الكلمة أفصح وأكثر ، وقد روى كذلك ، ويقال لمن قد أضيعت حقوقه : قد أكفأ إناءه ؛ تشبيها بإضاعة اللبن من الإناء

وقد اختلفت الرواية فى قوله : « ألا إنّ فى الحقّ أن تأخذه » ، فرواها قوم بالنون ، وقوم بالتاء . وقال الراوندى : إنها فى خطّ الرضىّ بالتاء . ومعنى ذلك أنك إن وليت أنت كانت ولايتُك حقًّا ، وإن وُلّى غيرُك كانت ولايته حقا ، على مذهب أهل الاجتهاد. ومن رواها بالنون ، فالمعنى ظاهر .

والرافد : المعين . والذابّ : الناصر .

وضننت بهم : بخلت بهم . وأغضيت على كذا : صَبَرت .

وجرِعت بالكسر . والشّجا : مايعترض فى الحلق .

والوخز : الطعن الخفيف ، وروى « من حزّ الشفار » والحزّ : القطع .

والشِّفار : جمع شفرة ، وهى حدّ السيف والسكّين .

***

واعلم أن هذا الكلام قد نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام مايناسبه ، ويجرى مجراه ، ولم يؤرّخ الوقت الذى قاله فيه ، ولا الحال التى عَناها به ، وأصحابنا يحملون ذلك على أنه عليه السلام قاله عَقِيب الشّورى وبيعة عثمان ، فإنه ليس يرتاب أحدٌ من أصحابنا عَلَى أنه تظلّم وتألّم حينئذ .

ويكره أكثر أصحابنا حملَ أمثال هذا الكلام على التألّم من يوم السقيفة .

ولقائل أن يقول لهم : أتقولون إنّ بيعة عثمان لم تكن صحيحة؟ فيقولون : لا ، فيقال

لهم : فعلى ماذا تحملون كلامه عليه السلام ، مع تعظيمكم له وتصديقكم لأقواله ؟ فيقولون: نحمل ذلك على تألّمه وتظلّمه منهم إذا تركوا الأولى والأفضل . فيقال لهم : فلاتنكروا قول مَنْ يقولُ من الشيعة وغيرهم : إنّ هذا الكلام وأمثاله صدر عنه عقيب السقيفة، وحملوه على أنه تألم وتظلّم من كونهم تركوا الأولى والأفضل ،فإنكم لستم تنكرون أنه كان الأفضلَ والأحقَّ بالأمر ، بل تعترفون بذلك ، وتقولون : ساغت إمامة غيره ،وصحّت لمانع كان فيه عليه السلام ، وهو ماغلب على ظنون العاقدين للأمر من أنّ العرب لا تطيعه ، فإنه يخاف من فتنة عظيمة تحدث إن ولِيَ الخلافة لأسباب يذكرونها ، ويعدّونها ، وقد روى كثير من المحدّثين أنّه عقيب يوم السّقيفة تألّم وتظلّم ، واستنجد واستصرخ ،حيث ساموه الحضور والبيعة ،وأنّه قال وهو يشير إلى القبر :﴿ يَابْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾[1] وأنّه قال : واجعفراه ! ولا جعفر لى اليوم ! واحمزتاه ولا حمزة لى اليوم !

وقد ذكرنا من هذا المعنى جملة صالحة فيما تقدّم ، وكلّ ذلك محمول عندنا على أنّه طلب الأمر من جهة الفضل والقرابة ، وليس بدالّ عندنا على وجود النصّ ، لأنه لو كان هناك نصّ لكان أقلّ كلفةً وأسهلَ طريقا ، وأيسرَ لِما يريدُ تناولاً أن يقول : ياهؤلاء إنّ العهد لم يطُلْ ، وإنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أمرَكم بطاعتى ، واستخلفنى عليكم بعده ، ولم يقع منه عليه السلام بعد ماعلمتموه ونصّ ينسخ ذلك ، ولا يرفعه ، فما الموجب للترك ، والعدول عنى !

فإن قالت الإمامية : كان يخاف القتل لو ذكر ذلك ، قيل لهم : فهلا يخاف القتل وهو يعتلّ ويدفع ليبايع ، وهو يمتنع ، ويستصرخ تارة بقبر رسول الله صلّى الله عليه وآله،

---

(١) سورة الأعراف ١٥٠ .

وتارة بعمّه حمزة وأخيه جعفر ـ وهما ميتان ـ وتارة بالأنصار ، وتارة ببنى عبدمناف، ويجمع الجموع فى داره ، ويبثّ الرسل والدّعاة ليلا ونهارا إلى الناس ، يذ كّرهم فضله وقرابته ، ويقول للمهاجرين : خَصَمْتُمُ (١) الأنصار بكونكم أقربَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وأنا أخصمكم بما خَصَمْتُمْ به الأنصار ، لأنّ القرابة إن كانت هى المعتبرة ، فأنا أقربُ منكم .

وهلّا خاف من هذا الامتناع ، ومن هذا الاحتجاج ، ومن الخلوة فى داره بأصحابه ، ومنْ تنفير الناس عن البيعة التى عقدت حينئذ لمن عقدت له !

وكلّ هذا إذا تأمّله المنصِف علم أنّ الشيعة أصابتْ فى أمرٍ ، وأخطأت فى أمرٍ ، أمّا الأمرُ الذى أصابت فيه فقولها : إنه امتنع وتلكّأ ، وأراد الأمر لنفسه ، وأمّا الأمرُ الذى أخطأت فيه ، فقولُها : إنه كان منصوصاً عليه نصاً جلياً بالخلافة ، تعلمهُ الصّحابة كلّها أو أكثرها ، وإنّ ذلك النصّ خولف طلباً للرئاسة الدنيويّة ، وإيثاراً للعاجلة . وإنّ حال المخالفين للنصّ لاتعدُو أحدَ أمرين : إمّا الكفر أو الفسق ، فإنّ قرائن الأحوال وأماراتها لاتدلّ على ذلك ، وإنّما تدلّ وتشهد بخلافه ، وهذا يقتضى أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام كان فى مبدأ الأمر يظنّ أنّ العقد لغيره كان عن غير نظر فى المصلحة ، وأنّه لم يقصَدْ به إلا صرفُ الأمرِ عنه ، والاستئثار عليه ، فظهر منه ماظهر من الامتناع والقعود فى بيته ، إلى أن صحّ عنده ، وثبت فى نفسه ، أنهم أصابوا فيما فعلوه ، وأنّهم لم يميلوا إلى هوًى ، ولا أرادوا الدنيا ، وإنما فعلوا الأصلح فى ظُنونهم ، لأنه رأى من بغض الناس له، وانحرافهم عنه ، وميلهم عليه ، وثوران الأحقاد التى كانت فى أنفسهم ، واحتدام النيران التى كانتْ فى قلوبهم ، وتذكّروا التّراث التى وَتَرَهم فيما قبل بها ، والدماء التى سفكها منهم ، وأراقها .

---

(١) خصمكم الأنصار : غلبوكم .

وتعلّل طائفة أخرى منهم للعدول عنه بصغَر سنّه ، واستهجانهم تقديمَ الشّباب على الكهُول والشيوخ .

وتعلّل طائفـــة أخرى منهم بكراهيَة الجمعَ بين النبوّة والخلافة فى بيت واحد ، فيجفَخُون[1] على الناس كما قاله من قاله . واستصعاب قوم منهم شكيمته وخوفهم تعدّيه وشدته ، وعلمهم بأنّه لا يداجِي ولا يحابى ، ولا يراقب ولا يجامل فى الدّين ، وأن الخلافة تحتاج إلى مَنْ يجتهـد برأيه ، ويعمل بموجب استصلاحه ، وانحراف قوم آخرين عنه ، للحسد الذى كان عندهم له فى حياة رسول الله صلى الله عليـه وآله ، لشدة اختصاصه له ، وتعظيمه إياه ، وما قال فيه فأكثر من النصوص الدالّة على رفعة شأنه وعلو مكانه ، وما اختصّ به من مصاهرته وأخوّته ، ونحو ذلك من أحواله معه ، وتنكّرُ قوم آخرين له لنسبتهم إليه العجْب والتيه، كما زعموا، واحتقار العرب، واستصغاره الناس كما عددوه عليه، وإن كانوا عندنا كاذبين ، ولكنّه قولٌ قيل ، وأمر ذكر ، وحال نسبت إليه ، وأعانهم عليها ما كان يصدُر عنه من أقوال توهم مثل هذا ، نحو قوله: « فإنا صنائعُ ربّنا ، والناس بعد صنائع لنا » ، وماصحّ به عنده[2] أنّ الأمر لم يكن ليستقيم له يوما واحداً ، ولا ينتظم ولا يستمرّ ، وأنه لو ولى الأمر لفتقت العرب عليه فتقا يكون فيه استئصال شأفة الإسلام وهدم أركانه ، فأذعن بالبَيْعة ، وجنَح إلى الطاعة وأمسك عن طلب الإمْرة ، وإن كان على مَضَض ورَمَض .

وقد روى عنه عليه السلام أنّ فاطمةَ عليها السلام حرّضته يوماً على النهوض والوثوب فسمع صوتَ المؤذّن : « أشهد أن محمدا رسول الله » ، فقال لها : أيسرّك زوال هذا النداء من الأرض ! قالت : لا ، قال : فإنه ما أقول لك .

---

(١) فيجفخون : يفخرون ويتكبرون .
(٢) ب : « عنده » ، وما أثبته من ا

وهذا المذهب هو أقصدُ المذاهب وأصحّها ، وإليه يذهب أصحابنا المتأخّرون من البغداديين ، وبه نقول .

واعلم أنّ حال عليّ عليه السلام في هذا المعنى أشهرُ من أن يحتاج في الدّلالة عليها إلى الإسهاب والإطناب ، فقد رأيت انتقاضَ العرب عليه من أقطارها حين بويع بالخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بخمسٍ وعشرين سنة ، وفي دون هذه المدّة تُنسَى الأحقاد ، وتموت التّرات، وتبرُد الأكباد الحامية ، وتسلُو القلوب الواجدة ، ويعدَم قرْنٌ من الناس ، ويوجد قرْن ، ولا يبقى من أرباب تلك الشّحناء والبغضاء إلّا الأقلّ ، فكانت حاله بعد هذه المدّة الطويلة مع قريش كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابنِ عمّه صلى الله عليه وآله ، من إظهار ما في النفوس ، وهَيَجان ما في القلوب ، حتى إنّ الأخلافَ من قريش ، والأحداث والفتيان الّذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته في أسلافهم وآبائهم ، فعلوا به مالو كانت الأسلاف أحياء لقصّرت عن فعله ، وتقاعست عن بلوغ شأوِه ، فكيف كانت تكونُ حاله لو جلس على مِنبَر الخلافة ، وسيفه بعد يقطُر دما من مُهج العرب ، لاسيا قريش الذين بهم كان ينبغي لو دهمه خطب أن يعتضد ، وعليهم كان يجب أن يعتمد ! إذن كانت تدرُس أعلام الملّة وتنعفِي رسومُ الشريعة ، وتعود الجاهليّة الجهلاء على حالها ، ويفسدُ ما أصلحه رسول الله صلى الله عليه وآله في ثلاث وعشرين سنة في شهر واحد، فكان من عناية الله تعالى بهذا الدّين أنْ ألهم الصحابة ما فعلوه، والله متمّ نوره ولو كره المشركون .

* * *

[فصل فى أنّ جعفراً وحمزة لو كان حيّين لبايعا عليا]

وسألت النقيبَ أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبى يزيد رحمه الله ، قلت له : أتقول: إنّ حمزة وجعفراً لو كانا حيّين يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، أكانا يبايعانه بالخلافة ؟ فقال : نعم ، كانا أسرع إلى بيعته من النار فى يَبَس العَرْفج . فقلت له : أظنّ أنّ جعفراً كان يبايعه ويتابعه ، وما أظنّ حمزة كذلك ، وأراه جبّاراً ، قوىّ النفس ، شديدَ الشكيمة ، ذاهبا بنفسه ، شجاعا بُهْمَةً ، وهو العمّ والأعلى سِنًّا ، وآثاره فى الجهاد معروفة ، وأظنّه كان يطلب الخلافة لنفسه !

فقال : الأمر فى أخلاقه وسجاياه كما ذكرتَ ، ولكنه كان صاحب دين متين ، وتصديقٍ خالص لرسول الله صلى الله عليه وآله ، ولو عاش لرأى من أحوال علىّ عليه السلام مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله مايوجبُ أن يكسر له نخوته ، وأن يقيمَ له صَعَره ، وأن يقدّمه على نفسه ، وأن يتوخّى رضا الله ورضا رسوله فيه ، وإن كان بخلاف إيثاره.

ثم قال: أين خُلُق حمزة السَّبُعىّ من خُلُق علىّ الروحانىّ اللطيف ، الذى جمع بينه وبين خُلق حمزة ، فاتّصفت بهما نفسٌ واحدة ! وأين هَيُولانية نفس حمزة ، وخلوها من العلوم من نفس علىّ القُدْسيّة التى أدركت بالفطرة لابالقوة التعليمية مالم تدركه نفوس مدققى الفلاسفة الإلهيّين ! لو أنّ حمزة حيّ حتّى رأى مِنْ علىّ ماراه غيره ، لكان أتبع له من ظلّه ، وأطوع له من أبى ذرّ والمقداد !

وأما قولك : هو العمّ والأعلى سِنًّا ، فقد كان العباس العمّ والأعلى سنًّا ، وقد عرفت مابذله له وندبه إليه ، وكان أبو سفيان كالعمّ ، وكان أعلى سنًّا ، وقد عرفت ماعرضه عليه. ثم قال : مازالت الأعمام تخدُم أبناء الإخوة ، وتكون أتباعا لهم ؛ ألست ترى داود بن

علىّ ، وعبد الله بن علىّ ، وصالح بن علىّ ، وسليمان بن علىّ ، وعيسى بن علىّ ، وإسماعيل ابن علىّ ، وعبد الصمد بن علىّ خَدَمُوا ابن أخيهم – وهو عبد الله السفّاح بن محمد بن علىّ – وبايعوه وتابعوه ، وكانوا أمراء جيوشِهِ وأنصاره وأعوانه ! ألستَ ترى حمزة والعباس اتبعا ابن أخيهما صلوات الله عليه ، وأطاعاه ورضيا برياسته ، وصدّقا دعوته ! ألستَ تعلم أن أبا طالب كان رئيس بنى هاشم وشيخَهم ، والمطاع فيهم ، وكان محمد رسول الله صلى الله عليه وآله يتيمه ومكفوله ، وجارياً مجرى أحد أولاده عنده ، ثم خضع له ، واعترف بصدقه ، ودان لأمره ، حتى مدحه بالشعر كما يمدحُ الأدنى الأعلَى ، فقال فيه :

وَأَبيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بوجْهِهِ ثِمَالُ اليتامَى عصمةٌ للأرامِلِ[1]

يُطِيفُ به الهُلّاكُ من آل هاشمٍ فهمْ عندَه فى نعمةٍ وفواضل

وإن سرًّا اختصّ به محمّد صلى الله عليه وآله ، حتى أقام أبا طالب – وحاله معه حاله – مقام المادح له ، لسرّ عظيم وخاصية شريفة ، وإنّ فى هذا لِمُعْتَبِرٍ عِبْرَةً أن يكون هذا الإنسان الفقير الذى لا أنصارَ له ولا أعوانَ معه ، ولا يستطيع الدّفاع عن نفسه ، فضلاً عن أن يقهر غيره ، تعمل دعوته وأقواله فى الأنفس ما تعمله الخمر فى الأبدان المعتدلةِ المزاج ، حتى تطيعه أعمامُه ويعظّمه مربّيه وكافلُه ، ومَنْ هو إلى آخر عمره القيّم بنفقته ، وغذاء بدنه ، وكسوة جسده ، حتى يمدحه بالشعر كما يمدح الشُّعراء الملوك والرؤساء ! وهذا فى باب المعجزات عند المنصِف أعظمُ من انشقاق القمر ، وانقلاب العصا ، ومن إنباء القوم بما يأكلون وما يدّخرون فى بيوتهم .

ثم قال رحمه الله : كيف قلت : أظنّ أن جعفراً كان يبايعه ويتابعه ، ولا أظنّ فى حمزة ذلك ! إنْ كنت قلت ذلك لأنه أخوه ، فإنّه أعلى منه سنّاً ، هو أكبر من علىّ بعشر

---

(١) ديوانه ١١٣ . ثمال اليتامى : عمادهم وملاذهم .
عصمة للأرامل : حافظ المساكين .

سنين ، وقد كانت له خصائصُ ومناقب كثيرة ، وقال فيه النبي صلى الله عليه وآله قولا شريفا اتفق عليه المحدّثون ، قال له لما افتخر هو وعليّ وزيد بن حارثة ، وتحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله : « أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي » فجل فرحا ، ثم قال لزيد : « أنت مولانا وصاحبنا » ، فجل أيضا ، ثم قال لعليّ : « أنت أخي وخالصتي » ، قالوا : فلم يحجل ، قالوا : كأنّ ترادف التعظيم له وتكرّره عليه لم يجعل عنده للقول ذلك الموضع ، وكان غيره إذا عُظّم عُظّم نادرا ، فيحسن موقعه عنده . واختلف الناس في أى المدحتين أعظم .

فقلت له : قد وقفتُ لأبي حيّان التوحيدي في كتاب " البصائر " على فصل عجيب يمازج مانحن فيه ، قال في الجزء الخامس من هذا الكتاب : سمعت قاضيَ القضاة أبا سعد بشر بن الحسين — ومارأيت رجلا أقوى منه في الجدل — في مناظرة جرت بينه وبين أبي عبد الله الطبريّ وقد جرى حديث جعفر بن أبي طالب ، وحديثُ إسلامه ، والتفاضل بينه وبين أخيه عليّ ، فقال القاضي أبو سعد : إذا أُنعِم النظر عُلِم أنّ إسلام جعفر كان بعد بلوغ ، وإسلامُ البالغ لايكون إلا بعد استبصار وتبيّن ومعرفة بقبح مايخرج منه ، وحسن مايدخل فيه ؛ وإنّ إسلام عليّ مختلف في حاله ، وذلك أنه قد ظنّ أنه كان عن تلقين لاتبيين إلى حين بلوغه ، وأوان تعقّبه ونظره . وقد علم أيضاً أنهما قتلا ، وإن قَتْلة جعفر شهادة بالإجماع ، وقتلة عليّ فيها أشدّ الاختلاف . ثم خصّ الله جعفرا بأنْ قَبضَه إلى الجنّة قبل ظهور التباين ، واضطراب الحبل ، وكثرة المرْج ، وعلى أنّه لو انعقد الإجماع ، وتظاهرَ جميع الناس على أنّ القتلتين شهادة ، لكانت الحال في الذى رفع إليها جعفر أغلظ وأعظم ، وذلك أنّه قتِل مقبلًا غير مدبر ، وأمّا عليّ فإنه اغتيل اغتيالا ، وقصِد من حيث لايعلم ؛ وشتّان مابين مَنْ فوجئ بالموت وبين مَنْ عاين مخايل الموت!

وتلقاه بالنحر والصدر ، وعجل إلى الله بالإيمان والصدق ! ألا تعلم أنّ جعفراً قطعت يمناه ، فأمسك اللواء بيسراه ، وقطعت يسراه ، فضمّ اللواء إلى حشاه ، ثم قاتله ظاهر الشرك بالله وقاتِل علىّ ممن صلّى إلى القبلة ، وشهد الشهادة ، وأقدم عليه بتأويل ، وقاتِل جعفر كافر بالنصّ الذى لاخلاف فيه ! أما تعلم أنّ جعفرا ذو الجناحين ، وذو الهجرتين إلى الحبشة والمدينة !

قال النقيب رحمه الله : اعلم — فِداك شيخك — أن أبا حيّان رجلٌ ملحِدزنديق، يحبّ التلاعب بالدّين ، ويخرِجُ مافى نفسه فيعزوه إلى قوم لم يقولوه . وأقسِم بالله أنّ القاضىَ أبا سعد لم يَقُلْ مِنْ هذا الكلام لفظة واحدة ، ولكنّها من موضوعات أبى حيان وأكاذيبه وترّهاته ؛ كما يسند إلى القاضى أبى حامد المروروذىّ كلّ منكَر ، ويروى عنه كلّ فاقرة .

ثم قال : ياأبا حيّان ! مقصودُك أن تجعلها مسألة خلاف تثير بهافتنةً بين الطالبيّين ، لتجعل بأسهم بينهم ! وكيف تقلّبت الأحوال فالفخر لهم لم يخرج عنهم !

ثم ضحك رحمهُ الله حتى استلقى ومدّ رجليه ، وقال : هذا كلام يُستغنى عن الإطالة فى إبطاله بإجماع المسلمين ، فإنّه لاخـلافَ بين المسلمين فى أنّ عليا أفضـلُ من جعفر ؛ وإنّما سرق أبو حيان هذا المعنى الذى أشار إليه من رسالة المنصور أبى جعفر إلى محمد بن عبد الله ، النفس الزكيّـة ، قال له : وكانت بنو أميّـة يلعنون أباك فى أدبار الصلوات المكتوبات ، كما تلعن الكفرة ، فعنّفناهم وكفّرناهم ، وبيّنا فضلهوأشدْنابذكره،فاتخذتَ ذلك علينا حجّة ، وظننت أنه لما ذكرناه من فضله أنا قدّمناه علَى حمزةوالعباس وجعفر، أولئك مضوْا سالمين مسلمين منهم ، وابتلى أبوك بالدماء!

فقلت له رحمه الله : وإذاً لا إجماع فى المسألة ؛ لأنّ المنصور لم يقلْ بتفضيله عليهم،

وأنت ادّعيت الإجماع ، فقال : إنّ الإجماع قد سبق هـذا القائل ، وكلّ قول قد سبقه الإجماع لا يعتدّ به .

فلمّا خرجت من عند النقيب أبى جعفر بحثتُ فى ذلك اليوم فى هذا الموضوع مع أحمد ابن جعفر الواسطىّ رحمه الله ـ وكان ذا فضل وعقل ، وكان إماميّ المذهب ـ فقال لى : صدق النقيب فيما قال ! ألست تعلم أنّ أصحابكم المعتزلة على قولين : أحدهما أنّ أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر ، والآخر أنّ أكثرهم ثواباً علىّ ، وأصحابنا يقولون : إنّ أكثرَ المسلمين ثواباً علىّ ، وكذلك الزيدية . وأمّا الأشعريّة والكرّامية وأهل الحديث ، فيقولون : أكثر المسلمين ثواباً أبو بكر ، فقد خلَص من مجموع هذه الأقوال أنّ ثواب حمزة وجعفر دون ثواب علىّ عليه السلام ؛ أمّا علَى قول الإماميّة والزيديّة والبغداديين كافّة ، وكثير من البصريين من المعتزلة ، فالأمر ظاهر ، وأمّا الباقون فعندهم أنّ أكثرَ المسلمين ثواباً أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علىّ ؛ ولم يذهب ذاهبٌ إلى أنّ ثواب حمزة وجعفر أكثرُ من ثواب علىّ من جميع الفِرَق . فقد ثبت الإجماع الذى ذكره النقيب ، إذا فسرنا الأفضليّة بالأكثرية ثواباً ، وهو التفسير الذى يقع الحجاج والجدال فى إثباته لأحد الرجلين . وأمّا إذا فسرنا الأفضليّة بزيادة المناقب والخصائص وكثرة النصوص الدالّة على التعظيم ، فمعلوم أنّ أحداً من النّاس لا يقارب عليا عليه السلام فى ذلك ، لا جعفر ، ولا حمزة ولا غيرهما .

ثم وقع بيدى بعد ذلك كتابٌ لشيخنا أبى جعفر الإسكافى ، ذكر فيه أنّ مذهب بِشْر بن المعتمِر ، وأبى موسى ، وجعفر بن مُبَشّر ، وسائر قدماء البغداديّين أنّ أفضلَ المسلمين علىُّ بن أبى طالب ، ثمّ ابنُه الحسن ، ثم ابنُه الحسين ، ثم حمزةُ بن عبد المطلب ، ثم جعفرُ بن أبى طالب ، ثم أبو بكر بن أبى قُحافة ، ثم عمرُ بن الخطاب ، ثم عثمانُ ابن عفّان .

قال : والمراد بالأفضل أكرمهم عند الله ، وأكثرهم ثوابا ، وأرفعهم فى دار الجزاء منزلة .

ثم وقفت بعد ذلك على كتاب لشيخنا أبى عبد الله البصرى يذكر فيه هذه المقالة ، وينسبها إلى البغداديين ، وقال : إن الشيخ أبا القاسم البلخى كان يقول بها ، وقبله الشيخ أبو الحسين الخياط ، وهو شيخ المتأخرين من البغداديين ، قالوا كلهم بها ، فأعجبنى هذا المذهب ، وسررت بأن ذهب الكثير من شيوخنا إليه ، ونظمته فى الأرجوزة التى شرحت فيها عقيدة المعتزلة ، فقلت :

وخير خلق الله بعد المصطفى ... أعظمهم يوم الفخار شرفا
السيد المعظم الوصى ... بعل البتول المرتضى على
وابناه ثم حمزة وجعفر ... ثم عتيق بعدهم لا ينكر
المخلص الصديق ثم عمر ... فاروق دين الله ذاك القسور
وبعده عثمان ذو النورين ... هذا هو الحق بغير مين

(٢١٢)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام فى ذكر السائرين إلى البصرة لحربه عليه السلام :

فَقَدِمُوا عَلَى عُمّالِي وَخُزّانِ بَيْتِ مالِ الْمُسلِمِينَ الَّذِى فى يَدَىَّ ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرٍ كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي ، وَعَلَى بَيْعَتِي ؛ فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ ، وَأَفْسَدُوا عَلَىَّ جَماعَتَهُمْ ، وَوَثَبُوا عَلَى شِيعَتِي فَقَتَلُوا طائِفَةً مِنْهُمْ غَدْراً ، وَطائِفَةً عَضُّوا عَلَى أَسْيافِهِمْ ، فَضارَبُوا بِها ، حَتَّى لَقُوا اللهَ صادِقِينَ .

***

الشرحُ :

عَضُّوا على أسيافهم ، كناية عن الصَّبْر فى الحرب وترك الاستسلام ، وهى كناية فصيحة ، شبّه قبضهم على السيوف بالعضّ ، وقد قدمنا ذكر ما جرى ، وأنّ عسكر الجمل قتلوا طائفة من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام بالبصرة بعد أن أمّنوهم غدرا ، وأنّ بعض الشيعة صبر فى الحرب ولم يستسلم ، وقاتل حتى قتل ، مثل حكيم بن جبلة العبدىّ وغيره . وروى : « وطائفةٌ عضوا على أسيافهم » بالرفع ، تقديره : ومنهم طائفة .

قرأت فى كتاب " غريب الحديث " لأبى محمد عبد الله بن قتيبة فى حديث حُذَيفة بن اليمان ، أنه ذكر خروج عائشة ، فقال : « تقاتل معها مُضَر ، مضّرها الله فى النار[1] » ،

---

(١) قال ابن الأثير فى شرحه للحديث : « أى جعلها فى النار ، فاشتق لذلك لفظاً من اسمها ؛ يقال : مضرنا فلانا فتمضر ؛ أى صيرناه كذلك ، أى نسبناه إليها . وقال الزمخشرى : مضرها : جمعها كما يقال : جند الجنود ، وقيل : مضرها : أهلكها ، من قولهم : ذهب دمه خضراً مضراً ، أى هدراً » . النهاية ٤ : ٩٨ .

وأزد عُمان سلّت الله أقدامها [١] ، وإنّ قيساً لن تنفكّ تبغى دين الله شرّاً ، حتى يركبها الله بالملائكة ، فلا يمنعوا ذَنَب تَلْعة » [٢] .

قلت : هذا الحديث من أعلام نبوّة سيدنا محمد صلّى الله عليه وآله ، لأنه إخبار عن غيب تلقّاه حُذيفة عن النبيّ صلى الله عليه وآله ؛ وحُذَيفة أجمع أهل السيرة على أنه مات في الأيّام التى قتل عثمان فيها أتاه نعيُه وهو مريض ، فمات وعلىّ عليه السلام لم يتكامل بيعة الناس ، ولم يدرك الجمل .

وهذا الحديث يؤكّد مذهب أصحابنا فى فسق أصحاب الجمل ، إلّا مَنْ ثبتت توبتُه منهم ، وهم الثلاثة .



(١) سلت الله أقدامها : قطعها . النهاية ٢ : ١٧٤ .

(٢) التلاع : مسايل الماء ، من علو إلى سفل ، واحدها تلعة ، وذنب التلعة : أسفلها ؛ قال الزمخشرى : « أى يذلها الله حتى لا تقدر على أن تمنع ذنب تلعة . الفائق ٣ : ٣٢ .

(٢١٣)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لما مرّ بطلحة بن عبيد الله وعبدالرحمن بن عتّاب بن أسيد وهما قتيلان يوم الجمل :

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيباً ! أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتْلَى تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ ! أَدْرَكْتُ وَتْرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفْلَتَنِي أَعْيَارُ بَنِي جُمَحٍ ،لَقَدْ أَتْلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا دُونَهُ !

***

الشّرْحُ :

[عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد]

هو عبد الرحمن بن عتّاب بن أسِيد بن أبي العِيص بن أميّة بن عبد شمس . ليس بصحابيّ ، ولكنه من التابعين،وأبوه عتّاب بن أسِيد بن أبي العِيص بن أميّة بن عبدشمس، من مُسلِمة الفتح ، ولما خرج رسولُ الله صلّى الله عليه وآله من مكّة إلى حُنَين ، استعمله عليها ، فلم يزل أميرَها حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وبقي على حاله خلافة أبي بكر الصديق ، ومات هو وأبو بكر في يوم واحد ، لم يعلم أحدُهما بموت الآخر ، وعبد الرحمن هذا هو الّذي قال أمير المؤمنين فيه ،وقد مرّ به قتيلا يوم الجمل : لهفي عليك يعسوب قريش ! هذا فتى الفتيان ، هذا اللّباب المحض من بني عبد مناف ، شفيتُ نفسي ، وقتلت معشري ، إلى الله أشكو عُجَرِي وبُجَرِي ! فقال له قائل : لَشدّ ما أطريتَ

الفتى ياأمير المؤمنين منذ اليوم ! قال : إنه قام عنّي وعنه نسوة لم يقمن عنك

وعبد الرحمن هذا هو الذى احتملت العُقاب كفّه يوم الجمل وفيها خاتمُه، فألقتها باليمامة فعرفت بخاتمه ، وعلم أهل اليمامة بالوقعة .

* * *

ورأيت فى شرح " نهج البلاغة " للقطب الرّاوندىّ فى هذا الفصل عجائبَ وطرائف، فأحببتُ أن أوردها هاهنا . منها أنه قال فى تفسير قوله عليه السلام « أدركْتِ وتْرى[1] من بنى عبد مناف » ، قال : يعنى طلحةَ والزُّبير ، كانا من بنى عبد مناف ، وهذا غلط قبيح، لأنّ طلحة من تَيْم بن مرّة ، والزّبير من أسد بن عبد العزّى بن قصى ، وليس أحدٌ منهما من بنى عبد مناف، وولد عبد مناف أربعة : هاشم ، وعبد شمس، ونوفل، وعبد المطّلب، فكلّ مَنْ لم يكن من ولد هؤلاء الأربعة ، فليس من ولد عبد مناف .

ومنها أنّه قال : إنّ مَرْوان بن الحكَم ، من بنى جُمَح ، ولقد كان هذا الفقيه رحمه الله بعيداً عن معرفة الأنساب ! مرْوان من بنى أميّة بن عبد شمس ، وبنو جُمَح من بنى هُصَيص بن كعب بن لؤىّ بن غالب ، واسم جُمَح تَيْم بن عمرو بن هُصيص ، وأخوه سهم بن عمرو بن هُصَيص رهط عمرو بن العاص ، فأين هؤلاء ، وأين مروان ابن الحكم !

ومنها أنّه قال : « وأفلتتنى أغيار بنى جُمح » بالغين المعجمة ، قال : هو جَمْع « غَيْر » الذى بمعنى « سوى » ، وهذا لم يُرْوَ ، ولا مثله ممّا يتكلّم به أمير المؤمنين لركّته وبعده عن طريقته ، فإنه يكون قد عدل عن أن يقول : « ولم يفلتنى إلّا بنو جُمح » إلى مثل هذه العبارة الركيكة المتعسّفة .

* * *

(١) الوتر : الذحل والثأر .

[بنو جُمَح]

واعلم أنّه عليه السلام أخرج هذا الكلام مخرج الذمّ لمن حضر الجمل مع عائشة زوجة النبيّ صلّى الله عليه وآله من بنى جُمَح ، فقال : « وأفلتنى أعيارُ بنى جُمَح » ، جمع عَيْر وهو الحمار ، وقد كان معها منهم يوم الجمل جماعة هربوا ، ولم يقتل منهم إلّا اثنان ، فمَن هرب ونجا بنفسه : عبد الله الطويل بن صفوان بن أميّة بن خلَف بن وهب بن حُذَافة ابن جُمح ، وكان شريفا وابن شريف ، وعاش حتى قُتِل مع ابن الزبير بمكة .

ومنهم يحيى بن حكيم بن صَفْوان بن أمية بن خلف ، عاش حتى استعمله عمرو بن سعيد الأشدق على مكّة ، لما جمع له بين مكة والمدينة ، فأقام عمرو بالمدينة ، ويحيى بمكة .

ومنهم عامر بن مسعود بن أميّة بن خلف، كان يسمّى دُحروجة الجُعَل، لقصره وسواده، وعاش حتى ولّاه زياد صَدَقاتِ بكر بن وائل ، وولّاه عبد الله بن الزُّبير بن العوّام الكوفة .

ومنهم أيوب بن حبيب بن علقمة بن ربيعة بن الأعور بن أُهَيب بن حُذافة بن جُمَح ، عاش حتى قتل بقُديد ، قتلته الخوارج .

فهؤلاء الذين أعرف حضورهم الجمل مع عائشة من بنى جُمَح ، وقتل من بنى جُمَح مع عائشة عبدالرحمن بن وهب بن أسيد بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمَح ، وعبد الله ابن ربيعة بن دَرّاج العَنْبس بن وهبان بن وهب بن حُذافة بن جُمَح ، لا أعرف أنّه قتِل من بنى جُمح ذلك اليوم غيرهما ، فإنْ صحّت الرواية : « وأفلتنى أعيان بنى جُمَح » ، بالنون ، فالمراد رؤساءهم وساداتهم .

* * *

وأتلعوا أعناقهم: رفعوها ، ورجل أتلَع : بيّن التَلع ، أى طويل العنق ، وجِيدٌ تليع أى طويل ، قال الأعشى :

يوم تُبْـدِى لنـا قُتَيلةُ عَنْ جِيـ ـدٍ تَلِيعٍ تَزِينُهُ الأطواقُ (١)

ووُقِص الرّجل ، إذا اندقّت عنُقه ، فهو موقوص ، ووَقَصتُ عنقَ الرّجل أقِصُها وَقْصاً ، أى كسرتُها ، ولا يجوز وقصت العنق نفسها .

والضمير فى قوله عليه السلام : « لقد أتلعوا » يرجع إلى قريش ،أى راموا الخلافة فقتِلُوا دونها .

فإن قلت : أتقول إنّ طلحة والزبير لم يكونا من أهل الخلافة ؟ إن قلتَ ذلك تركت مذهبَ أصحابِك ، وإن لم تقله خالفت قول أمير المؤمنين « لم يكونوا أهله » !

قلت : هما أهلٌ للخلافة مالم يطلبْها أميرُ المؤمنين ، فإذا طلبَها لم يكونا أهلاً لهـا ، لا هما ولا غيرهما ، ولولا طاعته لمن تقدّم وما ظهر من رضاه به لم نحكم بصحّة خلافته .

---

(٢) ديوانه ١٤٠ .

(٢١٤)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام :

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ ؛ حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ ، وَبَرَقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ ، وَتَدَافَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ ، وَدَارِ الْإِقَامَةِ ، وَثَبَتَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ ، وَأَرْضَى رَبَّهُ .

***

الشرح :

يصف العارفَ ، يقول : قد أحيا قلبه بمعرفة الحقّ سبحانه ، وأمات نفسه بالمجاهدة ورياضة القوّة البدنية بالجوع والعطش ، والسهر ، والصّبر على مشاقّ السفر ، والسياحة .

حتى دقّ جليلُه ، أى حتى نَحَل بدنهُ الكثيف .

ولطف غليظُه ، تلطفت أخلاقه وصفتْ نفسه ، فإن كَدر النفس فى الأكثر إنّما يكون من كَدَر الجسد ، والبطنة — كما قيل — تذهب الفطنة .

***

[فصل فى مجاهدة النفوس وما ورد فى ذلك من الآثار]

ويقول أرباب هذه الطريقة : مَنْ لم يكن فى بدايته صاحبَ مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمّة .

وقال عثمان المغربي الصوفيّ : مَنْ ظَنّ أنه يُفتَحُ عليه شيء من هذه الطريقة ، أو يكشف له عن سرٍّ من أسرارها من غير لزوم المجاهدة ، فهو غالط .

وقال أبو علي الدقّاق : مِنْ لم يكن في بدايته قَوْمة ، لم يكن في نهايته جَلْسة .

ومن كلامهم : الحركة بركة . حركاتُ الظواهر ، تُوجب بركات السرائر .

ومن كلامهم : مَنْ زيّن ظاهرَه بالمجاهدة حسّن الله سرائرَه بالمشاهدة .

وقال الحسن القرازيّ : هذا الأمر على ثلاثة أشياء : ألّا تأكل إلّا عند الفاقة ، ولا تنام إلا عند الغَلَبة ، ولا تتكلّم إلاّ عند الضرورة .

وقال إبراهيم بن أدهَم : لن ينال الرّجل درجة الصّالحين حتى يغلق عن نفسه باب النّعمة ، ويفتحَ عليها باب الشّدّة .

ومن كلامهم : من كَرُمَتْ عليه نفسه ، هان عليه دينه .

وقال أبو علي الرّوذباريّ : إذا قال الصوفيّ بعد خمسة أيام : أنا جائع ، فألزموه السوق ، ومُروه بالكسب .

وقال حبيب بن أوس أبو تمام ؛ وهو يقصد غيرَ ما نحن فيه ، ولكنه يصلح أن يستعمل فيما نحن فيه :

خُذِي عَبَرَاتِ عينكِ عن زِمَامِي ... وصُونِي ما أزلْتِ من القِناع[1]
أقلّي قد أضاقَ بُكاكِ ذَرْعي ... وما ضاقتْ بنازلةٍ ذِرَاعي
أآلفةَ النّحيبِ كم افتراقٍ ... أظلَّ فكان داعيةَ اجتماع !

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٣٦ ، قال في شرحه . يقول لها : نحي عن عزمي بكاءك . وزمام اسم من أزمعت ، وتقنعي بالقناع الذي ألقيته من رأسك .

فليستْ فرحةُ الأوْبَاتِ إلّا لموقوفٍ على ترَحِ الوداعِ[1]

تعجّبُ أنْ رأت جسمِي نحيــلًا كأنّ المجــدَ يُدْرَكُ بالصِّراعِ ![2]

أخو النّكَبات مَنْ يأوِى إذا ما أطفنَ به إلى خُلُقٍ وساعِ[3]

يثيرُ عجــاجةً فى كلّ فَجّ يهيمُ به عدىُّ بن الرِّقاعِ[4]

أبِنّ مع السباع الماء حتّى تخالته السِّباعُ من السِّبــاعِ

وقال أيضاً :

فاطلُبْ هُدُوءا بالتَّقَلْقُلِ واستثِرْ بالعِيسِ منْ تحتِ السُّهاد هُجُودا[5]

مَا إنْ ترَى الأحساب بيضاً وُضَّحاً إلّا بحيثُ ترَى المنايا سُودا[6]

وجاء فى الحديث أنّ فاطمة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بكِسْرة خُبْز ، فقال : ما هذه ؟ قالت : قُرْص خبزته ، فلم تطِبْ نفسى حتى أتيتُك منه بهذه الكِسْرة ، فأكلها ، وقال : « أمَا إنّها لأوّل طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث » .

وكان يقال : ينابيع الحِكْمة من الجوع ، وكسر عادية النفس بالمجاهدة .

---

(١) قال فى شرحه : « أى لمن يعرف ترح الوداع ، من قولهم : وقفت فلاناً على أمرى ، فهو موقوف عليه ، أى من لم يجد ألماً للفراق لم يجد فرحا باللقاء » .

(٢) الديوان : « توجع أن رأت » .

(٣) رواية الديوان :

فتَى النّكباتِ من يأوى إذا ما قطفن بهِ إلى خلقٍ وساعِ

وقال فى شرحه : « قطفن : من قولهم : دابة قطوف ، ويروى : « أطفن به » . ويروى : « أضفن به » يقول : هو صاحب النكبات والشدائد يركبها ، ويأوى إلى خلق واسع ؛ إذا ضيقن من مذاهبه وأحطن به » .

(٤) فى الديوان : « فى كل ثغر » .

(٥) ديوانه ١ : ٤١٦ ، ٤٢٢ ، قال فى شرحه : « أى اطلب بالحركة فى الأسفار سكوناً ودعة فيا بعد، وبالأرق نوماً . وقوله : « بالعيس » أى بركوب العيس . ومن تحت السهاد ؛ أى من تحت الصبر على السهاد .

(٦) أى من لم يصبر فى معركة الأبطال لم يذكر .

وقال يحيى بن مُعاذ : لو أنّ الجوعَ يُباع فى السوق لما كان ينبغى لطلّاب الآخرة إذا دخلوا السُّوق أن يشترُوا غيرَه .

وقال سهل بن عبدالله : لمّا خَلق الله الدّنيا جعل فى الشِّبَع المعصيةَ والجهل ، وجعلَ فى الجوع الطاعة والحكمة .

وقال يحيى بن مُعاذ : الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزّهّاد سياسة ، وللعارفين تكرِمة .

وقال أبو سليمان الدّارانىّ : مفتاح الدّنيا الشِّبَع ، ومفتاح الآخرة الجوع .

وقال بعضهم : أدب الجوع ألّا ينقصَ من عادتك إلا مثل أذن السِّنّور ، هكذا على التدريج ، حتّى تصل إلى ما تريد .

ويقال : إنّ أبا تُراب النّخشبىّ خرج من البصرة إلى مكّة ، فوصل إليها على أكلتين : أكلةٍ بالنِّبَاج ، وأكلةٍ بذات عِرْق .

قالوا : وكان سهل بن عبدالله التُّسْتَرىّ إذا جاع قوىَ ، وإذا أكل ضعف .

وكان منهم مَنْ يأكلُ كلَّ أربعين يوماً أكلة واحدة ، ومنهم مَنْ يأكل كلَّ ثمانين يوماً أكلة واحدة .

قالوا : واشتهى أبو الخير العسقلانىّ السمك سنين كثيرة ، ثم تهيأ له أكلُه من وجهٍ حلال ، فلما مدّ يدَه ليأكل أصابت أصبعه شوكة من شوك السمك ، فقام وترك الأكل، وقال : يارب ، هذا لمن مدّ يده بشهوة إلى الحلال ، فكيف بمن مدّ يدَه بشهوة إلى الحرام !

وفى الكتاب العزيز : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [1] ، فالجملة الأولى هى التقوى ، والثانية هى المجاهدة .

---

(١) سورة النازعات ٤٠ ، ٤١ .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « أخوَفُ ماأخاف على أمّتى اتّباع الهوى وطول الأمل ، أما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق ، وأمّا طول الأمل فيُنسِى الآخرة » .

وسئل بعضُ الصوفيّة عن المجاهدة ، فقال : ذَبْح النّفس بسُيوف المخالفة .

وقال : منْ نجمَتْ طوارقُ نفسِه ، أفلتْ شَوارق أنسه .

وقال إبراهيم بن شيبان : مابتّ تحت سقفٍ ولا فى موضع عليه غَلَق[1] اربعين سنة. وكنت أشتهى فى أوقاتٍ أن أتناول شُبْعَةَ[2] عدس فلم يتفق ، ثم حُملَتْ إلىّ وأنابالشّام غَضَارة[3] فيها عدسيّة ،فتناولت منها وخرجت، فرأيت قوارير معلّقة فيهاشبه أنموذجات، فظننتها خَلًّا ، فقال بعض الناس : أتنظر إلى هـذه وتظنّها خَلًّا ! وإنّما هى خمر ، وهى أنموذجات هذه الدنان ــ لدنان هناك ــ فقلت : قدلزِمَنى فرضُ الإنـكار،فدخلت حانوت ذلك الخمّار لأ كسِرَ الدّنان والجرار ، فحُمِلتُ إلى ابن طُولون ، فأمر بضربى مائتى خَشَبة ، وطرحِى[4] فى السِّجْن ، فبقيت مدّة ، حتى دخل أبو عبد الله الوبانى المغربىّ أستاذ ذلك البلد ، فعلم أنّى محبوس ، فشفع فىّ ، فأخرِجتُ إليـه ، فلمّا وقع بصرُه علىّ قال : أىّ شىء فعلت ؟ فقلت : شُبعة عـدس ومائتى خشبـة ، فقـال : لقـد نجوتَ مجّانًا .

وقال إبراهيم الخوّاص : كنتُ فى جبلٍ ، فرأيت رُمّانًا فاشتهيته ، فدنوت فأخذت منه واحدةً ، فشققتها فوجدتّها حامِضَةً ،فمضيت وتركت الرمّان ، فرأيت رجلاً مطروحا قد اجتمع عليه الزّنابير ، فسلّمت عليه ، فردّ علىّ باسمى ، فقلت : كيف عرفتَنِى ؟ قال : مَنْ عرَف الله لم يَخفَ عليه شىء ، فقلت له : أرى لك حالًا مع الله ، فلو سألته أن يحميَك ويقيَك من أذى هـذه الزّنابير ! فقال : وأرَى لك حالًا مع الله ، فلو سألته أن يقيَك من شهوة الرّمّان ، فإنّ لذع الرّمان يجـد الإنسـان ألمه فى الآخرة ، ولذع الزنابير

(١) الغلق هنا : الباب .
(٢) الشبعة من الطعام : قدر ما يشبع به .
(٣) الغضارة : القصعة الـكبيرة .
(٤) كذا فى ا ، وفى ب : وطرحنى » .

يجد الإنسان ألمه فى الدنيا ، فتركته ومضيت على وجهى .

وقال يوسف بن أسباط : لا يمحو الشّهوات من القلب إلّا خوفٌ مزعج ، أو شوقٌ مقلق .

وقال الخوّاص : مَنْ ترك شهوة فلم يجد عِوَضها فى قلبه فهو كاذب فى تركها .

وقال أبو علىّ الرّباطىّ : صحبت عبد الله المروزىّ ، وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه بلا زاد ؛ فلما صحبتُه قال لى : أيّما أحبُّ إليك ؟ تكون أنتَ الأمير ، أم أنا ؟ قلت : بل أنت ، فقال : وعليك الطاعة ؟ قلت : نعم ، فأخذ مِخْلَاةً ووضع فيها زادا ، وحملها على ظهره ، فكنت إذا قلت له : أعطنى حتى أحملها ، قال : الأمير أنا ، وعليك الطاعة ، قال : فأخذَنا المطرُ ليلة ، فوقف إلى الصّباح على رأسى ، وعليه كساء يمنع عنّى المطر ، فكنت أقول فى نفسى : ياليتنى متّ ولم أقل له : أنت الأمير ! ثم قال لى : إذا صحبت إنسانا فاصحبه كما رأيتَنى صحبتك .

أبو الطيّب المتنبّى :

ذرينى أنلْ مالا يُنال من العُلَا ... فصعبُ العُلَا فى الصّعْبِ والسّهلُ فى السهلِ[1]
تريدينَ إدراكَ المعالى رخيصةً ... ولا بُدّ دونَ الشّهْد من إبَرِ النّحلِ[2]

وله أيضا :

وإذا كانَتِ النُّفوسُ كِباراً ... تعبتْ فى مُرادِها الأجسامُ[3]

ومن أمثال العامة : مَنْ لم يَغْلِ دماغُه فى الصّيف لم تَغْلِ قِدْرُه فى الشتاء .

مَنْ لم يركب الأخطار ، لم ينل الأوطار .

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٩٠ .
(٢) فى الديوان : « تريدين لقيان المعالى »
(٣) ديوانه ٣ : ٣٤٥

إدراك السُّول وبُلوغ المأمول ، بالصبرِ على الجوع ، وفقدِ الهُجوع ، وسَيَلانِ الدموع .

***

واعلم أنّ تقليلَ المأكول لاريب فى أنّه نافعٌ للنفس والأخلاق ، والتّجْربة قد دلّتْ عليه ، لأنّا نرى المكثِرَ من الأكل يغلبه النّومُ والكسل وبلادة الحواسّ وتتبخر المأكولات الكثيرة أبخرة كثيرة ، فتتصاعد إلى الدّماغ فتفسد القوّى النفسانية . وأيضا فإنّ كثرة المأكل تزيل الرّقة ، وتورث القسَاوة والسّبعية ، والقياس أيضا يقتضى ذلكَ ؛ لأنّ كثرة المزاوَلات ، سببٌ لحصولِ الملكات ، فالنّفس إذا توفّرت على تدبير الغِذَاء وتصريفه ، كان ذلك شغلا شاغلا لها ، وعائقا عظيما عن انصبابها إلى الجهة الرُّوحانية العالية ، ولكن ينبغى أن يكون تقليل الغذاء إلى حدّ يوجب جوعاً قليلا ، فإنّ الجوع المفرِط يورث ضعف الأعضاء الرئيسة واضطرابها ، واختلال قُواها ، وذلك يقتضى تشويشَ النّفس واضطراب الفكر ، واختلال العقل ، ولذلك تمرض الأخلاط السّوْداوية لمن أفرط عليه الجوع ، فإذَنْ لابدّ من إصلاح أمر الغذاء ، بأن يكون قليلَ الكَمّيّة ، كثير الكيفيّة ، فتؤثِّر قلة كميّته فى أنّه لايشغل النفس بتدبير الهضم عن التوجه إلى الجهة العالية الروحانية ، وتؤثِّر كثرة كيفيته فى تدارُك الخلل الحاصل له من قلّة الكَمية ، ويجب أن يكون الغِذاء شديدَ الإمداد للأعضاء الرئيسَة ، لأنها هى المهمّة من أعضاء البَدَن وما دامت باقيةً على كال حالها لا يظهر كثير خللٍ من ضعف غيرها من الأعضاء .

***

[فصل فى الرياضة النفسية وأقسامها]

واعلم أنّ الرّياضة والجوع هى أمرٌ يحتاج إليه المريد الذى هو بعدُ فى طريق السّلوك إلى الله .

وينقسم طالبُو هذا الأمر الجليل الشاق إلى أقسام أربعة :

أحدها : الّذِين مارَسُوا العلومَ الإلٰهيّة، وأجهدُوا أنفسَهم فى طلبها والوصول إلى كنهها، بالنّظر الدقيق ، فى الزمان الطويل ، فهولاء يحصُلُ لهم شوق شديد ، وميلٌ عظيم إلى الجهة العالية الشريفة ، فيحملهم حبُّ الكمال عَلَى الرّياضة .

وثانيها : الأنفُس التى هى بأصل الفطرة والجوهر مائلة إلى الرُّوحانيّة من غير ممارسة عِلْم ولا دربة بنظر وبحث ، وقد رأينا مثلَهم كثيرا ، وشاهدنا قوماً من العامّة متى سَنَح لهم سانح مشوق ، مثل صوت مطرب ، أو إنشاد بيت يقع فى النفس ، أو سماع كلمةٍ توافق أمراً فى بواطنهم ، فإنّه يستولِى عليهم الوجْد ، ويشتدّ الحنين ، وتغشاهم غواشٍ لطيفة روحانيّة ، يغيبون بها عن المحسوسات والجسمانيات .

وثالثها : نفوس حَصَل لها الأمْران معاً : الاستعدادُ الأصليّ ، والاشتغال بالعلوم النظريّة الإلٰهيّة .

ورابعها : النفوس التى لا استعداد لها فى الأصل ولا ارتاضت بالعلوم الإلٰهيّة ، ولكنهم [١] قومٌ سمعوا كمالَ هذه الطريقة ، وأنّ السعادةَ الإنسانيّة ليستْ إلّا بالوصول إليها، فمالت نحوها ، وحصل لها اعتقاد فيها .

فهذه أقسام المريدين ؛ والرياضة التى تليقُ بكلّ واحدٍ من هذه الأقسام غير الرياضة اللائقة بالقسم الآخر .

---

(١) ا : « وكان »

ونحتاجُ قبل الخوضِ فى ذلك إلى تقديم أمرين :

أحدهما : أنّ النفحاتِ الإلٰهية دائمة مستمرّة ،وأنه كل مَنْ توصّل إليها وصل ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[1] وقال النبىّ صلّى الله عليه وآله : « إنّ لربّكم فى أيّام عصركم نفحاتٍ ، ألا فتعرّضوا لنفحاته » .

وثانيهما : أنّ النفوسَ البشريّة فى الأكثر مختلفةٌ بالنوع ،فقد تكون بعض النفوس مستعدّة غاية الاستعداد لهذا المطلب ، وربّما لم تكن البتّة مستعدّة له ، وبين هذين الطرَفَين أوساط مختلِفة بالضّعف والقوّة .

وإذا تقرّر ذلك فاعلم أنّ القسمَين الأوّلَين لمّا اختلفا فيما ذكرناه لاجرم ، اختلفا فى الكسْب والمكتَسب .

أمّا الكسْب فإنّ صاحب العِلْم الأوْلَى به فى الأكثر العُزلة والانقطاع عن الخلْق ، لأنه قد حصلت له الهداية والرّشاد ، فلا حاجة له إلى مخالطة أحدٍ يستعين به على حصول ماهو حاصل . وأمّا صاحبُ الفِطْرة الأصليّة من غير عِلْم فإنّه لا يليقُ به العُزْلة ، لأنه يحتاج إلى المعلّم والمرشِد ، فإنه ليس يكفى الفطرة الأصليّة فى الوصول إلى المَعالم الإلٰهية والحقائق الربّانية ، ولا بدّ من موقف ومرشد فى مبدأ الحال ، هذا هو القول فى الكسب بالنظر إليهما .

وأمّا المكتَسب ، فإنّ صاحب العلم إذا اشتغل بالرّياضة كانت مشاهداته ومكاشفاته أكثر كميّة ، وأقل كيفية ممّا لصاحب الفطرة المجردة ،أما كثرة الكمية ، فلأنّ قوّته النظريّة تُعينه على ذلك ، وأمّا قلّة الكيفيّة،فلأنّ القوّة النفسانية تتوزّع على تلك الكثرة؛ وكلّما كانت الكثرة أكثرَ ؛كان توزّع القوّة إلى أقسامٍ أكثر ،وكان كلّ واحدٍ منها

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .

أضعف مما لو كانت الأقسامُ أقلَّ عددا ، وإذا عرفتَ ذلك عرفت أنّ الأمر فى جانب صاحب الفِطْرة الأصليّة بالعكس من ذلك ، وهو أنّ مشاهداتِه ومكاشفاته تكون أقلَّ كميّة ، وأكثرَ كيفية .

وأمّا الاستعداد الثّالث ، وهو النفس التى قد جمعت الفِطْرة الأصليّة والعلوم الإلٰهيّة النظريّة بالنظر ، فهى النفس الشريفة الجليلة الكاملة .

وهذه الأقسام الثلاثة مشتركة فى أنّ رياضتَها القلبية يجب أن تكون زائدة فى الكَمِّ والكيف على رياضتها البدنيّة ، لأن الغرض الأصلىّ هو رياضةُ القلب وطهارة النفس ، وإنّما شرعت الرياضات البدنيّة ، والعبادات الجسمانية ، لتكون طريقا إلى تلك الرياضة الباطنة ، فإذا حصلت كان الاشتغال بالرّياضة البدنية عبثاً ؛ لأنّ الوسيلة بعد حصول المتوسَّل إليه فضلةٌ مستغنًى عنها ، بل ربّما كانت عائقة عن المقصود . نعم لا بد من المحافظة على الفرائض خاصّة ، لئلّا تعتاد النّفسُ الكسل ، وربما أفضى ذلك إلى خَلَلٍ فى الرياضة النفسانيّة ؛ ولهذا حُكى عن كثير من كُبراء القوم قلّة الاشتغال بنوافل العبادات .

وأما القسم الرابع ، وهو النفس التى خلت عن الوصْفَيْن معا ؛ فهذه النفس يجب ألا تكون رياضتها فى مبدأ الحال إلّا بتهذيب الأخلاق بما هو مذكور فى كُتب الحكمة الخلقية ، فإذا لانت ومرَنت واستعدّت للنفحاتِ الإلٰهيّة حصل لها ذوق ما ، فأوجب ذلك الذّوق شوقاً ، فأقبلت بكلّيتها على مطلوبها .

* * *

[فصل فى أنّ الجوع يؤثر فى صفاء النفس]

واعلم أنّ السبب الطبيعى فى كون الجوع مؤثرا فى صفاء النفس ، أنّ البلغم الغالبَ على مزاج البدن يوجب بطبعه البلادة ، وإبطاء الفَهم لكثرة الأرضيّة فيه ، وثقَلِ جوهره ، وكثرة مايتولّد عنه من البخارات التى تسدّ المجارى ، وتمنع نفوذ الأرواح ، ولا ريبَ أن الجوع يقتضى تقليل البلغم ، لأنّ القوّة الهاضمة إذا لم تجد غذاء تهضمه ، عمِلَتْ فى الرطوبة الغريبة الكائنة فى الجسد ، فكلّما انقطع الغذاء استمرّ عملها فى البلغم الموجود فى البدن ، فلا تزال تعمل فيه وتُذيبه الحرارة الكائنة فى البدن ، حتى يفنى كلُّ مافى البدن من الرطوبات الغريبة ، ولا يبقى إلّا الرطوبات الأصليّة ، فإن استمرّ انقطاع الغذاء أخذت الحرارة والقوّة الهاضمة فى تنقيص الرطوبات الأصليّة من جوهر البدن؛ فإن كان ذلك يسيراً وإلى حدّ ليس بمفرط ، لم يضرّ ذلك بالبدن كلّ الإضرار ، وكان ذلك هو غايةَ الرّياضة التى أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليها بقوله : « حتى دقّ جليلهُ ولطفُ غليظه » ، وإن أفرطَ وقع الحيف والإجحاف على الرطوبة الأصليّة ، وعطِبَ البدن ووقع صاحبه فى الدّقّ والذبول ، وذلك منهىٌّ عنه ؛ لأنّه قتل للنفس ، فهو كمن يقتل نفسه بالسّيف أو بالسّكين .

* * *

[كلام للفلاسفة والحكماء فى المكاشفات الناشئة عن الرياضة]

واعلم أن قوله عليه السلام : « وبرق له لامعٌ كثير البرق » ، هو حقيقة مذهبِ الحكماء ، وحقيقة قول الصوفيّة أصحاب الطريقة والحقيقة ؛ وقد صرّح به الرئيس أبو علىّ ابن سينا فى كتاب " الإشارات " فقال فى ذكر السالك إلى مرتبة العرفان : ثم إنّه

إذا بلغت به الإرادة والرياضة حدًّا ما عَنَّتْ له خُلسات من اطّلاع نور الحق إليه لذيذة كأنها بروقٌ تُومِض إليه ثم تخمد عنه ، وهى التى تسمّى عندهم أوقاتا ، وكلّ وقتٍ يكتنفه وجْدٌ إليه ، ووجد عليه . ثمّ إنه لتكثر عليه هذه الغواشى إذا أمعن فى الارتياض ، ثمّ إنه ليتوغّل فى ذلك حتى يغشاه فى غير الارتياض ، فكلما لَمح شيئاً عاج منه إلى جانب القدس ، فتذكّر من أمره أمراً فغشيَهُ غاشٍ ، فيكاد يرى الحقّ فى كلّ شىء ؛ ولعلّه إلى هذا الحدّ تستولى عليه غواشيه ، ويزول هو عن سكينته ، ويتنبّه جليسه لاستنفاره عن قراره ، فإذا طالت عليه الرّياضة لم تستنفره غاشية ؛ وهُدِىَ للتأنّس بما هو فيه. ثم إنه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة فيصير المخطوبُ مألوفا ، والوميض شهابا بيّنا ، ويحصل له معارف مستقرّة ؛ كأنها صحبة مستمرّة ؛ ويستمتع فيها ببهجته ، فإذا انقلب عنها انقلب حيران آسفا .

فهذه ألفاظ الحكيم أبى على بن سينا فى ’’ الإشارات ‘‘ ، وهى كما تراها مصرّح فيها بذكر البُرُوق اللامعة للعارف .

وقال القشيرىّ فى الرّسالة لما ذكر الحال والأمور الواردة على العارفين ، قال : هى بروق تلمع ثم تخمد ، وأنوار تبدو ثم تخفى ، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها ! ثم تمثّل بقول البحترى[1] :

خَطَرَتْ فِى النَّوْمِ مِنْهَا خطرةٌ خطرة البرق بـــدا ثم اضمحلْ
أىّ زَوْرٍ لك لو قَصْداً سَرَى ومـــلمّ بك لو حقـا فَعَلْ !

فهو كما تراه يذكر البروق اللامعة حَسْبما ذكره الحكيم ، وكلاهما يتّبع ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام، لأنه حكيم الحكماء، وعارف العارفين ، ومعلّم الصوفيّة ، ولولا أخلاقه

(١) ديوانه ٢ : ١٨١ .

وكلامه وتعليمهُ للناس هذا الفن تارةً بقوله ، وتارة بفعله ، لما اهتدى أحد من هذه الطائفة ، ولا عِلم كيف يُورد ، ولا كيف يصدِر .

وقال القشيرىّ أيضا فى الرسالة : المحاضرة قبل المكاشفة ؛ فإذا حصلت المكاشفة فبعدها المشاهدة .

وقال : وهى أرفع الدرجات . قال : فالمحاضرة حضُور القلب ، وقد تكون بتواتر البرهان ، والإنسان بعد وراء الستر ، وإن كان حاضرا باستيلاء سلطان الذكر .

وأما المكاشفة فهى حضور البيِّن غير مفتقر إلى تأمّل الدليل ، وتطلّب السبيل، ثمّ المشاهدة ، وهى وجود الحق من غير بقاء تُهمة .

وأحسن ما ذكر فى المشاهدة قول الجُنيد : هى وجود الحق مع فقدانك .

وقال عمرو بن عثمان المكىّ : المشاهدة أن تتوالى أنوار التجلِّى على القلب من غير أن يتخلّلها ستر ولا انقطاع ، كما لو قدّر اتّصال البروق فى الليلة المظلمة ؛ فكما أنها تصير من ذلك بضوء النهار ، فكذلك القلب إذا دام له التجلّى مع النهار فلا ليل .

وأنشدوا شعرا :

لَيْلى بوجهكَ مُشرقٌ   وظلامُهُ فى الناس سارِ
فالناس فى سَدَفِ الظّلا   م ونحن فى ضوء النهار

وقال النورىّ : لا تصحّ للعبد المشاهدة وقد بقى له عِرْق قائم .

وقالوا : إذا طلع الصباح ، استغنى عن المصباح .

وأنشدوا أيضا :

فلما استنار الصبْح طوّح ضوءه   بأنواره أنوارَ ضوء الكواكب

نجرّعهم كأسا لو ابتليتَ لفظى بتجريعه طارت كأسرع ذاهب

كأس وأى كأس ، تصطلمهم عنهم ، وتفنيهم وتخطفهم منهم ولا تبقيهم ، كأس لا تبقى ولا تذَر ، تمحو بالكلّية ، ولا تبقى شظية من آثار البشرية ، كما قال قائلهم :

* ساروا فلم يبق لا عينٌ ولا أثرُ [1]

وقال القُشيرىّ أيضا: هى ثلاث مراتب: اللوائح ، ثم اللوامع، ثم الطوالع . فاللوائح كالبروق ؛ ما ظهرت حتى استترت ، كما قال القائل :

فافترقنا حولا فلما التقينا كان تسليمهُ علىّ وداعا

وأنشدوا :

ياذا الذى زارَ وما زَارا كأنه مقتبِسٌ نارَا

مر ببآب الدار مستعجلاً ماضَرَّه لو دخل الدارا !

ثم اللوامع ، وهى أظهر من اللوائح ؛ وليس زوالها بتلك السرعة ؛ فقد تبقى وقتين وثلاثة ، ولكن كما قيل :

* العين باكيةٌ لم تُشبع النظرا *

أو كما قالوا :

وبلائى من مشهدٍ ومغيبٍ وحبيبٍ منّى بعيدٍ قريبٍ

لم تَرِدْ ماء وجهه العينُ حتّى شَرِقَتْ قبل ريّها برقيب

فأصحاب هذا المقام بين رَوْح وفَوْح ؛ لأنهم بين كشف وستر يلمع ثم يقطع ، لا يستقر لهم نور النهار ؛ حتى تكرّ عليه عساكر الليل ، فهم كما قيل :

والليلُ يشملُنا بفاضلِ بُرْدِهِ والصبح يلحفُنا رداء مذهبا

ثم الطوالع ؛ وهى أبقى وقتاً ، وأقوى سلطانا ، وأدوم مكثا ، وأذهب للظلمة ، وأنفى للتهمة [2] .

---

(١) الرسالة القشيرية ٤٣ .

(٢) الرسالة القشيرية ٤٣ ، ٤٤ .

أفلا ترى كلام القوم كلّه مشحون بالبروق واللمعان !

وكان مما نقم حامد بن العباس وزير المقتدر وعلىّ بن عيسى الجراح وزيره أيضاً على الحلاج أنهما وجدا فى كتبه لفظ « النور الشمشمانىّ » ، وذلك لجهالتهما مراد القوم واصطلاحهم ، ومَنْ جهل أمرا عاداه .

***

ثم قال عليه السلام : « وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة » ، أى لم يزل ينتقل من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه ، حتى وصل ، وتلك المقامات معروفة عند أهلها ، ومَنْ له أنس بها ، وسنذكرها فيما بعد .

ثم قال : « وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه فى قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه » ، أى كانت الراحة الكلّية والسعادة الأبدية مستثمرة من ذلك التعب الذى تحمّله لما استعمل قلبه ، وراض جوارحه ونفسه ، حتى وصل ، كما قيل :

عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى وَتَنْجَلِي عَنَّا غَيَابَاتُ الكَرَى[1]

وقال الشاعر :

تقولُ سُلَيْمَى لَوْ أقمتَ بأرْضنا وَلَمْ تدرِ أنّى للمقام أطوّفُ

وقال آخر :

ما ابيضّ وجهُ المرءِ فى طلب العُلَا حتّى يسوّدَ وجهُه فى البيدِ

وقال :

فاطلب هُدُوءًا بالتقلقل واستثر بالعِيسِ من تحت السّهاد هجودَا[2]

ما إن ترى الأحسابَ بيضاً وُضّحاً إلا بحيث ترى المنايا سودا

---

(١) مثل يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة ؛ وأول من قاله خالد بن الوليد فى أبيات ذكرها الميدانى عند الكلام على مضرب المثل ومورده : (٢ : ٢) .

(٢) لأبى تمام ، ديوانه ١ : ٤١٦ .

(٢١٥)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام يحث فيه أصحابه على الجهاد :

وَاللهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ ، وَمُوَرِّثُكُمْ أَمْرَهُ ، وَمُمْهِلُكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَحْدُودٍ لِتَتَنَازَعُوا سَبَقَهُ. فَشُدُّوا عُقَدَ الْمَآزِرِ ، وَاطْوُوا فُضُولَ الْخَوَاصِرِ ، لَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ . مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ ، لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ ! وَأَمْحَى الظُّلَمَ ، لِتَذَاكِيرِ الْهِمَمِ !

* * *

الشَّرْحُ :

مستأديكم شكره ، أى طالبٌ منكم أداء ذلك والقيام به ، استأديت دَيْنى عند فلان ، أى طلبته .

وقوله : «ومورّثكم أمره » ، أى سيرجع أمر الدولة إليكم ، ويزول أمر بنى أميّة.

ثم شبّه الآجال التى ضُرِبَتْ للمكلّفين ليقوموا فيها بالواجبات ، ويتسابقوا فيها إلى الخيرات ، بالمضْمار المحدود لخيل تتنازع فيه السبق .

ثم قال : « فشدّوا عُقَد المآزر » ، أى شمّروا عن ساق الاجتهاد . ويقال لمن يوصَى بالجدّ والتشمير : اشدد عُقْدة إزارك ، لأنّه إذا شدّها كان أبعد عن العثار ، وأسرع للمشى .

قوله : « واطووا فُضُول الخواصر » ، نهى عن كثرة الأكل ، لأنّ الكثير الأكل لا يطوى فضول خواصره لامتلائها ، والقليل الأكل يأكل فى بعضها ويطوى بعضها ، قال الشاعر :

كلُوا فى بعض بطنِكُمُ وعفُّوا فإن زمانكمْ زَمنٌ خميصُ

وقال أعشى باهلة :

طاوِى المَصيرِ على العزّاء مُنصلتٌ بالقوم ليلة لا ماء ولا شَجَر[1]

وقال الشنفَرى :

وأطوِى على الخُمص الحوايا كما انطوتْ خُيوطَة مارِىّ تُغار وتفتَل[2]

***

ثم أتى عليه السلام بثلاثة أمثال مخترعة له لم يسبق بها ، وإن كان قد سبق بمعناها ، وهى قوله : « لاتجتمع عزيمةووليمة » .وقوله : « ماأنقض النوم العزْم اليوم ! » . وقوله : « وأمحى الظلم لتذاكير الهم ! » .

فما جاء للمحدثين من ذلك ما كتبه بعض الكتاب إلى ولده :

خِدْمَةُ السّلطان والكا سات فى أيدى المِلاح
ليس يلتامان فاطلب رفعـةً أو شرب راح

ومثله قول آخر لولده :

ما للمطيعِ هواهُ من الملامِ ملاذُ
فاختر لنفسك هـذا مَجْدٌ ، وهـذا التِذاذُ

وقال آخر :

وَلَيْسَ فَتَى الفِتْيانِ مَنْ رَاحَ واغتدَى لشربِ صَبُوحٍ أو لشربِ غَبُوقِ
ولكن فتَى الفِتيان مَنْ راحَ واغتدَى لضرِّ عدوٍّ أو لنفعِ صديقِ

---

(١) الكامل للمبرد ٤ : ٦٥ ، قال فى شرحه : « طاوى المصير » يقال لواحد المصران مصير ، والعزاء : الأمر الشديد ، يقال : سيف منصلت وصلت ؛ إذا جرد من غمده .

(٢) من لاميته ؛ وهى فى نوادر القالى ٢٠٣ ـ ٢٠٧ .

وهذا كثير جدا يناسب قوله : « لا تجتمع عزيمة ووليمة » .

ومثل قوله : « ما أنقضَ النوم لعزائم اليوم » قولُ الشاعر :

فتًى لا ينامُ على عزمِه ومَن صمَّمَ العزم لم يرقدِ

وقوله : «وأمحى الظُّلَم لتذاكير الهمم» ، أى الظلم التى ينام فيها ، لا كلّ الظلم ، ألا ترى أنه إذا لم ينم فى الظلمة بل كان عنده من شدّة العزم وقوة التصميم مالا ينام معه ، فإنّ الظلمة لا تمحو تذاكير هممه . والتذاكير : جمع تَذْكار .

والمثلان الأوّلان أحسن من الثالث ، وكأن الثالث من تتمة الثانى .

وقد قالت العرب فى الجاهلية هذا المعنى ، وجاء فى القرآن العزيز : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1] .

وهذا مثل قوله : « لا تجتمع عزيمة ووليمة » ، أى لا يجتمع لكم دخول الجنة والدّعة ، والقعود عن مشقّة الحرب .

(١) سورة البقرة ٢١٤ .

(٢١٦)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام قاله بعد تلاوته : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .

يَالَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ ! وَزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ ! وَخَطَراً مَا أَفْظَعَهُ ! لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ ! أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ !

* * *

الشرح :

قد اختلف المفسرون فى تأويل هاتين الآيتين، فقال قوم : المعنى أنكم قطعتم أيام عمركم فى التكاثر بالأموال والأولاد ، حتى أتاكم الموت ، فكنّى عن حلول الموت بهم بزيارة المقابر .

وقال قوم : بل كانوا يتفاخرون بأنفسهم ، وتعدّى ذلك إلى أن تفاخروا بأسلافهم الأموات ، فقالوا : منا فلان وفلان ـ لقوم كانوا وانقرضوا .

وهذا هو التفسير الذى يدلّ عليه كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « ياله مراماً ! » ، منصوب على التمييز .

ما أبعده ! أى لا فخر فى ذلك، وطلب الفخر من هذا الباب بعيد ؛ وإنما الفخر بتقوى الله وطاعته .

وزورًا ما أغفله ! إشارة إلى القوم الذين افتخروا ؛ جعلهم بتذكّر الأموات السالفين كالزائرين لقبورهم . والزَّوْر : اسم للواحد والجمع ، كالخَصْم والضَّيْف . قال : ما أغفلهم عمّا يراد منهم ! لأنهم تركوا العبادة والطاعة ، وصرموا الأوقات بالمفاخرة بالموتى .

ثم قال : « وخطرًا ما أفظعه ! » إشارة إلى الموت أى : ما أشدّه . افظُع الشيء بالضم ، فهو فظيع ، أى شديد شنيع مجاوز للمقدار .

قوله : « لقد استخلَوْا منهم أىّ مدكر » ؛ قال الراونديّ : أى وجدوا موضع التذكّر خاليا من الفائدة ، وهذا غير صحيح ، وكيف يقول ذلك وقد قال : « وخطرا ما أفظعه ! » وهل يكون أمر أعظم تذكيرا من الاعتبار بالموتى ! والصحيح أنه أراد بـ « استخلَوْا » ذكر من خلا من آبائهم ؛ أى مَنْ مضى ، يقال : هذا الأمر من الأمور الخالية ، وهذا القرن من القرون الخالية ، أى الماضية .

واستخلى فلان فى حديثه ؛ أى حدّث عن أمور خالية ، والمعنى أنّه استعظم مايوجبه حديثهم عمّا خلا وعمّن خلا من أسلافهم وآثار أسلافهم من التذكير ، فقال : أىّ مدّكر[1] وواعظ فى ذلك ! وروى أىّ مذكَر بمعنى المصدر ، كالمعتقد بمعنى الاعتقاد ، والمعتبر بمعنى الاعتبار .

« وتناوشوهم من مكان بعيد » أى تناولوهم ، والمراد ذكروهم وتحدثوا عنهم ؛ فكأنهم تناولوهم ، وهذه اللفظة من ألفاظ القرآن العزيز : ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[2] ؛ وأنّى لهم تناولُ الإيمان حينئذ بعد فوات الأمر !

***

---

(١) ا : « تذكر » ، وما أثبته من ب .

(٢) سورة سبأ ٥٢ .

الأصْـلُ :

يَرْتَجِعُونَ[1] مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ . وَلَأَنْ يَكُونُوا عِبَرًا ، أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً ؛ وَلَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ ، أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ .

لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ .

وَلَوِ اسْتَنْطَقُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ ، لَقَالَتْ : ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضُلَّالاً ، وَذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَّالاً ، تَطَئُونَ فِي هَامِهِمْ، وَتَسْتَنْبِتُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ ، وَتَرْتَعُونَ فِيمَا لَفَظُوا ، وَتَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَّبُوا ؛ وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَنَوَائِحُ عَلَيْكُمْ .

أُولَئِكُمْ سَلَفُ غَايَتِكُمْ ، وَفُرَّاطُ مَنَاهِلِكُمْ ؛ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ ، وَحَلَبَاتُ الْفَخْرِ مُلُوكاً وَسُوَقاً .

* * *

الشَّـرْح :

« يرتجعون منهم أجسادا » ، أي يذكرون آباءهم ، فكأنهم ردّوهم إلى الدنيا ، وارتجعوهم من القبور . وخَوَتْ : خلت .

قال : وهؤلاء الموتى أحقّ بأن يكونوا عبرة وعظةً من أن يكونوا فخرا وشرفا ، والمفتخرون بهم أولى بالهبوط إلى جانب الذلّة منهم بالقيام مقام العزّ .

وتقول : هذا أحْجَى من فلان ، أي أوْلَى وأجدر . والجناب : الفِناء .

---

(١) ب : « يرتجعون » .

ثم قال : « لقد نظروا إليهم بأبصار العَشْوة » ، أى لم ينظروا النّظر المفضِيَ إلى الرؤية ؛ لأنّ أبصارَهم ذات عَشْوة ، وهو مرض فى العين ينقص به الإبصار ، وفى عين فلان عَشَاً وعَشْوة بمعنًى ، ومنه قيل لـكلِّ أمرٍ ملتبس يركبه الرّاكب على غير بيان أمر عَشْوة ، ومنه أوطأنى عُشْوة ، ويجوز بالضّم والفتح .

قال : « وضربوا بهم فى غَمْرة جهالة » ، أى وضربوا من ذكر هؤلاء الموتى فى بحر جهلٍ . والضرب هاهنا : استعارة ، أو يكون من الضّرب بمعنى السير ، كقوله تعالى : ﴿ وإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [١] ، أى خاضوا وسبحوا من ذكرهم فى غمرة جهالة ، وكلُّ هذا يرجع إلى معنى واحد ، وهو تسفيه رأى المفتخرين بالموتى ، والقاطعين الوقت بالتـكاثر بهم ؛ إعراضا عمّا يجب إنفاقه من العمر فى الطاعة والعبادة .

ثم قال : « لو سألوا عنهم ديارهم التى خلت منهم » ، ويمكن أن يريد بالديار والربوع القبور ، « لقالت ذهبوا فى الأرض ضُلّالا » ، أى هالـكين ، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [٢] .

وذهبتم فى أعقابهم ؛ أى بعدهم « جهالا » ؛ لغفلتـكم وغروركم .

قوله عليه السلام : « تطئون فى هامهم » ، أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعرّى؛ فقال:

خَفِّفِ الوطْءَ ما أظنّ أديمَ الـ ... أرضِ إلاَّ مِنْ هَذِهِ الأجْسَادِ [٣]

ربَّ لحدٍ قَدْ صار لحداً مِرَاراً ... ضَاحِكٍ من تزاحُمِ الأضْـدَادِ

---

(١) سورة النساء ١٠١ .

(٢) سورة السجدة ١٠ .

(٣) ديوانه ؛ سقط الزند ٩٧٤، ٩٧٥ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات وأديم الأرض: ظاهرها.

ودفــــين على بقـايا دفـــين ... مِنْ عهـود الآباء والأجــدادِ [١]

صاحِ هـــذِي قبورنا تملأُ الأرْ ... ضَ ، فأين القبورُ من عهد عادِ ! [٢]

سِرْ إن اسطعْت في الهـواء رُوَيْداً ... لا اختيــالاً عَلَى رُفَاتِ العبــادِ

قوله : « وتستنبتون في أجسادهم » ، أي تزرعون النَّبات في أجسادهم ، وذلك لأنَّ أديم الأرض الظاهر إذا كان من أبدان الموتى ، فالزَّرع لامحالة يكون نابتا في الأجزاء التُّرابية التي هي أبدان الحيوانات . وروى : « وتستثبتون » ، بالثاء ؛ أي وتنصبون الأشياء الثابتة كالعَمَد والأساطين للأوطان في أجساد الموتى .

ثم قال : « وترتعون فيما لفظوا » ، لفَظتُ الشيء بالفتح : رميتُــه من فمي ، ألفِظه بالكسر ، ويجوز أن يريد بذلك أنَّــكم تأكلون ماخلَّفوه وتركوه . ويجوز أن يريد أنَّــكم تأكلون الفواكه التي تنبت في أجزاء ترابيَّة خالطها الصديد الجاري من أفواههم .

ثم قال : « وتسكنون فيما خرّبوا » ، أي تسكنون في المساكن التي لم يعمروها بالذكر والعبادة ، فكأنَّهم أخربوها في المعنى ، ثم سكنتم أنتم فيها بعدهم . ويجوز أن يريد أنَّ كلَّ دار عامرة قد كانت من قبل خربة ، وإنَّما أخربها قوم بادوا وماتوا ، فإذن لاساكن منّا في عمارة إلّا ويصدق عليه أنه ساكن فيما قد كان خرابا من قبل ، والذين أخربوه الآن موتى . ويجوز أن يريد بقوله : « وتسكنون فيما خربوا » ؛ وتسكنون في دور فارقوها وأخلوْها ، فأطلقَ على الخلوّ والفراغ لفظ « الخراب » مجازا .

قوله : « وإنَّما الأيّام بينكم وبينهم بواكٍ ونوائحُ عليكم » ؛ يريد أنَّ الأيام والليالي تشيِّع رائحا إلى المقابر وتبكي وتنوح على الباقين الذين سيلتحقون به عن قريب .

---

(١) الديوان :

* في طويل الأزمانِ والآبادِ *

(٢) الديوان : « تملأُ الرحب » .

قوله : « أولئكم سلف غايتكم » ،السلف : المتقدمون . والغاية :الحدّ الذى ينتهى إليه . إمّا حسّيا أو معنويا ، والمراد هاهنا الموت .

والفَرَط : القوم يسبقون الحىّ إلى المنهل .

ومقاوم العزّ : دعائمه ، جمع مقوم ، وأصلها الخشبة التى يمسكها الحرّاث . وحلَبات الفخر : جمع حَلْبة ، وهى الخيل تجمع للسباق .

والسُّوَق ، بفتح الواو : جمع سُوقة ؛ وهو مَنْ دون الملِك .

***

الأصْلُ :

سَلَكُوا فِي بُطُونِ ٱلْبَرْزَخِ سَبِيلاً سُلِّطَتِ ٱلْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ ، وَشَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ ، فَأَصْبَحُوا فِي فَجَوَاتِ قُبُورِهِمْ جَمَاداً لَا يَنْمُونَ ، وَضِمَاراً لَا يُوجَدُونَ ؛ لَا يُفْزِعُهُمْ وُرُودُ ٱلْأَهْوَالِ ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ تَنَكُّرُ ٱلْأَحْوَالِ ، وَلَا يَحْفِلُونَ بِالرَّوَاجِفِ ، وَلَا يَأْذَنُونَ لِلْقَوَاصِفِ . غُيَّباً لَا يُنْتَظَرُونَ ، وَشُهُوداً لَا يَحْضُرُونَ ، وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً فَتَشَتَّتُوا ، وَآلَافاً فَافْتَرَقُوا .

وَمَا عَنْ طُولِ عَهْدِهِمْ ، وَلَا بُعْدِ مَحَلِّهِمْ ، عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ ، وَصَمَّتْ دِيَارُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ سُقُوا كَأْساً بَدَّلَتْهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَساً ، وَبِالسَّمْعِ صَمَماً ، وَبِالْحَرَكَاتِ سُكُوناً ، فَكَأَنَّهُمْ فِي ٱرْتِجَالِ الصِّفَةِ صَرْعَى سُبَاتٍ .

جِيرَانٌ لَا يَتَأَنَّسُونَ ، وَأَحِبَّاءُ لَا يَتَزَاوَرُونَ . بَلِيَتْ[1] بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ ، وَٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ ٱلْإِخَاءِ ؛ فَكُلُّهُمْ وَحِيدٌ وَهُمْ جَمِيعٌ ، وَبِجَانِبِ ٱلْهَجْرِ وَهُمْ أَخِلَّاءُ .

لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَيْلٍ صَبَاحاً ، وَلَا لِنَهَارٍ مَسَاءً . أَيُّ ٱلْجَدِيدَيْنِ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ

---

(١) كذا فى ا ، فى ب : « وبليت » .

عَلَيهِمْ سَرْمَداً ، شَاهَدُوا مِنْ أَخطَارِ دَارِهِمْ أَفظَعَ مِمَّا خَافُوا ، وَرَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا ، فَكِلَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ .

فَلَوْ كَانُوا يَنطِقُونَ بِهَا لَعَيُّوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَمَا عَايَنُوا . وَلَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ ، لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعِبَرِ ، وَسَمِعَتْ عَنْهُمْ آذَانُ الْعُقُولِ ، وَتَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ ، فَقَالُوا : كَلَحَتِ الْوُجُوهُ النَّوَاضِرُ ، وَخَوَتِ الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمُ ، وَلَبِسْنَا أَهْدَامَ الْبِلَى ، وَتَكَاءَدَنَا ضِيقُ الْمَضْجَعِ ، وَتَوَارَثْنَا الْوَحْشَةَ ، وَتَهَدَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوتُ ، فَانْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُوَرِنَا ، وَطَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا ، وَلَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجاً ، وَلَا مِنْ ضِيقٍ مُتَّسَعاً .

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ ، أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ ، وَقَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ ، وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ ، وَتَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَاقَتِهَا ، وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا ، وَعَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَّجَهَا ، وَسَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا . مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ ، وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ — لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ ، وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ ، لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ ، وَغَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي .

فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ ، وَأَنِيقِ لَوْنٍ ؛ كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ وَرَبِيبَ شَرَفٍ ! يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ ، وَيَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ ؛ ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ ، وَشَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ ! فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ ؛ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ ؛ إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ ، وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ ؛ فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَعْرِفُهُ ، وَنَجِيُّ هَمٍّ

ما كانَ يَجِدُهُ ، وَتَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ ، آنَسَ ما كانَ بِصِحَّتِهِ . فَفَزِعَ إِلَى ما كانَ عَوَّدَهُ الأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الحَارِّ بِالقَارِّ ، وَتَحْرِيكِ البَارِدِ بِالحَارِّ ، فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً ، وَلَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً ، وَلَا اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ ؛ حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ ، وَذَهَلَ مُمَرِّضُهُ ، وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ ، وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ ، وَتَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ ؛ فَقَائِلٌ : هُوَ لِمَا بِهِ ؛ وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ ، وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ ، يُذَكِّرُهُمْ أُسَى الماضِينَ مِنْ قَبْلِهِ .

فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا ؛ وَتَرْكِ الأَحِبَّةِ ؛ إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ ، فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ ، وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ .

فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ ! وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ ! مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ ، أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ .

وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ ، أَو تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا .

***

الشَّرْحُ :

هذا موضع المثل : « مَلْمَاً(١) بِالظُّلِيمِ وإلّا فالتَّخْوِيَةُ » ، مَنْ أراد أن يعظَ ويخوّف ، ويقرع صَفَاةَ القلب ، ويعرّف الناس قدر الدنيا وتصرّفها بأهلها ، فليأتِ بمثل هذه الموعظة فى مثل هذا الكلام الفصيح وإلّا فليمسك ، فإنّ السكوت أستر ، والعيّ خير من منطق يفضح صاحبه . وَمَنْ تأمّل هذا الفصل ، علم صدق معاوية فى قوله فيه : « والله ما سنّ

---

(١) الملع : السير السريع ، ويقال : خوّى الطائر ؛ إذا أرسل جناحيه .

الفصاحة لقريش غيره ؟ . وينبغى لو اجتمع فصحاء العرب قاطبةً فى مجلس،وتُلىَ عليهم أن يسجدوا له كما سجد الشعراء لقول عدىّ بن الرّقاع :

* قلم أصابَ من الدّواة مِدَادها (١) *

فلما قيل لهم فى ذلك ، قالوا : إنا نعرف مواضع السجود فى الشعر ؛ كما تعرفون مواضع السجود فى القرآن .

وإنى لأطيل التعجّب من رجل يخطب فى الحرْب بكلام يدلّ على أن طبعه مناسب لطباع الأُسُود والنمور وأمثالها من السباع الضارية ، ثم يخطب فى ذلك الموقف بعينه ، إذا أراد الموعظة بكلام يدلّ على أنّ طبعه مشاكل لطباع الرّهبان لابسى المُسوح الذين لم يأكلوا لحما ، ولم يريقوا دما ؛ فتارة يكون فى صورة بِسْطام بن قيس الشيبانىّ وعُتَيبة ابن الحارث اليربوعىّ ، وعامر بن الطّفيل العامرىّ ، وتارة يكون فى صورة سُقراط الحَبْر اليونانىّ ، ويوحَنّا المعمَدَان الإسرائيلىّ ، والمسيح بن مريم الإلٰهىّ .

وأقسم بمن تُقسِم الأمم كلّها به ؛ لقد قرأتُ هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة ، ما قرأتها قط إلّا وأحدثتْ عندى روعة وخوفاً وعظة ، وأثّرتْ فى قلبى وجيباً ، وفى أعضائى رِعْدة ، ولا تأملتُها إلّا وذكرت الموتى من أهلى وأقاربى ، وأرباب ودّى ، وخيّلت فى نفسى أنى أنا ذلك الشخص الذى وصف عليه السلام حالَه .

وكم قد قال الواعظون والخطباء والفصحاء فى هـذا المعنى ! وكم وقفت على ماقالوه وتكرّر وقوفى عليه ! فلم أجد لشىء منه مثل تأثير هذا الكلام فى نفسى ؛ فإمّا أن يكون ذلك لعقيدتى فى قائله ، أو كانت نية القائل صالحة ، ويقينه كان ثابتا ، وإخلاصه كان محضاً

---

(١) صدره :

* تُزْجِى أغَنّ كأن إبرة روقه *

خالصا ، فكان تأثير قوله فى النفوس أعظم ، وسريان موعظته فى القلوب أبلغ .

* * *

ثم نعود إلى تفسير الفصل :

فالبرزخ : الحاجز بين الشيئين ، والبرزخ مابين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث ، فيجوز أن يكون البرزخ فى هذا الموضع القبر ،لأنه حاجز بين الميّت وبين أهل الدنيا ، كالحائط المبنىّ بين اثنين ، فإنّه برزخ بينهما ، ويجوز أن يريد به الوقت الذى بين حال الموت إلى حال النّشور ، والأول أقرب إلى مراده عليه السلام ،لأنه قال : «فى بطون البرزخ »ولفظة«البطون»تدلّ على التفسير الأولّ .ولفظتا«أكلت الأرض من لحومهم وشربت من دمائهم » مستعارتان.

والفَجَوات : جمع فَجْوة وهى الفُرجة المتّسعة بين الشيئين ، قال سبحانه:﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ [1] ؛ وقد تفاجَى الشىء؛ إذا صارت له فجوة .

وجمادا لاينمون ، أى خرجوا عن صورة الحيوانية إلى صورة الجماد الذى لا ينمِى ولا يزيد . ويروى : « لاينِمّون » بتشديد الميم ، من النّميمة وهى الهمس والحركة ، ومنه قولهم : أسكت الله نامّته ، فى قول من شدّد ولم يهمز .

وضِمارا ، يقال لكلّ مالا يرجى من الدّيْن والوعد ، وكلّ مالا تكون منه على ثقة : ضِمار .

ثم ذكر أنّ الأهوال الحادثة فى الدنيا لاتُفزِعهم ، وأنّ تنكّر الأحوال بهم وبأهل الدنيا لايحزنهم . ويروى « تُحْزِنهم » على أنّ الماضى رباعىّ .

ومثله قوله : « لايحفِلون بالرواجف » أى لايكترثون بالزلازل .

---

(١) سورة الكهف ١٧ .

قوله : « ولا يأذنون للقواصف » أى لا يسمعون الأصوات الشديدة، أذنت لـكذا، أى سمعته .

وجمع الغائب غُيَّب وغَيَب ، وكلاهما مروى هاهنا، وأراد أنهم شهود فى الصورة، وغير حاضرين فى المعنى .

والآلاف ، على فُعّال: جمع آلف ؛ كالطُّرّاق جمع طارق ، والسُّمّار : جمع سامر، والـكُفّار جمع كافر .

* * *

ثم ذكر أنه لم تَنَمَّ أخبارهم ، أى لم تستبهم أخبارهم وتنقطع عن بعد عهد بهم ، ولا عن بعد منزل لهم ،وإنما سُقوا كأسَ المنون التى أخرستهم بعد النطق ، وأصَمَّتْهُمْ بعد السمع ، وأسكنتهم بعد الحركة .

وقوله : « وبالسَّمع صمما » ، أى لم يسمعوا فيها نداء المنادى ، ولا نوح النائح ، أو لم يسمع فى قبورهم صوت منهم .

قوله : « فـكأنهم فى ارتجال الصّفة »، أى إذا وصفهم الواصف مرتجلا غير متروٍّ فى الصفة ، ولا متهيئ للقول .

قال: « كأنهم صرعى سُبات » ؛ وهو نوم؛ لأنّه لا فرق فى الصورة بين الميِّت حال موته والنائم المسبوت .

* * *

ثم وصفهم بأنّهم جيران إلّا أنهم لا مؤانسة بينهم كجيران الدنيا ، وأنّهم أحبّاء إلا أنهم لا يتزاورون كالأحباب من أهل الدنيا .

وقوله « أحبّاء » جمع حبيب، كخليل وأخلاء ، وصديق وأصدقاء .

ثم ذكر أنّ عُرا التعارف قد بليَتْ منهم وانقطعت بينهم أسباب الإخاء؛ وهذه كلها استعارات لطيفة مستحسنة .

ثم وصفهم بصفة أخرى ، فقال : كلٌّ واحدٍ منهم موصوف بالوحْدة ؛ وهم مع ذلك مجتمعون ، بخلاف الأحياء الذين إذا انضمّ بعضهم إلى بعض انتفى عنه وصف الوحدة .

ثم قال : « وبجانب الهجر وهم أخلّاء » أى وكلٌّ منهم فى جانب الهجر وهم مع ذلك أهل خُلّة ومودة ، أى كانوا كذلك . وهذا كله من باب الصناعة المعنوية ، والمجاز الرشيق.

ثم قال : إنّهم لا يعرفون للنهار ليلا ولا لليل نهارا ، وذلك لأنّ الواحد من البَشَر إذا مات نهارا لم يعرف لذلك النهار ليلا أبدا ، وإن مات ليلا لم يعرف لذلك الليل صباحا أبدا . وقال الشاعر :

لا بد من يومٍ بلا ليلةٍ أو ليلة تأتى بلا يومِ

وليس المراد بقوله : « أىّ الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا » أنهم وهم موتى يشعرون بالوقت الذى ماتوا فيه ولا يشعرون بما يتعقّبه من الأوقات ، بل المراد أن صورةَ ذلك الوقت لو بقيتْ عندهمْ لبقيت أبداً من غير أن يزيلها وقتٌ آخر يطرأ عليها . ويجوز أن يفسر على مذهب من قال ببقاء الأنفس ، فيقال : إن النفس التى تفارق ليلا تبقى الصورة الليلية والظلمة حاصلة عندها أبدا لا تزول بطرآنِ نهار عليها ، لأنها قد فارقت الحواس ، فلا سبيل لها إلى أن يرتسم فيها شىء من المحسوسات بعد المفارقة ، وإنّما حصل ما حصل من غير زيادة عليه ، وكذلك الأنفس التى تفارق نهارا .

***

[بعض الأشعار والحكايات فى وصف القبور والموتى]

واعلم أنّ الناس قد قالوا فى حال الموتى فأكثروا ؛ فمن ذلك قول الرضىّ أبى الحسن رحمه الله تعالى :

أعززْ عَلَيّ بأنْ نَزَلْت بمنزلٍ ... متشابهِ الأمجادِ بالأوْغادِ ! [١]

فى عصبة جُنِبُوا إلى آجالهم ... والدّهر يعجلهم عن الإزْوَادِ

ضربوا بمدرجة الفناء قبابَهمْ ... من غير أطنـــاب ولا أعمادِ

ركبٌ أناخوا لا يُرَجَّى منهمُ ... قَصْدٌ لإتهام ولا إنجـــادِ

كَرِهُوا النُّزول فأنزلتهم وقعةٌ ... للدهر باركة بكلّ مفادِ

فتهافتُوا عن رَحْل كل مذلّلٍ [٢] ... وتطاوحُوا عن سرج كلّ جواد

بادون فى صُوَرِ الجميع وإنّهم ... متفرّدون تفرُّدَ الآحاد

قوله : « بادون فى صور الجميع » مأخوذ من قول أمير المؤمنين عليه السلام :
« فكلهم وحيد وهم جميع » .

وقال أيضا :

ولقد حفظت له فأين حِفَاظُه ... ولقد وفيتُ له فأين وفاؤه؟ [٣]

أوَعَى الدعاء فلم يجبه قطيعةً ... أم ضَلّ عنه من البعاد دعاؤهُ

هيهات أصبح سمعُه وعيانه ... فى الترب قد حجبتْهما أقذاؤهُ

يمسى ولينُ مهادِه حصباؤه ... فيه ، ومؤنسُ ليله ظلماؤهُ

قد قُلِّبَتْ أعيانُه وتنكّرَتْ ... أعلامُه ، وتكسّفتْ أضواؤهُ

---

(١) من مرثيته لأبى إسحاق الصابى ، ومطلعها :

أعلمتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الأعوادِ ... أرأيتَ كيفَ خبا ضياء النّادِي

ديوانه لوحة ١٢٩ .

(٢) الديوان : « عن ظهر كل مذلل » .

(٣) ديوانه لوحة ١١٦ ، من مرثية لبعض أصدقائه .

مُنفٍ وليس للذِّكرِ إغفاؤه ، مغضٍ وليس لفكرةٍ إغضاؤهُ
وجهٌ كلمع البرق غاض وميضُه قلبٌ كصدر العَضب فُلّ مَضاؤهُ
حَكَمَ البلى فيـه فلو تلقى به أعيداءه لرثى له أعداؤهُ

وقال أبو العلاء :

أستغفر الله ما عندي لكم خبرٌ وما خطابيَ إلّا معشرا قُبِروا
أصبحتمُ في البلى غُبْراً ملابسكمْ من الهَباء ، فأين البُرْدُ والقِطر (١)
كنتم على كلّ خطب فادحٍ صبُراً فهل شعرتم؟وقد جادتكم الصَّبَرا (٢)
وما درى يوم أُحْدٍ بالذين ثَوَوْا فيه ، ولا يوم بدر أنّهم نُصِروا

وقال أبو عارم الكلابيّ :

أجازعــــةٌ رُدَيْنَةُ أنْ أتاها نعيّي أمْ يكون لهـا اصطبارُ !
إذا ما أهــلُ قبري ودّعوني وراحــوا والأكُفّ بهـا غُبارُ
وغودر أعظمِي في لحـدِ قبرٍ تراوحه الجنــائب والقِطارُ
تهبّ الريح فوق محطّ قــبري ويرعى حوله اللّهق النوار (٣)
مقيم لا يكلّمهُ صــديقٌ بقـــبر ، لا أزور ولا أزار
فذاك النأي لا الهجران حَوْلاً وحولا ثم تجتمع الدّيار !

مرّ الإسكندر بمدينة قد ملكها سبعة أملاك من بيت واحد وبادوا ، فسأل : هل بقيَ من نسلهم أحد ؟ قالوا : بقي واحد ، وهو يلزم المقابر ، فدعا به فسأله : لِمَ تلزم المقابر؟ قال : أردت أن أميزّ عظام الملوك من عظام عبيدهم ، فوجدتها سواء ، قال : هل لك أن تلزمني حتى أنيلك بغيتك ؟ قال : لو علمتُ أنك تقدر على ذلك لزمتك . قال : وما بغيتك؟

(١) القطر : من البرود .
(٢) الصبر : السحابة البيضاء .
(٣) اللهق : الثور الأبيض ، والنوار : النافر .

قال : حياة لا موت معها ، قال : لن أقـــدرَ على ذلك ، قال : فدعني أطلبه ممن يقدر عليه .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله : « ما رأيت منظرا إلّا والقبر أفظع منه » .

وقال صلّى الله عليه وآله : « القبر أوّل منزلٍ من منازل الآخرة ، فمن نجا منه فما بعده أيسر ، ومن لم ينج فما بعده شرٌّ له » .

مرّ عبد الله بن عمر رضى الله عنه بمقبرةٍ فصلّى فيها ركعتين ، وقال : ذكرت أهل القبور وأنّه حيل بينهم وبين هذا ، فأحببت أنْ أتقرّب بهما إلى الله .

***

فإن قلت : ما معنى قوله عليه السلام « وبجانب الهجر » ؟ وأى فائدة فى لفظة « جانب » فى هذا الموضع ؟

قلت : لأنّهم يقولون : فلان في جانب الهجر ، وفى جانب القطيعة ، ولا يقولون : « فى جانب الوصل » ، وفى « جانب المصافاة » ، وذلك أنّ لفظة « جنب » فى الأصل موضوعة للمباعدة ، ومنه قولهم : « الجار الجُنُب » ، وهو جارك من قوم غرباء . يقال : جنبت الرجل ، وأجنبته ، وتجنّبته ، وتجانبته ، كلّه بمعنًى ، ورجل أجنبيّ ، وأجنب ، وجُنُب ، وجانب ، كلّه بمعنى .

قوله عليه السلام : « شاهدوا من أخطار دارهم » ، المعنى أنه شاهد المتقون من آثار الرحمة وأماراتها ، وشاهد المجرمون من آثار النقمة وأماراتها عند الموت ، والحصول فى القبر أعظم مما كانوا يسمعون ويظنّون أيّام كونهم فى الدنيا .

ثم قال : « فكلا الغايتين مدّت لهم » ، المعنى مدّت الغايتان : غاية الشقىّ منهم وغاية السعيد .

إلى مباءة ، أى إلى منزل يعظم حاله عن أن يبلغه خوف خائف ،أورجاء راج؛وتلك المباءة هى النّار أو الجنة . وتقول : قد استباء الرجل أى اتّخذ مباءة،وأبأت الإبل:رددتّها إلى مباءتها ؛ وهى معاطنها .

ثم قال : « فلو كانوا ينطقون بها لعيُّوا » ، بتشديد الياء ، قال الشاعر :

عَيُّوا بأمرِهِمُ كَمَا عَيَّتْ ببيضتِها الْحَمَامَهْ
جَعَلَتْ لها عودينِ مِنْ نَشَمٍ وآخر من ثُمَامَـــهْ

وروى « لَعَيُوا » بالتخفيف ، كما تقول : « حَيُوا » قالوا : ذهبت الياء الثانية لالتقاء السا كنين لأنّ الواو سا كنة ، وضمّت الياء الأولى لأجل الواو ، قال الشاعر :

وَكُنّا حَسِبْنَاهم فَوَارسَ كَهْمَسٍ حَيُوا بعدماماتوا من الدهر أعصرا

قوله : « لقد رَجَعَتْ فيهم »يقال :رجع البصر نفسُه ، ورجعه زيدبصره ؛يتعدىّ ولا يتعدى ، يقول : تــكلّموامعنى لاصورة ،فأدركت حالهم بالأبصار والأسماع العقلية لا الحسّية . وكَلَحت الوجوه كلُوحا وكُلاحا ، وهو تــكشّر فى عُبوس .

والنواضِر : النواعم ، والنّضرة : الحسن والرونق .

وخوت الأجساد النواعم : خلت من دمها ورطوبتها وحشوتها . ويجوز أن يكون خوتْ أى سقطت . قال تعالى : ﴿ فهِيَ خَاوِيةٌ عَلَى عُرُوشها ﴾ [1] ، والأهــدام : جمع هِدْم ، وهو الثوب البالى ، قال أوس .

وَذَاتِ هِــدْمٍ عارٍ نواشِرُها تُصْمِت بالماء تَوْلَباً جَـدَعا [2]

---

(١) سورة الحج ٤٥ .
(٢) ديوانه ٥٥ النواشر : عصب الذراع ، الواحد ناشرة ؛ وبها سمى الرجل ، وأراد بالتولب طفلها اولجذع : السيء الغذاء ؛ تصمته بالماء لأنه ليس لها لبن من شدة الضر .

وتكاءدَنا : شقّ علينا ، ومنه : عقبة كؤود . ويجوز تكّادنا، جاءت هذه الكلمة في أخوات لها « تفعّل وتفاعَل » بمعنًى ، ومثله تعهّد الضّيعة ، وتعاهدها .

ويقال : قوله : « وتوارثَنا الوحشة » . كأنّه لمّا مات الأب فاستوحش أهله منه ، ثم مات الابن فاستوحش منه أهله أيضا ، صار كأنّ الابن ورث تلك الوحشة من أبيه كما تُورث الأموال ، وهذا من باب الاستعارة .

قوله : « وتهدّمت علينا الربوع » ، يقال : تهدّم فلان على فلان غضبا ؛ إذا اشتدّ غضبه ،ويجوز أن يكون تهدّمت أي تساقطت. وروى«وتهكت» بالكاف،وهو كقولك: « تهدمت» بالتفسير بن جميعا ، ويعني بالرّبوع الصّمُوت، القبور ، وجعلها صُموتاً لأنّه لا نطق فيها ، كما تقول : ليل قائم ونهار صائم ، أي يقام ويصام فيهما ، وهذا كلّه على طريق المزّ والتحريك وإخراج الكلام في معرِض غير المعرِض المعهود ،جعلهم لو كانوا ناطقين مخبرين عن أنفسهم [لأتوْا] بما وصفه من أحوالهم . وورد في الحديث أنّ عمر حضر جنازة رجل ، فلما دفن قال لأصحابه : قفوا ، ثم ضرب فأمعن في القبور ، واستبطأه الناس جدا ثم رجع وقد احمرّت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، فقيل : أبطأت ياأمير المؤمنين ، فما الذي حبسك ؟ قال : أتيت قبورَ الأحبّة ، فسلّمتُ فلم يردّوا عليّ السلام،فلما ذهبت أقفّي ناداني التراب ، فقال : ألا تسألني ياعمر مافعلتُ باليدين ؟ قلت : مافعلتَ بهما ؟ قال :قطعتُ الكفّين من الرُّسغين ، وقطعت الرّسغين من الذراعين ، وقطعت الذراعين من المرفقين، وقطعت المرفقين من العضُدين ، وقطعت العضُدين من المنكبين ، وقطعت المنكبين من الكتفين، فلمّا ذهبت أقفّي ناداني التراب ، فقال: ألا تسألني ياعمر مافعلتُ بالأبدان والرجلين؟ قلت : مافعلتَ ؟ قال : قطعت الكتفين من الجنبين ،وقطعت الجنبين من الصّلب ،وقطعت الصلب من الورِكين ، وقطعت الورِكين من الفخذين ، وقطعت الفخِذين من الرّكبتين،

وقطعت الركبتين من الساقين ، وقطعت الساقين من القدمين ، فلمّا ذهبت أفقي ناداني التراب ، فقال : ياعمر ، عليك بأكفان لاتبلَى ؟ فقلت : وما أكفانٌ لاتبلى ، قال : تقوى الله ، والعمل بطاعته . وهـذا من الباب الذى نحن بصدده ، نسب الأقوال المذكورة إلى التراب وهو جماد ، ولم يكن ذلك ، ولـكنّه اعتبر فانقدَحَتْ فى نفسه هذه المواعظ الحكمية ، فأفرغها فى قالب الحكاية ، ورتّبها على قانون المسألة والإجابة ، وأضافها إلى جماد موات ، لأنّه أهزُّ لسامعها إلى تدبّرها ، ولو قال : نظرت فاعتبرت فى حال الموتى ، فوجدت التراب قد قطع كذا من كذا لم تبلغ عظته المبلغ الذى بلغتْه حيث أودعها فى الصورة التى اخترعها .

* * *

قوله عليه السلام : « فلو مثّلتَهم بعقلك ، أو كشف عنهم محجوبُ الغطاء لك » إلى آخر جواب « لو » . هذا الكلام أخذه ابن نُباتة بعينه فقال : فلو كشفتم عنهم أغطيةَ الأجداث ، بعد ليلتين أو ثلاث ، لو جدتم الأحداق على الخدود سائلة ، والألوانَ من ضيق اللُّحود حائلة ، وهوامّ الأرض فى نواعم الأبدان جائلة ، والرءوس الموسّدة على الأيمان زائلة ، ينكِرُها مَنْ كان لها عارفا ، ويفرّ عنها مَنْ لم يزل لها آلفا .

قوله عليه السلام : « ارتسخت أسماعهم » ليس معناه ثبتتْ كما زعمه الراوندىّ ، لأنّها لم تثبت ، وإنما ثبتت الهوامّ فيها ، بل الصحيح أنّه من رسخ الغدير إذا نشّ ماؤه ونضب ، ويقال : قد ارتسخت الأرض بالمطر إذا ابتلعته حتى يلتقى الثّريان .

واستكّت ، أى ضاقت وانسدّت ، قال النابغة :

وُنَبِّئتُ خيرَ الناسِ أنّكَ لُمتَنِي وتلكَ التى تَستَكّ منها المسامعُ[1]

* * *

(١) ب « فيها » ، والبيت فى ديوانه ٥٣ ، وروايته :

* أتاني أبيتَ اللّعنَ أنكَ لُمتَنِي *

قوله : « وا كتحلتْ أبصارهم بالتراب فخسفت » ، أى غارت وذهبت فى الرأس .

وأخذ المتنبىّ قوله : « وا كتحلت أبصارهم بالتراب » ، فقال :

يُدَفِّنُ بعضُنا بعضاً ويَمْشِي أواخِرُنا على هَامِ الأوالِي [1]

وكَمْ عينٍ مقبّلةِ النّواحِي كَحيلٍ بالجنادلِ والرِّمالِ !

ومغضٍ كان لا يغضى لخطْبٍ وبال كان يُفكِّرُ فى الهزالِ

وذَلاقة الألسن : حِدّتُها ، ذَلِق اللسان والسِّنان يذلَق ذَلَقاً ، أى ذرِبَ ؛ فهو ذلِق ، وأذلق .

وهَمَدت ، بالفتح : سكنتْ وخمدتْ . وعاث : أفسد . وقوله : « جديد بلًى »، من فنّ البديع ، لأنّ الجِدّة ضدّ البلى ؛ وقد أخذ الشاعر هذه اللفظة فقال :

يادارُ غادَرنى جديدُ بلاكِ رَثّ الجديدُ فهل رثيت لذاكِ !

وسَمِجها : قبّح صورتها ، وقد سَمُج الشىء بالضمّ فهو سَمْج ، بالسكون ، مثل ضَخم فهو ضخم ، ويجوز : فهو سَمِج ، بالكسر ، مثل خَشُن فهو خشِن .

قوله : « وسهّلَ طرق الآفة إليها » ؛ وذلك أنّه إذا استولى العنصر الترابىّ على الأعضاء ، قوى استعدادها ، للاستحالة من صورتها الأولى إلى غيرها .

ومستسلمات ، أى منقادة طائعة غير عاصية ؛ فليس لها أيدٍ تدفع عنها ، ولا لها قلوب تجزع وتحزن لما نزل بها .

والأشجان : جمع شَجَن ، وهو الحزن .

والأقذاء : جمع قَذًى ، وهو مايسقط فى العين فيؤذيها .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٨ . والأوالى : الأوائل ، ولكنه قلب .

قوله : « صفة حال لاتنتقل » ، أى لاتنتقل إلى حسن وصلاح،وليس يريد: لاتنتقل مطلقا ، لأنها تنتقل إلى فساد واضمحلال .

ورجل عزيز ، أى حدث ، وعزيز الجسد ، أى طرىّ ، وأنيق اللون: معجب اللون.

وغَذِيُّ ترَف : قد غُذِى بالترف ، وهو التنعّم المطغِى.

وربيبُ شَرَف ، أى قد رُبِّىَ فى الشرف والعزّ . ويقال : ربّ فلان ولدَه يرُبّه ربًّا، وربّاه يربّيه تربيةً .

ويتعلّل بالسرور : يتلهّى به عن غيره . ويفزع إلى السّلْوة : يلتجىء إليها. وضَنًّا،أى بخلا . وغضارة العيش : نعيمه ولينه .

وشحاحة ، أى بخلا ، شحِحْتُ بالكسر أشِحّ . وشحَحْتُ أيضا بالفتح ، أشُح وأشِحُّ ؛ بالضم والكسر ، شُحًّا وشَحاحةً . ورجل شحيح وشَحّاح بالفتح . وقوم شِحاحٌ وأشِحّة .

ويضحك إلى الدنيا وتضحكُ إليه ؛ كناية عن الفرَح بالعمر والعيشة ، وكذا كلّ واحدٍ منهما يضحك إلى صاحبه لشدّة الصفاء ، كأنّ الدّنيا تحبّه وهو يحبّها .

وعيش غَفول : قد غفل عن صاحبه ، فهو مستغرق فى العيش لم ينتبه له الدّهر ، فيكدّر عليه وقته ، قال الشاعر :

وكان المرء فى غفلاتِ عيشٍ كأنّ الدّهْرَ عَنْها فى وَثاق

وقال آخر :

ألا إنّ أحْلَى العيش ماسَمَحَتْ به صروفُ اللّيالى ،والحوادثُ نُوَّمُ

قوله : « إذ وَطِئَ الدهر به حَسَكه » ، أى إذ أوطأه الدهر حَسَكه . والهاء فى « حَسَكه » ترجع إلى الدّهر ، عدّى الفعل بحرف الجرّ ، كما تقول : قام زيد بعمرو ، أى أقامه .

وقُواه : جمع قوّة وهى المِرّة من مرائر الحبل . وهذا الكلام استعارة .

ومن كَثَبٍ : من قرب . والبث : الحزن . والبثّ أيضا : الأمر الباطن الدخيل .

ونجىّ الهمّ : ما يناجيك ويسارّك . والفَتَرات : أوائل المرض .

وآنس ما كان بصحته ، منصوب على الحال . وقال الراوندىّ فى الشرح : هذا من باب : « أخطب ما يكون الأمير قائما » . ثم ذكر أن العامل فى الحال « فترات » ، قال : تقديره : « فترات آنس ما كان » . وما ذكره الراوندىّ فاسد ، فإنّه ليس هذا من باب : « أخطب ما يكون الأمير قائما » ، لأنّ ذلك حال سدّ مسدّ خبر المبتدأ ، وليس هاهنا مبتدأ . وأيضا فليس العامل فى الحال « فترات » ولا « فتر » ، بل العامل : « تولّدت » . والقارّ : البارد .

فإن قلت : لم قال : « تسكين الحار بالقارّ ، وتحريك البارد بالحار » ؟ ولأىّ معنى جعل الأول التسكين والثانى التحريك ؟ قلت : لأنّ من شأن الحرارة التهييج والتثوير ، فاستعمل فى قهرها بالبارد لفظة « التسكين » ، ومن شأن البرودة التخدير والتجميد ، فاستعمل فى قهرها بالحارّ لفظة « التحريك » .

قوله : « ولا اعتدل بممازج لتلك الطبائع إلّا أمدّ منها كل ذات داء » ، أى ولا استعمل دواء مفردا معتدل المزاج أو مركبا كذلك إلا وأمدّ كل طبيعة منها ذات مرض بمرض زائد على الأول .

وينبغى أن يكون قوله : « ولا اعتدل بمُمازج » ، أى ولا رام الاعتدال لممتزج ، لأنه لو حصل له الاعتدال لكانَ قد بَرِئَ من مرضه ، فسمّى محاولة الاعتدال اعتدالا ، لأنه باستدلال المعتدلات قد تهيّأ للاعتدال ، فكان قد اعتدل بالقوّة .

وينبغى أيضا أن يكون قد حذف مفعول « أمدّ » ، وتقديره « بمرضٍ » كما قدّرناه نحن ، وحذف المفعولات كثير واسع .

قوله : « حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّله » ، لأنّ مُعلّل المرض فى أوائل المرض يكون عندهم نشاط، لأنّهم يرجُون البُرْء ، فإذا رأوا أمارات الهلاك فترت همّتهم .

قوله : « وذَهَل مُمَرِّضُه » ، ذَهَل بالفتح، وهذا كالأوّل ، لأن الممرِّض إذا أعيا عليه المرض ، وانسدّت عليه أبواب التدبير يذهَل .

قوله : « وتعايا أهلُه بصفة دائه » ، أى تعاطوا العِيّ وتساكتوا إذا سُئِلوا عنه ، وهذه عادة أهل المريض المُثقَل ؛ يجمجِمون إذا سئلوا عن حاله .

قوله : « وتنازعوا دونه شَجِىّ خبر يكتمونه » ، أى تخاصموا فى خبر ذى شجى ، أى خبر ذى غُصّة يتنازعونه وهم حول المريض سِرّاً دونه ، وهو لا يعلم بنجواهم ، وبما يُفيضون فيه من أمره

فقائل منهم : هو لمآبه ، أى قد أشفى على الموت . وآخر يمنّيهم إياب عافيته ، أى عَوْدَها ، آب فلان إلى أهله ، أى عاد .

وآخر يقول : قد رأينا مثل هذا ، ومَنْ بلغ إلى أعظم من هذا ثم عوفِىَ ، فيمنّى أهلَه عَوْد عافيته .

وآخر يصبِّر أهله على فقده ، ويذكر فضيلة الصّبْر ، وينهاهم عن الجزع ، ويروى لهم أخبار الماضين .

وأُسى أهليهم ، والأُسَى : جمع أُسْوة ، وهو ما يتأسّى به الإنسان . قالت الخنساء :

وما يبكون مِثْلَ أخِى ولكِنْ أسلّى النَّفْسَ عنه بالتأسّى[1]

قوله : « على جناح من فراق الدنيا » ، أى مسرعان مايفارقها ؛ لأنّ مَنْ كان على جناح طائر ، فأوشِكْ به أن يسقط !

---

(١) ديوانها ١٥٣ ، وروايته « وما يبكين »

قوله : « إذْ عَرَضَ له عارض » يعني الموت . ومِن غُصصه : جمع غُصّة . وهو مايعترض مجرى الأنفاس . ويقال : إنّ كلّ ميّتٍ من الحيوان لايموت إلّا خنقا ، وذلك لأنّه من النَّفَس يدخل ، فلا يخرج عِوَضه ، أو يخرج فلا يدخل عِوَضه ، ويلزم من ذلك الاختناق ، لأنّ الرئة لاتبقى حينئذٍ مَرْوَحةً للقلب ، وإذا لم تُرَوّحه اختنق .

قوله : « فتحيّرت نوافذ فطنته » ، أي تلك الفطنة النافذة الثاقبة تحيّرت عند الموت ، وتبلّدت .

قوله : « وييبست رطوبةُ لسانِه » ؛ لأنّ الرّطوبة اللّعابيّة الّتي بها يكون الذوق تنشف حينئذٍ ، ويبطل الإحساس باللسان تبعاً لسقوط القوة .

قوله : « فكم من مهمٍّ من جوابه عرفه فعيّ عن ردّه ! » نحو أن يكون له مالٌ مدفونٌ يُسأل عنه حال مايكون محتضراً ، فيحاول أن يعرّف أهلَه به فلا يستطيع ، ويعجز عن ردّ جَوابِهم ، وقد رأينا مَنْ عجز عن الكلام فأشار إشارةً فهموا معناها ، وهي الدّواة والكاغَد ، فلمّا حضر ذلك أخذ القلم وكتب في الكاغد مالم يُفْهَم ، ويده تُرْعَد . ثم مات .

قوله : « ودعاء مؤلمٍ لقلبه سمعه فتصامّ عنه » ، أظهر الصّمم ، لأنّه لاحيلة له .

ثم وصف ذلك الدعاء فقال : « من كبيرٍ كان يعظّمه » ، نحو صُراخ الوالد على الولد والولد يسمع ولا يستطيع الكلام . « وصغير كان يرحمه » ، نحو صراخ الولد على الوالد، وهو يسمع ولا قدرة له على جوابه .

ثم ذكر غمرات الدنيا فقال: إنها أفظع من أن تحيط الصفاتُ بها. وتستغرقَها ، أي تأتي على كُنْهِها ، وتُعبّر عن حقائقها .

قوله : «أو تعتدل على عقول أهل الدنيا» ، هذا كلام لطيف فصيح غامض ، ومعناه

أنّ غمرات الموت وأهواله عظيمة جدًّا لا تستقيم على العقول ولا تقبلها إذا شرحت لها ووصفت كما هي على الحقيقة ، بل تنبو عنها ، ولا تصدق بما يقال فيها ، فعبّر عن عدم استقامتها على العقول بقوله : « أو يستدل » ، كأنه جعلها كالشيء المموّج عند العقل ، فهو غير مصدّق به .

***

[إيراد أشعار وحكايات فى وصف الموت وأحوال الموتى]

ومما يناسب ماذكر ، من حال الإنسان قول الشاعر :

بينا الفتى مَرِحُ الخطا فرحًا بما ... يسعى له إذْ قيل قد مَرِضَ الفتى
إذْ قيل باتَ بليلةٍ ما نامَها ... إذْ قيل أصبح مُثْقَلًا ما يُرتجى
إذْ قيل أمسى شاخصًا وموجَّهًا ... إذْ قيلَ فارقَهُمْ وحلّ به الرّدَى

***

وقال أبو النّجم العجلىّ :

والمرء كالحالم فى المنامِ ... يقول إنّى مدركٌ أمامى
فى قابلٍ مافاتنى فى العامِ ... والمرء يُدْنيهِ إلى الحِمامِ
مرُّ الليالى السُّودِ والأيّامِ ... إنّ الفتى يُصبحُ للأسقامِ
كالغرضِ المنصُوب للسّهام ... أخطأ رامٍ ، وأصاب رامِ

***

وقال عمران بن حِطّان :

أفى كلّ عام مَرْضَةٌ ثم نقهةٌ ... ويُنعَى، ولا يُنعَى ، مَتَى ذا ؟ إلى متى !

ولا بدّ من يوم يجيء وليلة يسوقان حتفاً راحَ نحوك أو غدا

***

وجاء في الحديث أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلّم مرّ بمقبرة فنادى : يا أهلَ القبور الموحِشة، والرُّبُوع المعطّلة، ألا أخبرُكم بما حدَث بعدكم ؟ تزوّجَ نِساؤكم ، وتُبُوِّئت مساكنكم ، وقُسِمت أموالكم . هلْ أنتم مخبِرون بما عاينتمْ ! ثم قال : ألا إنّهم لوْ أذِن لهم في الجوابِ لقالوا : وجدنا خيرَ الزّاد التّقوى .

ونظر الحسن إلى رجل يجود بنفسه فقال : إنّ أمراً هذا آخرُه ، لجديرٌ أن يُزْهَد في أوّله ، وإن أمراً هذا أوّله لجديرٌ أن يُخاف آخره .

***

وقال عَبَدة بن الطبيب ـ ويعجبني قوله على الحال التي كان عليها ؛ فإنه كان أسود لصا من لصوص بني سعد بن زيد مناة بن تميم ـ :

ولقد علمتُ بأن قصريَ حفرةٌ غبراء يحملني إليها شرجعُ (١)
فبكى بناتي شَجْوَهُنّ وزوجتي والأقربُون إليّ ، ثم تصدّعوا
وتُركتُ في غبراء يُكرَه وِرْدُها تسْفِي عليّ الريح ثم أودّعُ
إنّ الحوادث يخترمْن وإنّما عُمر الفتى في أهله مستودَعُ

ونظير هذه الأبيات في رَويّها وعَروضها قول متمّم بن نويرة اليربوعيّ :

ولقد علمتُ ولا محالةَ أنّني للحادثات ، فهل تريْنِي أجزعُ (٢) !
أهلكْنَ عاداً ثم آلَ محرّقٍ فتركْنَهم بَلَداً وما قد جمّعوا (٣)

---

(١) من مفضليته ١٤٠ ـ ١٤٩ ، والشرجع : خشب يشد بعضه إلى بعض كالسرير يحمل عليه الموتى.
(٢) من مفضليته ٤٨ ـ ٥٤ .
(٣) بلداً ، أي تراباً .

ولمنْ كان الحـارثان كلاهما ولمنْ كان أخــو المصانع تبَّعُ (١)

فمــددت آبائي إلى عِرْق الثّرى فدعوتُهمْ فعلمتُ أنْ لم يَسْمَعُوا

ذهبـــوا فَلَمْ أدرِكهمُ ودعَتْهمُ غُـــولٌ أتوْها والطّريق المَهْيَعُ

لا بدّ من تلفٍ مصيب فانتظِرْ أبأرض قومك أم بأخرى تُصْرَعُ !

وليأتينّ عليـــك يومٌ مرّةً يُبكَى عليك مُقنعاً لا تَسْمَعُ (٢)

***

لمّا فتح خالد بن الوليد عَيْن التّمر ، سأل عن الحُرَقَة بنت النّعمان بن المنذر ، فدُلَّ عليها ، فأتاها ـ وكانت عَمياء ـ فسألها عن حالها ، فقالت : لقد طلعتْ علينا الشمس ما شيء يدبّ تحت الخورنق إلّا تحت أيدينا ، ثم غربت وقد رحِمنا كلُّ مَنْ يدورُ به ، وما بيت دخلته حَبْرة ، إلّا دخلته عَبْرة ؛ ثم قالت :

وَبَيْنَا نَسُوسُ النّاسَ والأمْرُ أمرُنا إذا نحن فيـه سُوقَةٌ نتنصّفُ

فأفٍّ لدنيـــا لا يدومُ نعيمُها تقلّبُ تاراتٍ بنـــا وتصرّفُ !

فقال قائل ممّن كان حول خالد : قاتل الله عديّ بن زيد ! لكأنّه ينظر إليها حين يقول :

إنّ للدهر صَرْعةً فاحذرنْها لا تبيتنّ قد أمِنْتَ الدّهورا (٣)

قد يبيت الفتى معافى فيردَى ولقـــد كان آمناً مسروراً

***

دخل عبدُ الله بن العبّاس على عبد الملك بن مروان يوم قرٍّ ، وهو على فُرُش

---

(١) الحارثان : هما الحارث الأصغر ، والحارث الأكبر الأعرج : المصانع . القصور . تبع : ملك من ملوك اليمن .

(٢) مقنع : ملفف في أثوابه .

(٣) الأغاني ٢ : ١٣٨ ـ ١٤٠ .

يكاد يغيب فيها ، فقال : يابنَ عباس ، إنّى لأحسِب اليوم بارداً ! قال : أجلْ ، وإنّ ابن هند عاش فى مثل ماترى ؛ عشرين أميراً ، وعشرين خليفة ، ثم هو ذاك على قبره ثُمامَة تهتزّ .

فيقال : إن عبد الملك أرسل إلى قبر معاوية فوجد عليه ثمامة نابتة .

***

كان محمّد بن عبد الله بن طاهر فى قصره ببغداد على دِجْلة ، فإذا بحشيش على وجه الماء وسطه قصبة على رأسها رقعة ، فأمر بها فوجد هذا :

تاه الأعيرجُ واستولى به البَطرُ ... فقل له خير ما استعملته الحَذَرُ

أحسنتَ ظنّك بالأيّام إذ حَسُنَتْ ... ولم تخفْ سوء ما يأتى بهِ القَدَرُ

وسالمتْك الليالى فاغتررتَ بها ... وعند صفو الليالى يحدُث الكدَر

فلم ينتفع بنفسه أياماً .

***

عدىّ بن زيد :

أيّها الشامت المعيِّر بالدهـ ... ـرِ أأنت المبرَّأ الموفور !

أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ... ـام ، بل أنتَ جاهلٌ مغرور

مَنْ رأيت المنون خلّدْنَ أمْ مَنْ ... ذا عليه من أن يُضام خفير !

أين كسرى كسرى الملوك أنوشر ... وان أم أين قبلَهُ سابور [1] !

وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ ... رّوم ولم يبق منهمُ مذكورُ

---

(١) سابور الجنود ، هو ابن أردشير ، وسابور ذو الأكتاف ، هو سابور بن هرمز ، وكلاهما من ملوك العجم .

وأخو الحضرِ إذْ بناه وإذ دِجْ ... لة تُجبَى إليـــه والخابور[١]

لم يهبْــه ريب المنون فباد الـ ... ـملْكُ عنــه فبابُه مهجورُ

شادَهُ مرمراً وجلَّلَهُ كلْـ ... ـساً فللطير في ذُرَاه وُكور[٢]

وتبيّنْ ربّ الخورنق إذ أشْـ ... ـرف يوماً وللهـدى تفكير[٣]

سرّه حالُه وكـثرة ما يمْـ ... ـلِكُ والبحرُ معرضاً والسّدير[٤]

فارعوى قلبُهُ وقال : فما غِبْـ ... ـطَةُ حيّ إلى الممات يصـيرُ !

ثم بعد الفلاح والملك والأمّـ ... ـةِ وارتْهمُ هناك القبورُ[٥]

ثم أضحوا كأنهم ورقٌ جَـ ... ـفّ فألوتْ به الصَّبا والدّبور[٦]

قد اتفق الناس على أنّ هذه الأبيات أحسن ماقيل من القريض فى هذا المعنى، وأنّ الشعراء كلهم أخذوا منها ، واحتذوا فى هذا المعنى حذوها .

***

وقال الرضيّ أبو الحسن رضى الله عنه :

انظر إلى هـذا الأنام بعـبرةٍ ... لا يعجبنّك خلقـه ورُواؤه[٧]

فتراه كالورق النّضير تقصّفتْ ... أغصانُه ، وتسلّبت شَجْراؤه[٨]

أنى تحاماه المنون ، وإنمـا ... خُلِقَتْ مَرَاعِيَ للردى خضراؤه

أم كيف تأمل فلتةً أجساده ... من ذا الزمان وحشوها أدواؤه !

(١) الخابور : اسم نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة .
(٢) الكلس : الصاروج ، وأخلاطها التى تصرج (تطلى) بها النزل وغيرها .
(٣) فى الأغانى : « وتذكر » .
(٤) فى الأغانى : « سره ماله » .
(٥) الأمة : النعمة .
(٦) ألوت به : أى ذهبت به .
(٧) ديوانه لوحة ١١٦ .
(٨) ديوانه : « فبيناه » .

لا تعجبنّ فما العجيب فناؤهُ ... بيدِ المنون ، بل العجيب بقاؤهُ

إنّا لنعجب كيف حُمّ حِمامُه ... عَنْ صحةٍ ، ويغيبُ عنّا دَاؤه

مَنْ طاح في سبل الرّدى آباؤه ... فليسلكنّ طريقهمْ أبناؤه

ومؤمّرٍ نزلوا به في سُوقة ... لا شكله فيهم ولا نظراؤه (١)

قد كان يَفْرَق ظلّه أقرانُهُ ... ويَغُضّ دُون جلاله أكْفاؤه (٢)

ومُحجّبٍ ضُربت عليه مهابةٌ ... يُغشِي العيون بهاؤه وضياؤهُ

نادَتْه من خلف الحجاب منيّةٌ ... أمَمٌ فكان جوابَها حوباؤهُ (٣)

شقّت إليه سيوفه ورماحَه ... وأميطَ عنه عبيدُه وإماؤه

لم يُغْنه مَن كان ودّ لو أنّه ... قَبْلَ المنون مِنَ المنون فداؤه

حَرَمٌ عليه الذلّ إلّا أنّه ... أبداً ليَشهدُ بالجلال بِناؤه (٤)

متخشّع بعد الأنيس جنابُهُ ... متضائلٌ بعد القطين فناؤه

عُريان تطرد كلّ ريح تُرْبه ... ويطيع أوّل أمرِها حصباؤه

ولقد مررت ببرْزَخٍ فسألتُه ... أين الأُلى ضَمّتهمُ أرجاؤه !

مثل المطيّ بوارِكاً أجداثهُ ... تَسْفِي عَلَى جنباتها بَوْغاؤه (٥)

ناديته فخفي علىّ جوابُهُ ... بالقولِ إلّا مازَقَتْ أصداؤه (٦)

---

(١) الديوان : « قرناؤه » .

(٢) يفرق : يخاف ويهاب .

(٣) أمم : قريبة ، والحوباء : النفس .

(٤) حرم عليه : حرام عليه .

(٥) بواركا : جمع بارك أو باركة . البوغاء : التراب .

(٦) زقت : صاحت : الأصداء : جمع صدى ، وهو حكاية الصوت في الجبال والكهوف والأماكن الخالية .

مِنْ ناظرٍ مطروفةٍ ألحاظه   أو خاطرٍ مطلولة سوداؤه [١]
أو واجدٍ مكظومة زَفَرَاته   أو حاقدٍ منسيّةٍ شَحْناؤه [٢]
ومسنّدين على الجنوب كأنّهم   شَرْبٌ تخاذل بالطِّلَا أعضاؤه
تحت الصّعيد لغير إشفاق إلى   يوم المَعاد يضمُّهم أحشاؤه
أكلَتهمُ الأرض التى ولدتهمُ   أكْلَ الضَّروس حلَتْ له أكْلَاؤه

***

وقال أيضا :

وتفرّقُ البُعداء بعدَ تجمُّعٍ   صَعْبٌ، فكيفَ تفرّقُ القُرباء! [٣]
وخلائقُ الدّنيا خلائقُ مُومسٍ،   للمنع آونةً ، وللإعطاء [٤]
طَوْراً تبادلك الصّفاء وتارة   تلقاك تنكرُها من البَغْضاء
وتداوُل الأيام يُبلينا كما   يُبلِى الرّشاء تطاوُحُ الأرْجاء [٥]
وكأنّ طولَ العُمْرِ رَوْحةُ راكبٍ   قضَى اللّغوبَ وَجدّ فى الإسراء [٦]
لهفى على القَوم الأولى غادرتهم   وعليهمُ طَبَقٌ من البَيْداء [٧]

---

(١) مطروفة ، من قولهم : طرف فلان بصره ؛ إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر . ومطلولة ، من قولهم : طل دم فلان ، إذا ذهب هدراً .
(٢) واجد ، من الوجد ؛ وهو الحزن .
(٣) من مرثيته لوالدته فاطمة بنت الناصر ، وأولها :

أبكيك لو نقعَ الغليلُ بكائى   وأقولُ لَوْ ذَهبَ المَقالُ بدائى

ديوانه لوحة ١١٥ .
(٤) المومس : المرأة الفاجرة .
(٥) الرشاء : الحبل يستقى به من البئر ، والأرجاء : جمع رجا ؛ وهو ناحية البئر .
(٦) روحة راكب : راحته . واللغوب : الإعياء . والإسراء : سير الليل .
(٧) الطبق : وجه الأرض ؛ أو غطاء كل شىء .

متوسّدين على الخدودِ كأنّما ... كَرَعُوا على ظَمَإٍ من الصَّهْباء
صُوَرٌ ضَنِنْت على العُيُون بلحظِها ... أمسيتُ أوقِرُها من البَوْغَاء (١)
ونواظرٌ كَحَل التّراب جفونَها ... قد كنت أحرُسُها من الأقذاء
قَرُبت ضَرَائِحُهُمْ عَلَى زُوَّارِها ... ونأَوْا عن الطُّلاب أىّ تناء (٢)
ولبئس ما يلقى بِعُقْرِ ديارهم ... أذنُ للصيخ بها وعينُ الرّائى (٣)



(١) البوغاء : التربة الرخوة .
(٢) الضرائح : جمع ضريح ؛ وهو القبر .
(٣) عقر ديارهم : وسطها .

(٢١٧)

الأصـل :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله عنـد تلاوته : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[1] :

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جِلَاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ ، وَتَنْقَادُ بِهِ بعد الْمُعَانَدَةِ . وَمَا بَرِحَ لِلهِ - عَزَّتْ آلَاؤُهُ ، فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَـةِ ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ - عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَفْئِدَةِ ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ ، بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ . مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ ، وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ ، وَمَنْ أَخَـذَ يَمِيناً وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْـهِ الطريقَ ، وَحَـذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَـكَةِ ، وكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ ، وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ .

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلاً أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً ، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْهُ ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ ، فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْـكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ ، فَـكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا ، فَشَاهَدُوا مَاوَرَاءَ ذَلِكَ ، فَـكَأَنَّمَا

---

(١) سورة النور ٣٦ ، ٣٧

اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الإِقَامَةِ فِيهِ ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا ، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا ، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ ، وَيَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ .

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ ، وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ ، وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ ، وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ ؛ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا ، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا ؛ وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ ، فَضَعُفُوا عَنِ الِاسْتِقْلَالِ بِهَا ؛ فَنَشَجُوا نَشِيجاً ، وَتَجَاوَبُوا نَحِيباً ، يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ ـ لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى ، وَمَصَابِيحَ دُجًى ، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ ؛ وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ ، فِي مَقْعَدٍ اطَّلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ ، وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ .

يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ ، رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ ، وَأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ ، جَرَحَ طُولُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ .

لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ ، يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ ، وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ .

فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ ؛ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ .

***

الشرح :

من قرأ ﴿ يسبّح له فيها ﴾ بفتح الباء[1] ارتفع « رجال » عنده بوجهين :

---

(١) هي قراءة ابن عامر وأبي بكر بن مجاهد ؛ والباقون بكسرها ؛ وانظر أيضا إتحاف فضلاء البشر ٣٢٥

أحدها أن يُضمَر له فعل يكون هو فاعله ، تقديره « يسبحه رجال » ، ودلّ على « يسبّحه » يسبّح ، كما قال الشاعر :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تُطيح الطوائحُ[1]

أي يبكيه ضارع ، ودلّ على « يبكيه » « يُبْكَ » .

والثاني أن يكونَ خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : « المسبّحون رجال » . ومَنْ قرأ : « يسبَّح له فيها » بكسر الباء ، فـ « رجال » فاعل ، ووُقع لفظ « التجارة » في مقابلة لفظ « البيع » إمّا لأنه أراد بالتجارة هاهنا الشراء خاصّة ، أو لأنه عم بالتجارة المشتملة على البيع والشراء ، ثم خصّ البيع ، لأنه أدخلُ في باب الإلهاء ، لأنّ البيع يحصل ربحه بيقين ، وليس كذلك الشراء ، والذكر يكون تارةً باللسان ، وتارةً بالقلب ، فالّذي باللسان نحو التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والدعاء ، والذي بالقلب؛ فهو التعظيم والتبجيل والاعتراف والطاعة .

وجلوت السيف والقلب جِلاء ، بالكسر ، وجلوت اليهودَ عن المدينةِ جَلاء بالفتح .

والوَقْرة : الثقل في الأذن . والعَشْوة ، بالفتح : فَعْلة ، من العشا في العين .

وآلاؤه : نعمه .

فإن قلت : أيّ معنى تحت قوله : « عزت آلاؤه » وعزّت بمعنى . « قلّت » ؟ وهل يجوز مثل ذلك في تعظيم الله ؟

قلت : عزّت هاهنا ليس بمعنى « قلّت » ولكن بمعنى : « كرمت وعظمت » ، تقول منه : عَزَزْتُ على فلان بالفتح ، أي كرُمْت عليه ، وعظُمت عنده ، وفلان عزيز علينا ، أي كريم معظم .

---

(١) البيت من شواهد مغني اللبيب ٦٢٠ .

والبُرهة من الدهر : المدّة الطويلة ، ويجوز فتح الباء .

وأزمان الفترات : ما يكون منها بين النّوْبتين .

وناجاهم فى فكرهم : ألهمهم ، بخلاف مناجاة الرّسل ببعث الملائكة إليهم ، وكذلك « وكلّمهم فى ذات عقولهم » ، فاستصبحوا بنور يقظة » : صار ذلك النور مصباحا لهم يستضيئون به .

قوله : « مَنْ أخذ القصد حَمِدوا إليهم طريقه » ، إلى هاهنا: هى التى فى قولهم: أحمَدُ الله إليك ؛ أى مُنهياً ذلك إليك ، أو مفضياً به إليك؛ ونحو ذلك ، وطريقة العرب فى الحذف فى مثل هذا معلومة، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً ﴾[1]؛ أى لجعلنا بدلا منكم ملائكة . وقال الشاعر :

فليس لنا من ماء زمزم شربة مبرّدة باتت على طَهَيانِ

أى عِوَضاً من ماء زمزم .

قوله : « ومَن أخذ يمينا وشمالا » ، أى ضلّ عن الجادّة .

و « إلى » فى قوله : « ذمّوا إليه الطريق » مثل « إلى » الأولى .

ويهتفون بالزواجر : يصوّتون بها ، هتفت الحمامة تهتِف هتْفا ، وهتف زيد بالغنم هِتافاً بالكسر ، وقوس هتافة وهتفى ، أى ذات صوت .

والقسْط : العدل . ويأتمرون به : يمتثلون الأمر .

وقوله : « فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخرة »، إلى قوله: « ويسمعون ما لا يسمعون » ؛ هو شرح قوله عن نفسه عليه السلام : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » .

والأوْزار : الذنوب . والنشيج : صوت البكاء . والمقعد : موضع القعود .

---

(١) سورة الزخرف ٦٠ .

ويد قارعة : تطرق باب الرحمة ، وهذا الكلام مجاز .

والمنادح : المواضع الواسعة .

و « على » فى قوله : «ولا يخيب عليه الراغبون» متعلقة بمحذوف مثل «إلى» المتقدّم ذكرها ، والتقدير « نادمين عليه » .

والحسيب : المحاسب .

* * *

واعلم أنّ هذا الكلام فى الظاهر صفة حال القصّاص والمتصدّين لإنكار المنكَرات، ألا تراه يقول: «يذكّرون بأيام الله» ! أى بالأيام التى كانت فيها النقمة بالعصاة ،ويخوّفون مقامه من قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [1] ثم قال : فمن سلك القَصْد حمِدُوه، ومَنْ عدل عن الطريق ذمّوا طريقه، وخوفوه الهلاك . ثم قال : يهتفون بالزواجر عن المحارم فى أسماع الغافلين ، ويأمرون بالقسط وينهون عن المنكر .

وهذا كله إيضاح لما قلناه أولا ؛ أنّ ظاهرَ الكلام شرحُ حالِ القصّاص وأرباب المواعظ فى المجامع والطرقات ، والمتصدّين لإنكار القبائح ؛ وباطن الكلام شرح حال العارفين ، الذين هم صَفْوة الله تعالى من خلقه ، وهو عليه السلام دائما يكنى عنهم ، ويرمز إليهم ، على أنه فى هذا الموضع قد صرح بهم فى قوله : « حتى كأنّهم يرون مالا يَرَى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون » .

وقد ذكر من مقامات العارفين فى هذا الفصل الذكر ، ومحاسبة النفس ، والبكاء والنحيب، والنّدم والتّوبة ، والدعاء والفاقة ، والذلة ، والحزن ، وهو الأسى الذى ذكر أنه جرح قلوبهم بطوله .

* * *

(١) سورة الرحمن ٤٦ .

[بيان أحوال العارفين]

وقد كنّا وعدنا بذكر مقامات العارفين فيا تقدّم ، وهذا موضعه ، فنقول : إنّ أول مقام من مقامات العارفين ، وأوّل منزل من منازل السالكين التوبة ، قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « التائبُ من الذّنب كمَن لا ذنْب له » .

وقال عليّ عليه السلام : « مامن شيء أحبّ إلى الله من شابّ تائب » .

والتوبة فى عرف أربابِ هذه الطريقة النّدَم على ماعمل من المخالفة وترْك الزلّة فى الحال والعزم على ألّا يعودَ إلى ارتكاب معصية ، وليس النّدم وحده عند هؤلاء توبة ، وإن جاء فى الخبر : «الندم توبة» ، لأنّه على وِزان قوله عليه السلام : «الحجّ عرفة»؛ ليس على معنى أنّ غيرها ليس من الأركان ، بل المراد أنه أكبر الأركان وأهمّها . ومنهم من قال: يكفى الندم وحده ، لأنه يستتبع الركنين الآخرين لاستحالة كونه نادماً على ماهو مصرٌّ على مثله ، أو ماهو عازم على الإتيان بمثله .

قالوا : وللتوبة شروط وترتيبات :

فأوّل ذلك انتباه القلب من رَقْدة الغفلة ، ورؤية العبد ماهو عليه من سوء الحالة ، وإنّما يصل إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلى مايخطر بباله من زَواجر الحقّ سبحانه ؛ يسمع قلبه ، فإنّ فى الخبر النبوىّ عنه صلى الله عليه وآله : « واعظ كلّ حالِ الله فى قلب كلّ امرئ مسلم » .

وفى الخبر : « إنّ فى بدن المرء لَمُضْغةً إذا صلَحت صلَح جميع البدن ؛ ألا وهى القلب ، وإذا فسدت فسد جميع البدن ، ألا وهى القلب » .

---

(١) سورة النور ٣١ .

وإذا أفكر العبدُ بقلبه فى سوء صنيعه ، وأبصر ما هو عليه من ذميم الأفعال ، سَنَحت فى قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة ، فيمدّه الحقّ سبحانه بتصحيح العزيمة ، والأخذ فى طرق الرجوع والتأهّب لأسباب التوبة .

وأوّل ذلك هِجران إخوان السوء ؛ فإنّهم الذين يحملونه على ردّ هذا القصْد ، وعكس هذا العزم ، ويشوّشون عليه صحّة هذه الإرادة ، ولا يتمّ ذلك له إلّا بالمواظبة على المشاهد والمجالس التى تزيده رغبة فى التوبة ، وتوفّر دواعيه إلى إتمام ما عَزَم عليه ، ممّا يقوّى خوفه ورجاءه ، فعند ذلك تنحلّ عن قلبه عُقْدة الإصرار على ما هو عليه من قبيح الفعال ، فيقف عن تعاطى المحظورات ، ويكبَح نفسَه بلجام الخوف عن متابعة الشهوات ، فيفارق الزلّة فى الحال ، ويلزم العزيمة على ألّا يعود إلى مثلها فى الاستقبال ، فإنْ مَضَى على موجب قصدِه ، ونفذ على مقتضى عزمِه ، فهو الموفّق حقا ، وإن نقضَ التوبة مرةً أو مرات ، ثم حملته إرادته عَلَى تجديدها ، فقد يكون مثل هذا كثيرا ، فلا ينبغى قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء ، فإنّ لكلِّ أجلٍ كتابا . وقد حُكِىَ عن أبى سليمان الدّارانىّ أنه[1] قال: اختلفتُ إلى مجلس قاصّ ، فأثر كلامه فى قلبى ، فلمّا قمت لم يبق فى قلبى شىء ، فعدت ثانيا ، فسمعت كلامَه ، فبقىَ من كلامه فى قلبى أثر فى الطريق ثم زال ، ثم عدتُ ثالثا فوقّر كلامُه فى قلبى ، وثبتَ حتى رجعتُ إلى منزلى ، وكسرت آلات المخالفة ، ولزمت الطريق .

وحكيت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ ، فقال : عصفور اصطاد كُرْكيًّا — يعنى بالعصفور القاصّ ، وبالكركىّ أبا سليمان .

ويحكى أنّ أبا حفصٍ الحدّاد ذكر بدايته ، فقال : تركت ذلك العمل — يعنى المعصية — كذا وكذا مرّة ، ثم عدت إليها ، ثم تركنى العمل ، فلم أعدْ إليه .

---

(١) ساقط من . ب

وقيل إنّ بعض المريدين تابَ ، ثم وقعت له فترة ، وكان يفكّر ويقول : أترى لو عدتُ إلى التوبة كيف كان يكون حكمى ! فهتف به هاتف : يافلان ، أطعتَنا فشكرناك، ثم تركتنا فأمهلناك ، وإن عدتَ إلينا قبلناك ؛ فعاد الفتى إلى الإرادة .

وقال أبو على الدقّاق : التوبة عَلَى ثلاثة أقسام . فأوّلها التوبة ، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأَوْبة ، فجعل التوبة بداية، والأَوْبة نهاية ، والإنابة واسطة بينهما . والمعنى أن مَنْ تاب خوفا من العقاب فهو صاحب التوبة ، ومَنْ تاب طمعا فى الثواب فهو صاحب الإنابة ، ومَنْ تاب مراعاة للأمر فقط ، فهو صاحب الأَوْبة .

وقال أبو علىّ أيضا : التوبة صفة المؤمنين ، قال سبحانه : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] . والإنابة صفة الأولياء ، قال سبحانه : ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾[2] ، والأَوْبة صفة الأنبياء ، قال سبحانه : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[3] .

وقال الجنيد : دخلت عَلَى السرىّ يوما ، فوجدته متغيرا ، فسألته فقال : دخل علىّ شابٌ ، فسألنى عن التوبة ، فقلت : ألاّ تنسى ذنبك ! فقال : بل التوبة ألا تذكر ذنبك. قال الجنيد : فقلتُ له : إنّ الأمر عندى ماقاله الشابّ ، قال : كيف ؟ قلت : لأنى إذا كنتُ فى حال الجفاء فنقلنى إلى حال الصفاء ، فذِكْر الجفاء فى حال الصّفاء جفاء . فسكت السرىّ .

وقال ذو النّون المصرىّ : الاستغفار من غير إقلاع توبةُ الكذّابين .

وسئل البوشنجىّ عن التوبة ، فقال : إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره ، فذاك حقيقة التوبة .

---

(١) سورة النور ٣١ .
(٢) سورة ق ٣٣
(٣) سورة ص ٣٠ .

وقال ذو النون : حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرضُ بما رَحُبت ، حتى لا يكون لك قرار ، ثم تضيق عليك نفسك ؛ كما أخبر الله تعالى فى كتابه بقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ [١] .

وقيل لأبى حفص الحدّاد : لم تُبغِضُ الدّنيا ؟ فقال : لأنّى باشرتُ فيها الذّنوب ، قيل : فهلّا أحببْتَها لأنك وُفّقت فيها للتوبة ! فقال : أنا من الذّنب عَلَى يقين ، ومن هذه التوبة عَلَى ظنّ .

وقال رجل لرابعة العدويّة : إنّى قد أكثرتُ من الذنوب والمعاصى، فهلْ يتوبُ علىّ إن تبتُ ؟ قالت : لا بل لو تاب عليك لتبت .

قالوا : ولمّا كان الله تعالى يقول فى كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ ﴾ دلّنا ذلك عَلَى محبّته لمن صحّت له حقيقة التوبة ، ولا شبهة أنّ مَنْ قارف الزّلة فهو من خطئه عَلَى يقين ، فإذا تاب فإنّه من القبول عَلَى شكّ ، لاسيما إذا كان مِنْ شرط القبول محبة الحقّ سبحانه له ، وإلى أن يبلغ العاصى محلّا يجدُ فى أوصافه أمارة محبّة الله تعالى إيّاه مسافة بعيدة ، فالواجب إذاً عَلَى العبد إذا علم أنّه ارتكب مايجب عنه التوبة دوام الانكسار ، وملازمة التنصّل والاستغفار ، كما قيل : استشعار الوَجل إلى الأجَل .

وكان من سنّته عليه السلام دوام الاستغفار . وقال : « إنّه لَيُغَانُ عَلَى قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرّة » [٢] .

---

(١) سورة التوبة ٢٥ .

(٢) أورده ابن الأثير فى النهاية ٣ : ١٨٠ ، وقال : الغين : الغيم ، وغينت السماء تغان : إذا أطبق عليها الغين ، وقيل : الغين : شجر ملتف ؛ أراد ما يغشاه من السهو الذى لا يخلو منه البشر ؛ لأن قلبه أبداً كان مشغولا بالله تعالى ؛ فإن عرض له وقتاً ما عارض بشرى يشغله من أمور الأمة والملة ومصالحهما عد ذلك ذنباً وتقصيراً فيفزع إلى الاستغفار » .

وقال يحيي بن معاذ : زلّة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها .

ويحكى أنّ عليّ بن عيسى الوزير ركب في موكب عظيم ، فجعل الغرباء يقولون : مَنْ هذا ؟ مَنْ هذا ؟ فقالت امرأة قائمة على السطح : إلى متَى تقولون : من هذا ، من هذا ! هذا عبد سقط من عينِ الله ، فابتلاه بما ترون . فسمع عليّ بن عيسى كلامها ، فرجع إلى منزله ولم يزل يتوصّل في الاستعفاء من الوزارة حتى أُعفِيَ ، وذهب إلى مكّة فجاور بها .

* * *

ومنها المجاهدة ، وقد قلنا فيها مايكفي فيما تقدّم .

* * *

ومنها العزلة والخلوة ، وقد ذكرنا في جزء قبل هذا الجزء مما جاء في ذلك طرفا صالحا .

* * *

ومنها التّقوى ، وهي الخوف من معصية الله ، ومن مظالم العباد ، قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] ، وقيل : إنّ رجلاً جاء إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله، فقال : يارسول الله أوصِنِي، فقال: « عليك بتقوى الله ، فإنه جامع كلّ خير، وعليك بالجهاد ، فإنّه رهبانيّة المسلم ، وعليك بذكر الله ، فإنّه نور لك » .

وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾[2] : أن يُطاع فلا يعصى ، ويُذكَر فلا ينسى ، ويُشكر فلا يكفَر .

(١) سورة الحجرات ١٣ .
(٢) سورة آل عمران ١٠٢ .

وقال النصراباذيّ : من لزم التقوى بادرَ إلى مفارقة الدّنيا ، لأنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾[1] .

وقيل : يستدلّ على تقوى الرجل بثلاث: التوكّل فيما لم ينلْ ، والرضا[2] بما قد نال، وحسن الصبر على مافات .

وكان يقال : مَنْ كان رأس ماله التقوى كَلّت الألسُنُ عن وصف ربحه .

وقد حكَوْا من حكايات المتقين شيئاً كثيرا ، مثل مايحكى عن ابن سيرين ، أنّه اشترى أربعين حُبّاً[3] سمنا ،فأخرج غلامه فأرةً من حُبّ ؛ فسأله :من أى حبّ أخرجها؟ قال : لا أدرى ، فصبّها كلّها .

وحكى أنّ أبا يزيد البسطاميّ غسل ثوبَه فى الصّحراء ومعه مصاحب له ، فقال صاحبه : نضرِب هذا الوتِد فى جدار هذا البُستان ، ونبسط الثّوب عليه ، فقال : لايجوز ضرب الوتِد فى جدار النّاس قال : فنعلّقه على شجرة حتى يجفّ، قال : يكسر الأغصان، فقال : نبسطه على الإذخر[4] قال : إنه علف الدواب لايجوز أن نستره منها . فولّى ظهره قِبَل الشمس ، وجعل القميص على ظهره حتى جفّ أحدُ جانبيه ، ثم قلبه حتى جفّ الجانب الآخر .

* * *

ومنها الورع ، وهو اجتناب الشُّبهات ، قال صلى الله عليه وآله لأبي هريرة : « كنْ ورِعاً تكنْ أعبد النّاس » .

وقال أبو بكر : كنا ندَعُ سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع فى باب واحد من الحرام .

---

(١) سورة الأنعام ٣٢ .

(٢) ب : « الشكر » ، وما أثبته من : ا .

(٣) الحب هنا : الجرة .

(٤) الإذخر : الحشيش الأخضر .

وكان يقال : الورع فى المنطق أشدّ منه فى الذّهب والفضة، والزّهد فى الرياسة أشدّ منه فى الذّهب والفِضّة ، لأنك تبذلها فى طلب الرياسة .

وقال أبو عبد الله الجلاّء : أعرِف مَنْ أقام بمكّة ثلاثين سنة لم يشربْ من ماء زمزم إلّا ما استقاه بركْوتِه ورِشائه .

وقال بشر بن الحارث : أشدّ الأعمال ثلاثة : الجود فى القلّة ، والورع فى الخلوة ، وكلمة الحقّ عند من يُخاف ويرجَى .

ويقال : إنّ أخت بشر بن الحارث [1] جاءت إلى أحمد بن حنبل ، فقالت : إنّا نغزِل على سطوحنا فتمرّ بنا مشاعل الطّاهرية ، فيقع شعاعها علينا ، أفيجوز لنا الغزل فى ضوئها ؟ فقال أحمد : مَنْ أنتِ يا أَمَةَ الله ؟ قالت : أختُ بشر الحافى ، فبكى أحمد ، وقال : من بيتِكم خرج الوَرَع ، لا تغزلى فى ضوء مشاعلهم .

وحكى بعضهم ، قال : مررت بالبَصْرة فى بعض الشوارع؛فإذا بمشايخ قُعود وصبيان يلعبون،فقلت : أماتستحيون من هؤلاء المشايخ ؟ فقال غلام من بينهم : هؤلاء المشايخ قلّ ورعُهم ، فقلّت هيبتُهم .

ويقال : إنّ مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة ، ماصحّ له أن يأكل من تمر البصرة ولا من رُطَبها حتى مات ولم يذقه.وكان إذا انقضى أوان الرُّطَب يقول:ياأهل البصْرة ، هذا بطنى مانقص منه شىء ، سواء علىّ أكلت من رُطَبِكم أو لم آكل !

وقال الحسن : مثقالُ ذَرّة من الوَرَع خيرٌ من ألف مثقال من الصّوْم والصلاة .

ودخل الحسن مكّة ، فرأى غلاما من ولَدِ علىّ بن أبى طالب ، قد أسندَ ظهره إلى

---

(١) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن أبو نصر الحافى تاريخ بغداد ٧ : ٦٧ .

الكعبة وهو يعظ النّاس ، فقال له الحسن : ما مِلاك الدين ؟ قال : الوَرَع ، قال : فما آفته ؟ قال : الطمع ، فجعل الحسن يتعجّب منه .

وقال سهل بن عبدالله : مَنْ لم يصحبْه الورع ، أكل رأس الفيل ولم يشبع .

وحُمِل إلى عمر بن عبد العزيز مِسْكٌ من الغنائم ، فقبض على مشمّه ، وقال : إنما ينتفَع مِنْ هذا بريحه ، وأنا أكره أن أجدَ رِيحه دون المسلمين .

وسئل أبو عثمان الحريرىّ عن الورع فقال : كان أبو صالح بن حمدون عند صديق له وهو فى النزْع ، فمات الرجل ، فنفث أبو صالح فى السِّراج فأطفأه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إلى الآن كان الدهن الذى فى المسْرجة له ، فلما مات صار إلى الورثة .

***

ومنها الزهد، وقد تكلّموا فى حقيقته، فقال سفيان الثورىّ: الزهد فى الدنيا قصرُ الأمل

وقال الخوّاص : الزهْد أن تتركَ الدُّنيا فلا تبالِى مَنْ أخذها .

وقال أبو سُلَيمان الدّارانىّ : الزهدُ تركُ كلّ ما يشغل عن الله .

وقيل : الزهد تحتَ كلمتين من القرآن العزيز : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[1] .

وكان يقال: مَنْ صدق فى زهده أتته الدنيا وهى راغمة، ولهذا قيل : لو سقطت قلنسُوة من السماء لما وقعتْ إلّا عَلَى رأس من لا يريدها .

وقال يحيى بن معاذ : الزهد يُسْعطُك[2] الخلّ والخردل ، والعِرفان يُشِمّك المسك والعنبر .

---

(١) سورة الحديد ٢٣ .

(٢) سعطه الدواء وغيره : أدخله فى أنفه .

وقيل لبعضهم : ما الزّهد فى الدنيا ؟ قال : تَرْك مافيها على مَنْ فيها .

وقال رجل لذى النون المصرىّ : متى ترانى أزهد فى الدنيا ؟ قال : إذا زهدتَ فى نفسك .

وقال رجل ليحيى بن معاذ : متى ترانى أدخلُ حانوت التوكّل ، وألبس رداء الزهد ، وأقعد بين الزاهدين ؟ فقال : إذا صرتَ من رياضتك لنفسك فى السرّ إلى حدّ لو قطعَ اللهُ عنك القوت ثلاثة أيام لم تضعف فى نفسك ولا فى يقينك ، فأمّا مالم تبلغ إلى هذه الدرجة فقعودك على بساط الزاهدين جهل ؛ ثم لا آمن أن تفتضح .

وقال أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه : ترك الحرام ، وهو زهد العوامّ ، وترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواصّ ، وترك كلّ ما يشغلك عن الله ، وهو زهد العارفين .

وقال يحيى بن معاذ : الدنيا كالعَرُوس ، فطالبها كماشطتها تحسّن وجهها وتعطّر ثوبها ، والزاهد فيها كضرّتها تُسَخِّم وجهها ، وتنتف شعرها ، وتحرق ثوبها . والعارف مشتغل بالله ، لا يلتفت إليها ، ولا يشعر بها .

وكان النصراباذىّ يقول فى مناجاته : يامن حقَنَ دماء الزاهدين ، وسفَك دماء العارفين !

وكان يقال : إنّ الله تعالى جعل الخير كلّه فى بيت ، وجعل مفتاحه الزّهد ، وجعل الشرّ كلّه فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا .

* * *

ومنها الصمت ، وقدّمنا فيما سبق من الأجزاء نكتا نافعة فى هذا المعنى ، ونذكر الآن شيئاً آخر .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذينّ جاره ، ومَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرمْ ضيفه ، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو فليصمت » .

وقال أصحاب هذا العلم : الصمت من آداب الحضرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ [١] .

وقال مخبرا عن الجن : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ [٢] .

وقال الله تعالى مخبرا عن يوم القيامة : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [٣] .

وقالوا : كم بين عبد سكت تصوناً عن الكذب والغيبة ، وعبد سكت لاستيلاء سلطان الهيبة !

وأنشدوا :

أرتبُ ما أقولُ إذا افترقنا ... وأُحكِم دائما حُجَجَ المقالِ

فأنساها إذا نحن التقينا ... وأنطقُ حين أنطق بالمحالِ

وأنشدوا :

فياليلُ كم من حاجةٍ لي مهمةٍ ... إذا جئتكم لم أدرِ بالليل ماهيا !

قالوا : وربما كان سبب الصمت والسكوت حيرة البديهة ؛ فإنه إذا ورد كشف بغتة، خرست العبارات عند ذلك ، فلا بيان ولا نطق ، وطمست الشواهد فلا علم ولا حسٌّ ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [٤] ، فأما إيثار أرباب المجاهدة الصمت فلما علموا في الكلام من الآفات ، ثم مافيه من حظ النفس وإظهار صفات المدح ، والميل إلى أن يتميز من بين أشكاله بحسن النطق ، وغير ذلك من ضروب آفات الكلام . وهذا نعت أرباب

(١) سورة الأعراف ٢٠٤ .

(٢) سورة الأحقاف ٢٩ .

(٣) سورة طه ١٠٨ .

(٤) سورة المائدة ١٠٩ :

الرياضة ، وهو أحَدُ أركانهم فى حكم مجاهدة النفس ومنازلتها وتهذيب الأخلاق .

ويقال : إن داود الطائى لما أراد أن يقعد فى بيته ، اعتقد أن يحضر مجلس أبى حنيفة، لأنه كان تلميذا له ويقعد بين أضرابه من العلماء ، ولا يتكلم فى مسألةٍ على سبيل رياضته نفسه ، فلما قويَتْ نفسُه على ممارسة هذه الخصلة سنةً كاملة ، قعد فى بيته عند ذلك ، وآثر العزلة .

ويقال : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا كتب كتابا فاستحسن لفظه ، مزّق الكتاب وغيّره .

وقال بشر بن الحارث : إذا أعجبك الكلام فاصمُت ، فإذا أعجبَك الصمتُ فتكلَّم .

وقال سهل بن عبدالله : لا يصحّ لأحَدٍ الصّمت حتى يلزِم نفسَه الخلوة ، ولا يصحّ لأحد التوبة حتى يلزم نفسه الصمت .

* * *

ومنها الخوف ، قال الله تعالى : ﴿ يدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وإيَّاىَ فَارْهَبُونِ ﴾[2] .

وقال : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[3] .

وقال أبو على الدقاق : الخوف على مراتب : خوف ، وخشية ، وهيبة .

فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[4] .

والخشية من شروط العلم، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[5].

---

(١) سورة السجدة ١٦ .

(٢) سورة البقرة ٤٠ .

(٣) سورة النحل ٥٠ .

(٤) سورة آل عمران ١٧٥ .

(٥) سورة فاطر ٢٨ .

والهيبة من شروط المعرفة ، قال سبحانه : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [١] .

وقال أبو عمر الدمشقيّ : الخائف مَنْ يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان .

وقال بعضُهم : مَنْ خاف من شيء هرب منه ، ومَنْ خاف الله هَرَبَ إليه .

وقال أبو سليمان الدارانيّ : ما فارق الخوفُ قلباً إلا خرب .

* * *

ومنها الرجاء، وقد قدّمنا فيها قبل من ذكر الخوف والرجاء طرفاً صالحا؛ قال سبحانه : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ [٢] .

والفرق بين الرجاء والتمنّي ، وكون أحدهما محمودا والآخر مذموما ؛ أنّ التمني ألا يسلك طريق الاجتهاد والجدّ ، والرجاء بخلاف ذلك ، فلهذا كان التمنّي يورث صاحبَه الكسل .

وقال أبو علي الرُّوذباريّ : الرجاء والخوف كجناحَيِ الطائر ، إذا استويا استوى الطائر وتمّ طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر في حدّ الموتِ .

وقال أبو عثمان المغربيّ: من حَمَل نفسه على الرّجاء تعطّل، ومَنْ حمل نفسه على الخوف قنط ، ولكن مِنْ هذا مرّة ومن هذا مرة .

ومن كلام يحيى بن معاذ ــ ويروى عن عليّ بن الحسين عليهما السلام : يكاد رجائي لك مع الذنوب ، يغلب رجائي لك مع الأعمال ؛ لأني أجدُني أعتمد في الأعمال على

---

(١) سورة آل عمران ٢٨ .
(٢) سورة العنكبوت ٥ .

الإخلاص ، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك! وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف .

* * *

ومنها الحزن ، وهو من أوصاف أهل السّلوك .

وقال أبو عليّ الدّقاق: صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لا يقطعه مَن فقد الحزن في سنتين .

وفي الخبر النبوي صلى الله عليه وآله : « إنّ الله يحبّ كلّ قلبٍ حزين » .

وفي بعض كتب النبوّات القديمة : « إذا أحبّ الله عبداً نصب في قلبه نائحة ، وإذا أبغض عبداً جعل في قلبه مِزْماراً » .

وروى أن رسول الله صلّى الله عليه وآله كان متواصلَ الأحزان ، دائم الفكر .

وقيل : إنّ القلب إذا لم يكن فيه حزن خَرِب ؛ كأنّ الدار إذا لم يكن فيها ساكن خرِبت.

وسمعت رابعة رجلاً يقول : واحُزْناه ! فقالت : قُلْ واقلّة حُزْناه ! لو كنتَ محزونا ما تهيّأ لك أن تتنفّس !

وقال سُفْيان بن عُيينة : لو أن محزوناً بكَى في أمّة ، لرحِم الله تلك الأمّة ببكائه .

وكان بعض هؤلاء القوم إذا سافر واحدٌ من أصحابه يقول : إذا رأيت محزوناً فأقرئه عنّي السّلام .

وكان الحسن البصريّ لا يراه أحدٌ إلاّ ظنّ أنه حديث عهد بمصيبة .

وقال وكيع يوم مات الفُضَيل : ذهب الحزن اليوم من الأرض .

وقال بعض السّلَف : أكثر ما يجدُه[1] المؤمن في صحيفته من الحسنات الحزنُ والهمّ .

---

(١) ب : « يوجده » ، وما أثبته من ا .

وقال الفُضَيل : أدركت السلفَ يقولون : إنّ لله فى كلّ شىء زكاةً ، وزكاة العقل طول الحزن .

* * *

ومنها الجوعُ وترك الشهوات ، وقد تقدّم ذكر ذلك .

* * *

ومنها الخشوع والتواضع ، قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾[1] .

وفى الخبر النبوىّ عنه صلّى الله عليه وآله : « لايدخلُ الجنةَ مَنْ فى قلبه مثقال ذرّة من كِبْر ، ولا يدخل النار مَنْ فى قلبه مثقال ذَرّة من إيمان » ، فقال رجل : يارسولَ الله ، إنّ المرء لَيُحبّ أن يكون ثوبُه حسناً ، فقال : « إنّ الله جميل يحبّ الجمال ؛ إنّما المتكبّر مَنْ بطر الحقّ ، وغمص الناس » .

وروى أنس بن مالك ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يعود المريضَ ، ويشيّع الجنائز ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبْد .

وكان يوم قُرَيْظة والنّضير على حمار مخطوم بحبل من ليفٍ ، عليه إكاف من ليف .

ودخل مكّة يوم فتحها راكب بعيرٍ ، برَحْل خَلَق ، وإنّ ذقنه لتمسّ وسط الرَّحْل خضوعاً لله تعالى وخشوعاً ، وجيشه يومئذ عشرة آلاف .

قالوا فى حدّ الخشوع : هو الانقياد للحقّ . وفى التواضع : هو الاستسلام وترك الاعتراض على الحكم .

وقال بعضهم : الخشوع قيام القلب بين يدى الحقّ بهمّ مجموع .

وقال حُذَيفة بن اليَمان : أوّل ماتفقدون من دينكم الخشوع .

---

(١) سورة المؤمنين ٢ .

وكان يقال: منْ علامات الخشوع أنّ العبد إذا أغضِب أو خولف أو رُدّ عليه استقبل ذلك بالقبول .

وقال محمد بن على التِّرمذىّ : الخاشع مَنْ خمدت نيران شهوته ، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم فى قلبه . فماتت حواسه وحَيِيَ قلبه ، وتطامنت جوارحه .

وقال الحسن : الخشوع هو الخوف الدائم اللازم للقلب .

وقال الجُنَيْد : الخشوع تذلل القلوبِ لعلام الغُيوب ، قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ، أى خاشعون متواضعون .

ورأى بعضهم رجلًا منقبض الظاهر ، منكسر الشاهد ، قد زوى منكبيه ، فقال : يا فلان ، الخشوع ها هنا ــ وأشار إلى صدره ، لا ها هنا ــ وأشار إلى منكبيه .

ورُوِىَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله رأى رجلًا يعبث بلحيته فى صلاته ، فقال: « لو خشع قلب هذا لخشعتْ جوارحه » .

وقيل : شرط الخشوع فى الصَّلاة ألا يعرف مَنْ على يمينه ، ولا مَنْ على شماله .

وقال بعض الصوفية : الخشوع قُشَعْريرة تردُ على القَلْب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة .

وكان يقال : مَنْ لم يتضعْ عند نفسه لم يرتفع عند غيره .

وقيل : إن عمر بن عبد العزيز لم يكن يسجد إلا على التراب .

وكان عمر بن الخطاب يُسرع فى المشى ، ويقول : هو أنجح للحاجة ، وأبعد من الزَّهو .

كان رجاء بن حَيْوة ليلةً عند عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، فضعف المصباح ، فقام رجل ليصلحه ، فقال : اجلس ، فليس من الكرم أن يستخدم المرء ضيفَه ، فقال :

أنبه[1] الغلام ، قال : إنها أوّل نومةٍ نامها ، ثم قام بنفسه فأصلح السراج . فقال رجاء : أتقوم إلى السراج وأنت أمير المؤمنين ! قال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر ابن عبد العزيز .

وفى حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله كان يعلِفُ البعير ويقمُّ البيتَ ، ويخصِف النّعل ويرقع الثّوب ، ويحلُب الشاة ، ويأكل مع الخادم . ويطحن معها إذا أعيت . وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السّوق إلى منزل أهله ، وكان يصافح الغنىّ والفقير ، ويسلّم مبتدئا ، ولا يحقِر ما دُعِىَ إليه ولو إلى حَشَف التّمر .

وكان هين المؤنة ، لّين الخلُق، كريم السجيّة ، جميل المعاشرة ، طلْق الوجه، بساما من غير ضحك ، محزونا من غير عُبوس، متواضعا من غير ذلّة، جواداً من غير سَرَف، رقيق القلب ، رحيما لكلّ مسلم ، ما تجشّأ قطّ من شبع ، ولا مدّ يده إلى طمَع .

وقال الفُضيل : أوحَى الله إلى الجبال أنى مكلّم على واحد منكم نبيا ، فتطاولتِ الجبال ، وتواضع طور سيناء ، فكلّم الله عليه موسى لتواضعه .

سئل الُجنيد عن التواضع ، فقال : خَفْض الجناح ، ولين الجانب .

ابن المبارك : التكبر على الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع .

وقيل لأبى يزيد : متى يكونُ الرّجل متواضعا ؟ قال : إذا لم يرَ لنفسه مقاما ولا حالا، ولا يرى أنّ فى الخلْق مَنْ هو شرٌّ منه .

وكان يقال : التواضُع نعمة لا يحسد عليها ، والتكبر محنةٌ لا يرحَم منها ، والعزّ فى التواضع ، فمن طلبه فى الكبر لم يجده .

وكان يقال : الشّرف فى التواضع ، والعزّ فى التقوى ، والحرّية فى القناعة .

يحيي بن معاذ : التواضع حَسَنٌ فى كلّ أحد ؛ لكنّه فى الأغنياء أحسن ، والتكبر سمِجٌ فى كلّ أحد ، ولكنه فى الفقراء أسمج .

(١) ب : « انتبه » تصحيف .

وركب زيد بن ثابت ، فدنا ابنُ عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مه يابن عمّ رسول الله! فقال : إنّا كذا أُمِرْنا أن نفعل بعلمائنا ، فقال زيد : أرنى يدك ، فأخرجها فقبّلها، فقال: هكذا أُمِرْنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا .

وقال عُروة بن الزبير : رأيتُ عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى وعلى عاتقِه قِرْبة ماء ، فقلت : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنّه لاينبغى لمثلك هذا ! فقال : إنّه لما أتتنى الوفود سامعةً مطاوِعة ، دخلتْ نفسي نخوة ، فأحببت أن أكسِرها . ومضى بالقربة إلى حُجْرة امرأة من الأنصار ، فأفرغها فى إنائها.

أبو سليمان الدارانىّ : مَنْ رأى لنفسه قيمة ، لم يذق حلاوة الخدْمة .

يحيى بن مُعاذ : التكبّر على مَنْ تكبّر عليك تواضع .

بِشْر الحافى : سلّموا على أبناء الدّنيا بترك السلام عليهم .

بلغ عمرَ بن عبد العزيز أنّ ابناً له اشترى خاتما بألف درهم ، فكتب إليه : بلغنى أنك اشتريت خاتما وفصُّه بألف درهم ، فإذا أتاك كتابى فبِعْ الخاتم ، وأشبِع به ألف بطن ، واتّخذْ خاتماً من درهمين ، واجعل فصّه حديدا صينياً ، واكتب عليه : «رحم الله امرأ عرَف قدره » .

قُوِّمت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطُب أيّام خلافته باثنى عشر درهما، وهى: قَبَاء، وعمامة ، وقميص ، وسراويل ، ورداء ، وخُفّان ، وقلنسوة .

وقال إبراهيم بن أدهم : ماسررت قطّ سرورى فى أيام ثلاثة : كنت فى سفينة ، وفيها رجل مضحِك ، كان يلعَبُ لأهل [1] السفينة ، فيقول : كنّا نأخذ العِلْجَ من بلاد الترك هكذا ، ويأخذ بشعر رأسى فيهزّنى ، فسرّنى ذلك ، لأنه لم يكن فى تلك السفينة أحقر منّى فى عينه . وكنت عليلا فى مسجد ، فدخل المؤذن وقال : اخرج ، فلم أطق ، فأخذ

---

(١) فى الأصول : « أهل » .

برجلي وجرّني إلى خارج المسجد . وكنت بالشام وعليّ فرو، فنظرت إليه فلم أميّز بين الشعر وبين القمل لكثرته .

عُرِض على بعض الأمراء مملوكٌ بألوف من الدراهم ، فاستكثر الثمن ؛ فقال العبد: اشترني يامولايَ ، ففيّ خصلة تساوي أكثر من هذا الثمن . قال : ماهي ؟ قال : لو قدّمتني على جميع مماليكك وخوّلتني بكلّ مالك لم أغلظ في نفسي ، بل أعلم أني عبدُك . فاشتراه .

تشاجر أبو ذرّ وبلال ، فعيّر أبو ذرّ بلالا بالسّواد ، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : ياأبا ذرّ ، ماعلمتُ أنه قد بَقِيَ في قلبك شيء من كِبْر الجاهليّة . فألقى أبو ذرّ نفسه ، وحلَف ألاّ يحمل رأسه حتى يطأ بلال خدّه بقدمه ؛ فما رفع رأسه حتى فعَل بلال ذلك .

مرّ الحسنُ بن عليّ عليهما السلام بصبيان يلعبون ، وبين أيديهم كِسَر خبز يأكلونها، فدعوه فنزل وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله ، فأطعمهم وكساهم ، وقال : الفضل لهم، لأنّهم لم يجدوا غيرَ ما أطعموني ، ونحن نجد أكثر ممّا أطعمناهم .

* * *

ومنها مخالفة النّفس ، وذكر عيوبها ، وقد تقدم ذكر ذلك .

* * *

ومنها القناعة ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (١) ، قال كثير من المفسرين : هي القناعة .

وفي الحديث النبوي ـ ويقال إنّه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : « القناعة كنز لاينفد » .

---

(١) سورة النحل ٩٧ .

وفى الحديث النبوى أيضا : « كن ورِعاً تكنْ أعبَدَ النّاس، وكن قنوعا تكنْ أشكر الناس ، وأحبّ للناس ماتحبّ لنفسك تكن مؤمنا ، وأحسن مجاورة مَنْ جاورك تكن مسلما ، وأقلّ الضّحِك ، فإنّ كثرة الضحك تميتُ القلب » .

وكان يقال : الفقراء أمواتٌ إلّا مَنْ أحياه الله تعالى بعزّ القناعة .

وقال أبو سليمان الدارانىّ : القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزّهد ، هذا أول الرضا. وهذا أول الزهد .

وقيل : القناعة سكون النفس وعدم انزعاجها عند عدم المألوفات .

وقيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقًا حَسَنًا[1] ﴾ : إنّه القناعة .

وقال أبو بكر المراغىّ : العاقل مَنْ دبّر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ؛ وأنكر أبو عبد الله بن خفيف ، فقال : القناعة ترك التسويف بالمفقود ، والاستغناء بالموجود .

وكان يقال : خرج العزّ والغنى يجولان ، فلقيا القناعة ، فاستقرّا .

وكان يقال : مَنْ كانت قناعته سمينة طابت له كلُّ مرَقة .

مرّ أبو حازم الأعرج بقصّاب ، فقال له : خذ يا أبا حازم ، فقال : ليس معى درهم ، قال : أنا أنظِرُك ، قال : نفسى أحسن نظِرةً لى منك .

وقيل : وضع الله تعالى خمسة أشياء فى خمسة مواضع : العزّ فى الطاعة ، والذلّ فى المعصية ، والهيبة فى قيام الليل ، والحكمة فى البطن الخالى ، والغنى فى القناعة .

وكان يقال : انتقِم من فلان بالقناعة ، كما تَنْتَقِم من قاتلك بالقصاص .

ذو النون المصرى : مَنْ قنع استراح من أهل زمانه ، واستطال على أقرانه .

وأنشدوا :

وَأَحْسَنُ بالفتى من يوم عـارٍ يُنَالُ به الغنى ، كَرَمٌ وجُوعُ

---

(١) سورة الحج ٥٨ .

ورأى رجل حكيما يأكل ماتساقط من البقل على رأس الماء ، فقال له : لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا ! فقال : وأنت لو قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان .

وقيل : العقاب عزيز فى مطاره ، لا تسمو إليه مطامع الصيادين ، فإذا طمع فى جيفة علقت على حبالة ، نزل من مطاره فنشب فى الأحبولة .

وقيل : لما نطق موسى بذكر الطمع ،فقال : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجراً ﴾[1] ، قال له الخضر : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾[1]

وفسّر بعضهم قوله : ﴿ هَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾[2] ، فقال : مقاما فى القناعة لايبلغه أحد .

***

ومنها التوكّل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[3]

وقال سهل بن عبد الله : أوّلُ مقامٍ فى التوكّل أن يكونَ العبد بين يدى الله تعالى ، كالميت بين يدى الغاسل ، يقلّبه كيف يشاء ، لايكون له حركة ، ولا تدبير .

وقال رجل لحاتم الأصمّ : من أين تأكل ؟ فقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[4].

وقال أصحاب هذا الشأن : التوكّل بالقلب ، وليس ينافيه الحركة بالجسد ، بعدأن يتحقّق العبد أنّ التقدير من الله ، فإنْ تعسّر شىء فبتقديره ، وإنْ تسهّل فبتيسيره .

---

(١) سورة الكهف ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) سورة ص ٣٥ .

(٣) سورة الطلاق ٣ .

(٤) سورة المنافقون ٧ .

وفى الخبر النبوى أنه عليه السلام قال للأعرابىّ الذى ترك ناقته مهملة فندّت ، فلمّا قيل له ، قال : توكّلت فتركتها ، فقال عليه السلام : « اعقِلْ وتوكّل » .

وقال ذُو النون : التوكّل الانخلاع من الحول والقوّة ، وترك تدبير الأسباب

وقال بعضُهم : التوكّل ردّ العيش إلى يوم واحدٍ بإسقاط همّ غدٍ .

وقال أبو علىّ الدقاق : التوكّل ثلاثُ درجات : التوكّل وهو أدناها ، ثم التسليم ، ثم التفويض ؛ فالأولى للعوامّ ، والثانية للخواصّ ، والثالثة لخواصّ الخواصّ .

جاء رجلٌ إلى الشِّبْلِىّ يشكو إليه كثرة العيال، فقال : ارجع إلى بيتك ، فمن وجدت منهم ليس رزقه على الله فأخرجه من البيت .

وقال سهل بن عبدالله : مَنْ طَعَن فى التوكّل فقد طعَن فى الإيمان ، ومَنْ طَعَن فى الحركة ، فقد طعن فى السنة .

وكان يقال : المتوكّل كالطفل لا يعرف شيئا يأوِى إليه إلا ثدى أمه ، كذلك المتوكل لا يهتدى إلا إلى ربه .

ورأى أبو سليمان الدارانىّ رجلا بمكّة لا يتناول شيئا إلا شربةً من ماء زمزم ، فمضت عليه أيام ، فقال له يوما : أرأيتِ لو غارت — أى زمزم — أىّ شىء كنت تشرب ! فقام وقبّل رأسه ، وقال : جزاك الله خيرا حيث أرشدتنِى ؛ فإنى كنت أعبد زمزم منذ أيام . ثم تركه ومضى .

وقيل : التوكل نفى الشُّكوك ، والتفويض إلى مالك الملوك .

ودخل جماعة على الجُنيد ، فقالوا : نطلب الرزق ! قال : إن علمتم فى أىّ موضع هو فاطلبوه ، قالوا : فنسأل الله ذلك ، قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكّروه ، قالوا : ندخل البيت فنتوكّل ، قال : التجربة شكّ ، قالوا : فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

وقيل : التوكّل الثقة بالله واليأس عمّا فى أيدى الناس .

* * *

ومنها الشّكر ، وقد تقدّم منّا ذكر كثير مما قيل فيه .

* * *

ومنها اليقين وهو مقام جليل ، قال الله : تعالى ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[1] .

وقال علىّ بن أبى طالب عليه السلام : لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقينا .

وقال سهل بن عبد الله : حرام عَلَى قلب أن يشم رائحة اليقين ، وفيه شكوى إلى غير الله .

وذكر للنبي صلى الله عليه وآله ما يقال عن عيسى بن مريم عليه السلام أنّه مشى على الماء ، فقال : لو ازداد يقينا لمشى عَلَى الهواء .

وفى الخبر المرفوع عنه صلى الله عليه وآله ، أنه قال لعبدالله بن مسعود : « لا ترضين أحداً بسخط الله ، ولا تحمدَنّ أحداً عَلَى فضل الله ، ولا تذمن أحداً عَلَى ما لم يؤتك الله . واعلم أن الرزق لا يسوقه حرص حريص ، ولا يردّه كراهة كاره ، وأنّ الله جعل الرّوْح والفرَح فى الرّضا واليقين ، وجعل الهمّ والحزن فى الشكّ والسخط » .

* * *

ومنها الصبر ، قال الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ ﴾[2] .

وقال علىّ عليه السلام : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

وسئل الفُضَيل عن الصبر ، قال : تجرّع المرارة من غير تعبيس .

وقال رويم : الصّبر ترك الشكوى .

---

(١) سورة البقرة ٤ .

(٢) سورة النحل ١٢٧ .

وقال علىّ عليه السلام : الصَّبْر مطيّة لا تكبو .

وقف رجل على الشِّبلىّ ، فقال : أىّ صبرٍ أشدّ عَلَى الصابرين ؟ قال الشِّبلىّ : الصّبر فى الله تعالى ، فقال : لا ، قال : فالصبر لله ، فقال : لا ، قال : فالصبر مع الله تعالى ، فقال : لا ، قال : فأى شىء ؟ قال الصبر عن الله . فصرخ الشِّبلىّ صرخة عظيمة ، ووقع .

ويقال إنّ الشِّبلىّ حُبِس فى المارستان ، فدخل عليه قوم ، فقال : مَنْ أنتم ؟ قالوا : محبّوك جئناك زائرين ، فرماهم بالحجارة فهربوا ، فقال : لو كنتم أحبّاىَ ، لصبرتم على بلائى .

وجاء فى بعض الأخبار ، عن الله تعالى : بعينى ما يتحمّل المتحمّلون من أجلى .

وقال عمر بن الخطاب : لو كان الصّبر والشكر بعيرَيْن لم أبالِ أيّهما ركبت .

وفى الحديث المرفوع : « الإيمان الصّبر والسخاء » .

وفى الخبر : العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل قائده ، والرفق والده ، والبرّ أخوه ، والصبر أمير جنوده . قالوا : فناهيك بشرف خصلة تتأمّر عَلَى هذه الخصال ! والمعنى أنّ الثبات عَلَى هذهِ الخصال واستدامة التخلّق بها إنما يكون بالصبر ، فلذلك كان أمير الجنود .

* * *

ومنها المراقبة ، جاء فى الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله : أنّ سائلا سأله عن الإحسان ، فقال : « أن تعبد الله كأنّك تراهُ ، فإن لم تكن تراهُ ، فإنه يراك » .

وهذه إشارة إلى حال المراقبة ، لأن المراقبة علم العبد باطلاع الربّ عليه ، فاستدامة العبد لهذا العلم مراقبة لربّه ، وهو أصل كلّ خير ، ولا يكاد يصل[1] إلى هذه الرّتبة إلا بعد فراغه عن المحاسبة ، فإذا حاسب نفسَه على ما سلف ، وأصلح حالَه فى الوقت ،

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « يوصل » .

ولازم طريق الحقّ ، وأحسن بينه وبين الله تعالى بمراعاة القلب ، وحفظ مع الله سبحانه الأنفاس ، راقبه تعالى فى عموم أحواله ، فيعلم أنه تعالى رقيب عليه ، يعلم أحواله ، ويرى أفعالَه ، ويسمع أقواله . ومَنْ تغافل عن هذه الجملة ، فهو بمعزل عن بداية الوصلة ، فكيف عن حقائق القربة !

ويحكى أنّ ملكا كان يتحظّى جارية له ، وكان لوزيره ميل باطنٌ إليها ؛ فكان يسعى فى مصالحها ، ويرجّح جانبها على جانب غيرها من حظايا الملك ونسائه . فاتّفق أن عرض عليها الملك حَجَرَيْن من الياقوت الأحمر : أحدهما أنفس من الآخر ، بمحضر من وزيره ، فتحيّرت أيّهما تأخذ ! فأومأ الوزير بعينه إلى الحجر الأنفس ، وحانت من الملك التفاتة ، فشاهد عين الوزير وهى مائلة إلى ذلك الجانب ، فبقِىَ الوزير بعدها أربعين سنة لا يراه الملك قط إلا كاسرا عينه نحو الجانب الذى كان طرفُه مائلا إليه ذلك اليوم ، أى كأنّ[1] ذلك خِلقة . وهذا عزم قوىٌّ فى المراقبة ، ومثله فليكن حالُ من يريد الوصول .

ويحكى أيضا أنّ أميرا كان له غلام يُقبِل عليه أكثر من إقباله على غيره من مماليكه، ولم يكن أكثرهم قيمة ، ولا أحسنهم صورة ، فقيل له فى ذلك ، فأحبّ أن يبيِّن لهم فضل الغلام فى الخدْمة على غيره ، فكان يوما راكبا ، ومعه حشمه ، وبالبعد منهم جبل عليه ثلج فنظر الأمير إلى الثلج وأطرق ، فركض الغلام فرسه ، ولم يعلم الغلمان لماذا ركض ! فلم يلبث إلا قليلا حتى جاء ومعه شىء من الثلج ، فقال الأمير : ما أدراك أنى أردت الثلج ! فقال : إنك نظرت إليه ، ونظرُ السلطان إلى شىء لا يكون إلا عن قصد . فقال الأميرُ لغلمانه : إنما أختصّه بإكرامى وإقبالى ، لأن لكلٍّ واحد منكم شغلاً ، وشغله مراعاة لَحَظَاتى ، ومراقبة أحوالى .

---

(١) ب : « أن » .

وقال بعضهم : منْ راقب الله في خواطره ، عصمه الله في جوارحه .

***

ومنها الرضا ، وهو أن يرضى العبد بالشدائد والمصائب التي يقضيها الله تعالى عليه ، وليس المراد بالرضا رضا العبد بالمعاصي والفواحش ، أو نسبتها إلى الربّ تعالى عنها ؛ فإنه سبحانه لا يرضاها ، كما قال جلّ جلاله : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾[1] .

وقال : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾[2] .

قال رويم : الرّضا أن لو أدخلك جهنّم لما سخطت عليه .

وقيل لبعضهم : متى يكون العبد راضياً ؟ قال : إذا سرّته المصيبة ، كما سرّته النعمة .

قال الشبليّ مرة ـ والجنيد حاضر : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال الجنيد : أرى أنّ قولك هذا ضيقُ صَدْر ، وضيق الصدر يجيء من ترك الرضا بالقضاء .

وقال أبو سليمان الدارنيّ : الرضا ألاّ تسأل الله الجنة ، ولا تستعيذ به من النار .

وقال تعالى فيمن سخط قسمته : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا منها إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[3] .

ثم نبّه على ما حرمُوه من فضيلة الرضا ، فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُه إِنَّا إِلَى ٱللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾[3] ، وجواب « لو » ها هنا محذوف لفهم المخاطب وعلمه به .

---

(١) سورة الزمر ٧ .
(٢) سورة الإسراء ٣٨ .
(٣) سورة التوبة ٥٨ ، ٥٩

وفى حذفه فائدة لطيفة وهو أن تقديره « ارضى الله عنهم » ، ولمّا كان رضاه عن عباده مقاما جليلا جداً حذف ذكره ؛ لأنّ الذكر له لاينبئ عن كنهه ، وحقيقة فضله ، فكان الإضراب عن ذكره أبلَغ فى تعظيم مقامه .

ومن الأخبار المرفوعة أنه صلّى الله عليه وآله قال : « اللهمّ إنّى أسألك الرضا بعد القضاء » ؛ قالوا : إنّما قال : « بعد القضاء » لأنّ الرّضا قبل القضاء لا يتصوّر ، وإنما يتصوّر توطين النفس عليه ، وإنما يتحقق الرضا بالشىء بعد وقوع ذلك الشىء .

وفى الحديث أنّه قال لابن عباس بوصيه : « اعمل لله باليقين والرّضا ؛ فإن لم يكن فاصبر ، فإنّ فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا » .

وفى الحديث أنّه صلى الله عليه وآله رأى رجلاً من أصحابه ، وقد أجهده المرض والحاجة ، فقال : ما الّذى بلغ بك ما أرى ؟ قال : المرض والحاجة ، قال : أولا أعلّمك كلاما إن أنت قلته أذهب الله عنك ما بك ! قال : والّذى نفسى بيده ما يسرّنى بحظّى منهما أنْ شهدت معك بدراً والحديبية ! فقال صلى الله عليه وآله « وهل لأهل بدرٍ والحديبية ما للراضى والقانع ! »

وقال أبو الدرداء : ذِروة الإيمان الصّبر والرضا .

قدم سعد بن أبى وقاص مكّة بعد ما كُفّ بصره ، فانثال الناس عليه يسألونه الدعاء لهم ، فقال له عبد الله بن السائب : يا عمّ إنك تدعُو للنّاس فيُستجاب لك ، هلا دعوت أن يردّ عليك بصرك ! فقال : يابن أخى ، قضاء الله تعالى أحبُّ إلىّ من بصرى .

عمر بن عبد العزيز : أصبحتُ ومالى سرور إلا فى مواقع القَدَر .

وكان يقال : الرضا اطراح الاقتراح على العالم بالصلاح ، وكان يقال : إذا كان القَدَر حقّا كان سخطه حمقا .

وكان يقال : مَنْ رَضِيَ حَظِيَ . ومنْ اطّرح الاقتراح ، أفلح واستراح .

وكان يقال : كنْ بالرّضا عاملًا ، قبل أن تكون له معمولا ، وسر إليه عادلا وإلا سرت نحوه معدولًا .

وقيل للحسن : من أين أُتِيَ الخلق ؟ قال : مِنْ قلّة الرضا عن الله ، فقيل : ومِنْ أين دخلَتْ عليهم قلّة الرضا عن الله ؟ قال : من قلّة المعرفة بالله .

وقال صاحب[1] " سُلْوان المطاع " فى الرّضا[2] :

يا مفزعى فيما يجىء وراجِى فيما مضى
عندى لما تقضيه ما يرضيك من حُسْنِ الرضا
ومن القطيعة أستعيذُ مصرّحا ومعرّضا

وقال أيضا[3] :

كُنْ من مدبّرك الحكيم عَلَا وَجَلّ على وَجَلْ
وارْضَ القضاء فإنّهُ حتم أجل ، وله أجلْ

وقال أيضا[4] :

يامن يرى حالى وأن ليس لى ... فى غير قربى منه أوْطَارُ[5]
وليس لى ملتحَدٌ دونهُ ... ولا عليه لى أنصارُ
حاشا الذاك العزّ والفضل أنْ ... يهلك مَنْ أنت له جارُ
وإن تشأ هُلْكِى فهبْ لى رضًا ... بكلّ ما تقضى وتختارُ

---

(١) هو شمس الدين أبو عبد الله عبد الله محمد بن محمد بن ظفر المكى ، المتوفى سنة ٥٦٥ .
(٢) سلوان المطاع ص ٦٦
(٣) سلوان المطاع ص ٦٦
(٤) سلوان المطاع ص ٦٦ ، ٦٧
(٥) فى سلوان المطاع : فى غير ما يرضيه أوطار .

عنـدى لأحكامِك يامالـكِى قلب كما أنعمت صبّـــارُ (١)
كلّ عذاب منـك مستعذَبٌ مالم يـكن سخطك والنّارُ (٢)

***

ومنها العبودية ، وهى أمر وراء العبادة ؛ معناها التعبّد والتذلّل . قالوا: العبادة للعوامّ من المؤمنين ، والعبوديّة للخواصّ من السالـكين.

وقال أبو على الدّقاق : العبادة لمن له علم اليقين ، والعبوديّة لمن له عين اليقين .

وسئل محمد بن خفيف : متى تصحّ العبوديّة ؟ فقال : إذا طرح كلّه على مولاه ، وصبَر معه على بلواه .

وقال بعضهم : العبوديّة معانقة ما أُمرت به ، ومفارقة ما زجرت عنه .

وقيل : العبوديّة أن تسلِّم إليه كلّك ، وتحمل عليه كلّك .

وفى الحديث المرفوع : « تعِس عبدُ الدّينار ، وتعِس عبدُ الخيصة » .

رأى أبو يزيد البِسطامىّ رجلا، فقال له : ما حرفتك ؟ قال خَرْبنده ، قال : أمات الله حِمارك ؛ لتكون عبداً لله ، لا عبداً للحمار.

وكان ببغـداد فى رِباط شيخ الشّيوخ ، صوفىّ كبير اللِّحيــة جدًّا ، وكان مغرًى ، ومعنًى بها أكثر زمانه ، يدهنها ويسرّحها ، ويجعلها ليلاً عند نومه فى كيس ، فقام بعض المريدين إليه فى الليل ، وهو نائم ، فقصّها من الأذن إلى الأذن ، فأصبحت كالصَّرِيم . وأصبح الصوفىّ شاكيا إلى شيخ الرِّباط ، فجمع الصوفيّة وسألهم ، فقال المريد : أنا قصصتُها ، قال : وكيف فعلت ، ويلك ذلك ! قال : أيّها الشيخ ، إنها كانت صنمَه ، وكان يعبدها من دون الله ، فأنـكرت ذلك بقلبى ، وأردتُ أن أجعلَه عبداً لله لا عبداً لِلّحية .

---

(١) هذا البيت ساقط من السلوان .

(٢) فى السلوان : بعدك والنار .

قالوا : وليس شيء أشرفَ من العبوديّة ، ولا اسم أتمّ للمؤمن من اسمه بالعبودّية ، ولذلك قال سبحانه فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله ليلة المعراج ، وكان ذلك الوقت أشرفَ أوقاته فى الدنيا : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾[1]. وقال تعـالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾[2]؛ فلو كان اسم أجلّ من العبودية لسمّاه به .

وأنشدوا :

لاتدعُنى إلّا بِيـاعَبْدهَا فـإنّه أشرَفُ أسمائى

* * *

ومنها الإرادة ، قال تعـالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[3].

قالوا : الإرادة هى بَدْء طريق السالكين ، وهى اسم لأوّل منازل القاصدين إلى الله ، وإنّما سُمّيت هذه الصفة إرادة ، لأنّ الإرادة مقدّمة كلّ أمر ، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله ، فلمّا كان هذا الشأن أوّل الأمر لمن يسلك طريق الله سمّى إرادة ، تشبيهاً له بالقصد إلى الأمور التى هو مقدّمتها .

قالوا : والمريد على موجب الاشتقاق: مَنْ له إرادة ؛ ولـكنّ المريدفى هذا الاصطلاح مَنْ لا إرادة له، فما لم يتجرّد عن إرادته لايكون مريداً، كما أنّ من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لايكون مريدا .

وقد اختلفوا فى العبارات الدالّة على ماهيّة الإرادة فى اصطلاحهم ، فقـال بعضهم : الإرادة ترْك ما عليـه العادة ، وعادة النّاس فى الغالب التّعريج على أوْطان الغفـلة ،

---

(١) سورة الإسراء ١ .

(٢) سورة النجم ١٠ .

(٣) سورة الأنعام ٥٢ .

والركون إلى اتباع الشهوة ، والإخلاد إلى مادعتْ إليه المنيّــة ، والمريد هو المنسلخ عن هذه الجملة .

وقال بعضهم : الإرادةُ نهوض القلب ،فى طلب الربّ ؛ ولهذا قيل : إنّها لوعةٌتهوّن كلّ روعة .

وقال :أبو علىّ الدقّاق : الإرادةلوعةٌ فىالفؤاد ،ولذعةٌ فى القلب، وغرامٌ فىالضمير، وانزعاج فى الباطن ، ونيران تأجّج فى القلوب .

وقال ممشاذ الدينورىّ : مذعلمت أنّ أحوالَ الفقراءجدٌّ كلّها لم أمازح فقيراً،وذلك أنّ فقيراً قدم علىّ ، فقال : أيّها الشيخ ، أريد أن تتخذ لى عصيــدة ، فجرى على لسانى «إرادة وعصيدة» ، فتأخر الفقير ولم أشعر،فأمرتُ باتخاذعصيدة ،وطلبته فلم أجده،فتعرّفتُ خبرَه، فقيل:إنّه انصرفمن فوره ،وهو يقول «إرادة وعصيدة، إرادة وعصيدة!»،وهامَ علَى وجهِ ، حتّى خرج إلى البادية ، وهو يكرّر هذه الـكلمة ، فما زال يقول ويردّدها حتى مات .

وحكى بعضُهم ، قال : كنتُ بالباديةِ وحدى ، فضاق صدرى ، فصحتُ : ياإنْس كلّمونى ، ياجنّ كلّمونى ! فهتف هاتفٌ : أىّ شىء ناديت ؟ فقلت : الله ، فقال الهاتف: كذبتَ ، لو أردته لما ناديتَ الإنس ، ولا الجنّ .

فالمريد هو الّذى لايشغلـه عن الله شىء ، ولا يفتر آناء الليل وأطراف النهـار ، فهو فى الظّاهر بنعت المجاهدات، وفى الباطن بوصف المـكابدات ، فارق الفراش ،ولازم الانـكماش، وتحمّل المصاعب ،وركب المتاعب ،وعالج الأخلاق ، ومارس المشاقّ ،وعانق الأهوال ، وفارق الأشـكال ، فهو كما قيل :

ثمّ قطعتُ اللّيــلَ فى مَهْمَهٍ ... لا أســـــداً أخشَى ولا ذِيبا

يغلبنى شوقٍ فأطوى السُّرَى   ولم يزلْ ذو الشّوق مغـــــلوبا

وقيل : من صفات المريدين التحبّب إليه بالتوكّل ، والإخلاص فى نصيحة الأمة ، والأنس بالخلوة ، والصبر على مقاساة الأحكام ، والإيثار لأمره ، والحياء من نظره ، وبذل المجهود فى محبّته ، والتعرّض لـكلّ سبب يوصّل إليه ، والقناعة بالخمول ، وعدم الفرار من القلْب ، إلى أن يصلَ إلى الربّ .

وقال بعضهم : آفة المريد ثلاثة أشياء : التزويج ، وكتْبه الحديث ، والأسفار .

وقيل : من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء : نومُه غَلبة ، وأ كلُه فاقة ، وكلامه ضرورة .

وقال بعضهم : نهاية الإرادة أن يشيرَ إلى الله فيجده مع الإشارة ، فقيل له : وأىّ شىء يستوعِبُ الإرادة ؟ فقال : أن يجد الله بلا إشارة .

وسئل الْجنَيد : ماللمريدين وسماع القصص والحكايات ؟ فقال : الحكايات جندٌ من جند الله تعالى ، يقوّى بها قلوبَ المريدين . فقيل له : هل فى ذلك شاهد ؟ فتلا قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[1] .

وقال أصحابُ الطريقة : بين المريد والمُراد فَرْق ، فالمريد مَنْ سلك الرياضة طلبا للوُصول ، والمراد مَنْ فاضت عليه العناية الإلهية ابتداء ، فـكان مخطوبا لا خاطبا ، وبين الخاطب والمخطوب فرق عظيم .

قالوا : كان مُوسى عليه السلام مريداً ، قال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾[2] وكان محمد صلى الله عليه وسلم مُرادا ، قال له : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[3] ؛ وسئل الجنيد عن

(١) سورة هود ١٢٠ .
(٢) سورة طه ٢٥ .
(٣) سورة الشرح ١ .

المريد والمراد ، فقال : المريد سائر ، والمراد طائر ، ومتى يلحقُ السائرُ الطائر !

أرسل ذو النون المصرىّ رجلا إلى أبى يزيد ، وقال له : إلَى مَتى النّومُ والرّاحة ! قد سارت القافلة ! فقال له أبو يزيد : قل لأخى : الرّجُل مَنْ ينامُ اللّيل كله ، ثم يصبح فى المنزل قبل القافلة . فقال ذو النون : هنيئا له ! هذا الكلام لا تبلغه أحوالنا .

وقد تكلّم الحكماء فى هذا المقام ، فقال أبو علىّ بن سينا فى كتاب " الإشارات " : أوّل درجات حركات العارفين مايسمّونه همّ الإرادة ، وهو مايعترى المستبصر باليقين البرهانىّ ، أو الساكن النفس إلى العقد الإيمانىّ ، من الرغبة فى اعتلاق العروة الوثق ، فيتحرّك سرّه إلى القدس ، لينال من روح الاتّصال ، فما دامت درجته هذه ، فهو مريد .

ثم إنه ليحتاجُ إلى الرّياضة ، والرّياضة ، موجّهة إلى ثلاثة أغراض :

الأوّل : تنحية مادون الحقّ عن مَتْن الإيثار .

والثانى : تطويع النفس الأمّارة للنفس المطمئنة ، لتنجذب قوى التخيّل والوهم إلى التوهّمات المناسبة للأمر القدسىّ ، منصرفة من التوهّمات المناسبة للأمر السفلىّ .

والثالث : تلطيف السرّ لنفسه .

فالأول يعين عليه الزهد الحقيقىّ ، والثانى يعينُ عليه عِدّة أشياء : العبادة المشفوعة بالفكرة ، ثم الألحان المستخدَمة لقوى النفس الموقعة لما لحن بها من الكلام موقع القبول من الأوهام ، ثم نفس الكلام الواعظ من قائل ذكىّ ، بعبارة بليغة ، ونغمة رخيمة ، وسمتٍ رشيد . والثالث يعين عليه الفكر اللطيف ، والعشق العفيف ، الذى تتأمّر فيه شمائل المعشوق ، دون سلطان الشهوة

***

ومنها الاستقامة ، وحقيقتها الدّوام والاستمرار على الحال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا ﴾ (١) .

وسئل بعضهم عن تارك الاستقامة ، فقال : قد ذكر الله ذلك فى كتابه ، فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ (٢) .

وفى الحديث المرفوع : « شَيَّبَتْنِى هُود » ، فقيل له فى ذلك ، فقال قوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ (٤) ، فلم يقل « سقيناهم » بل ﴿ أَسْقَيْنَاهُمْ ﴾ ، أى جعلنا لهم سُقيا دائمة ، وذلك لأنّ مَنْ دام على الخدمة دامت عليه النعمة .

* * *

ومنها الإخلاص ، وهو إفراد الحقّ خاصة فى الطاعة بالقصد والتقرّب إليه بذلك خاصة ، من غير رياء ومن غير أن يمازجه شىء آخر من تصنّع لمخلوق ، أو اكتساب مَحْمَدَة بين النّاس ، أو محبّة مدح ، أو معنًى من المعانى ، ولذلك قال أربابُ هذا الفنّ : الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين .

وقال الخواصُّ من هؤلاء القوم : نقصانُ كل مخلِصٍ فى إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلّص إخلاص عبد أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون مخلَصا لا مخلِصا .

وجاء فى الأثر عن مكحول : ما أخلص عبدٌ لله أربعينَ صباحاً ؛ إلا ظهرتْ ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه

* * *

(١) سورة فصلت ٣٠ .
(٢) سورة النحل ٩٢
(٣) سورة هود ١١٢ .
(٤) سورة الجن ١٦ .

ومنها الصدق ، ويطلق على معنيين : تجنّب الـكذِب ، وتجنّب الرياء ، وقد تقدّم القول فيهما .

***

ومنها الحياء ، وفى الحديث الصحيح : « إذا لم تستحْى فاصنَعْ ماشئت » .

وفى الحديث أيضا : « الحياء من الإيمان » ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾[1] ، قالوا : معناه ألم يستحى !

وفى الحديث أنه قال لأصحابه : « استحيوا منَ الله حقّ الحياء » قالوا : إنا لنستحيى ونحمد الله . قال : « ليس كذلك ؛ من استحيا من الله حقّ الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وليذكر الموت وطول البِلى ، وليترك زينَة الحياة الدنيا ، فمن فعَل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

وقال ابنُ عطاء : العلم الأكبر الهيبة والحياء ، فإذا ذهبا لم يبق خير .

وقال ذو النون : الحبّ ينطق ، والحياء يسكت ، والخوف يقْلق .

وقال السرىّ : الحياء والأنس يطرُقان القلب ، فإن وجدا فيه الزّهد والورع حطّا ، وإلّا رَحَلا .

وكان يقال : تعامل القرن الأوّل من الناس فيما بينهم بالدين حتى رقّ الدين ، ثم تعامل القرن الثانى بالوفاء حتى ذهب الوفاء ، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى فَنِيَت المروءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى قلّ الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرّغبة والرهبة .

---

(١) سورة العلق ١٤ .

وقال الفضيل : خمسٌ من علامات الشقاء : القسوة فى القلب ، وجمود العين ، وقلّة الحياء ، والرغبة فى الدنيا ، وطول الأمل .

وفسّر بعضهم قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾[1] إنّها كان لها صنم فى زاوية البيت ، فمضتْ فألقت على وجهه ثوباً ، فقال يوسف : ماهذا ؟ قالت : أستحيي منه ، قال : فأنا أولى أن أستحيي من الله !

وفى بعض الكتب القديمة : ماأنصفنى عبدى ايدعونى فأستحيي أن أردّه، ويعصينى وأنا أراه ، فلا يستحيي منى .

* * *

ومنها الحرية ؛ وهو ألّا يكون الإنسان بقلبه رقّ شيء من المخلوقات ؛ لامن أغراض الدنيا ، ولا من أغراض الآخرة ؛ فيكون فرداً لفرد لايسترقّه عاجل دنيا ، ولا آجل مُنى ، ولا حاصل هوى ، ولا سؤال ، ولا قصد ، ولا أرَب .

قال له صلّى الله عليه وآله بعضُ أصحاب الصُّفّة : قد عزفتْ نفسي يارسولَ الله عن الدّنيا ، فاستوى عندى ذهبُها وحَجَرُها . قال : صرتَ حرّاً .

وكان بعضهم يقول : لو صحّتْ صلاة بغير قرآن ، لصحّت بهذا البيت :

أتمنّى عَلَى الزّمانِ[2] مُحالًا أنْ ترى مقلتايَ طَلْعةَ حُرٍّ

وسئل الجُنيد عمّن لم يبق له من الدّنيا إلا مقدار مصّ نواة ! فقال : المكاتب عبد ما بَقِي عليه درهم .

* * *

ومنها الذكر ، قال الله تعالى : ﴿ يأيُّها الّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً ﴾[3] .

---

(١) سورة يوسف ٢٤ .

(٢) ب : « من الزمان » ، وما أثبته من ا .

(٣) سورة الأحزاب ٤١ .

وروى أبو الدرداء أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ، قال : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند خالقكم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير من إعطائكم الذهب والفضّة فى سبيل الله ، ومن أن تلقَوْا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ »، قالوا: ما ذلك يارسول الله ؟ قال : « ذكر الله » .

وفى الحديث المرفوع : « لاتقوم السّاعة على أحدٍ يقول : الله الله » .

وقال أبو علىّ الدقاق : الذكر منشور الولاية ، فمن وفّق للذكر فقدأعطىَ المنشور، ومن سلب الذكر فقد عزل .

وقيل : ذكْر الله تعالى بالقلب سيف المريدين ، به يقاتلون أعداءهم ، وبه يدفعون الآفات التى تقصدهم ، وإنّ البلاء إذا أظلّ العبدَ ففزع بقلبه إلى الله حاد عنه كلُّ ما يكرهه .

وفى الخبر المرفوع : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها» ،قيل : ومارياض الجنة ؟ قال : « مجالس الذكر » .

وفى الخبر المرفوع : « أنا جليسُ مَنْ ذكرنى » .

وسمع الشّبلىّ وهو يُنشد :

ذكرتُك لا أنّى نسيتُك لمحةً ... وأيسر ما فى الذّكْر ذكْرُ لسانى
فكدت بلا وجدٍ أموت من الهوَى ... وهامَ علىّ القلبُ بالخفقانِ
فلمّا أرانى الوجد أنك حاضِرى ... شهدتك موجودا بكلّ مكانِ
فخاطبت موجوداً بغير تكلّمٍ ... ولاحظتُ معلوماً بغير عيانِ

***

ومنها الفتوة ، قال سبحانه مخبراً عن أصحاب الأصنام ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ (١) .

وقال تعالى فى أصحاب الكهف : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ (٢) .

وقد اختلفوا فى التعبير عن الفتوّة ما هى ؟ فقال بعضهم : الفتوّة ألّا ترى لنفسك فضلا على غيرك .

وقال بعضهم : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان .

وقالوا : إنّما هتف الملَك يوم أحد بقوله .

لا سيفَ إلا ذو الفقا ر ، ولا فتى إلّا علِيّ

لأنه كسر الأصنام، فسمّيَ بما سُمّيَ بِهِ أبوه إبراهيم الخليل حين كسرها وجعلها جُذاذاً .

قالوا : وصنمَ كلّ إنسان نفسُه ، فمن خالفَ هواه فقد كسر صنَمَه، فاستحقّ أن يطلق عليه لفظ الفتوّة .

وقال الحارث المحاسبيّ : الفتوّة أن تنصف ولا تنتصف .

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل : سئل أبى عن الفتوة ، فقال : ترك ما تهوى لما تخشى .

وقيل : الفتوة ألّا تدخر ولا تعتذر .

سأل شقيق البلخى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، عن الفتوة ، فقال : ماتقول أنت ؟ قال : إن أُعطِينا شكرنا ، وإن مُنِعنا صَبَرْنا . قال : إنّ الكلابَ عندنا بالمدينة هذا شأنها ، ولكن قل : إن أعطِينا آثرْنا ، وإن مُنِعنا شكرنا .

***

(١) سورة الأنبياء ٦٠ .
(١) سورة الكهف ١٣.

ومنها الفراسة ، قيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾[١].
أي للمتفرسين . وقال النبي صلى الله عليه وآله : «اتقوا فراسة المؤمن ، فإنها لا تخطئ» .

قيل : الفراسة سواطع أنوار لمعت فى القلوب، حتى شهدت الأشياء من حيث أشهدها الحقُّ إياها ، وكلّ مَنْ كان أقوى إيمانًا كان أشد فراسة .

وكان يقال : إذا صحت الفراسة ارتقى منها صاحبها إلى المشاهدة .

***

ومنها حسن الخلق ، وهو من صفات العارفين، فقد أثنى الله تعالى به على نبيه ، فقال:
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٢] .

وقيل له صلى الله عليه وآله : أيّ المؤمنين أفضل إيمانًا ؟ فقال : أحسنهم خُلُقًا ، وبالخلُق تظهر جواهر الرجال ، والإنسان مستور بخلْقه مشهور بخلُقه .

وقال بعضهم : حسن الخلُق استصغار ما منك ، واستعظام ما إليك .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : «إنكم لن تسعُوا الناس بأموالكم ، فسعُوهم بأخلاقكم» .

قيل لذى النون : مَنْ أكبر الناس همًّا ؟ قال : أسوؤهم خُلقًا .

وكان يقال : ما تخلّق أحد أربعين صباحا بخُلُقٍ إلا صار ذلك طبيعة فيه .

قال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[٣] أى وخلقك فحسن .

شتم رجلُ الأحنف بن قيس ، وجعل يتبعه ويشتمه ، فلما قرب الحيّ وقف ، وقال: يا فتى ، إن كان قد بقيّ فى قلبك شىء فقله ، كيلا يسمعك سفهاء الحيّ فيجيبوك .

---

(١) سورة الحجر ٧٥ .
(٢) سورة القلم ٤ .
(٣) سورة المدثر ٤ .

ويقال : إن معروفاً الكرخيّ نزل دِجلة ليسبح ، ووضع ثيابه ومصحفه ، فجاءت امرأة فاحتملتهما، فتبعها ، وقال : أنا معروف الكرخيّ ، فلا بأس عليك! ألك ابن يقرأ ؟ قالت : لا ، قال : أفلك بعل ؟ قالت : لا ، قال : فهاتي المصحف ، وخذي الثياب .

قيل لبعضهم : ما أدَب الخلق ؟ قال : ما أدب الله به نبيّه في قوله : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ [1] .

يقال : إنّ في بعض كتب النبوّات القديمة : ياعبدي اذكرني حين تغضَب، أذكرك حين أغضب .

قالت امرأة لمالك بن دينار : يامرائي ! فقال : لقد وجدتِ اسمي الّذي أضلّه أهل البصرة .

قال بعضهم ـ وقد سئل عن غلام سوءٍ له : لِمَ يُمسكه ؟ قال : أتعلّم عليه الحِلْمَ .

وكان يقال : ثلاثة لا يعرَفون إلا عند ثلاثة : الحليمُ عند الغضب ، والشجاع عند الحرب ، والصديق عند الحاجة إليه .

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [2]: الظاهرة تسوية الخَلق ، والباطنة تصفية الخلُق .

الفُضَيل : لأنْ يصحبني فاجر حَسَنُ الخلق أحبُّ إليّ مِنْ أنْ يصحبَنِي عابد سيّئُ الخلق .

خرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البراريّ ، فاستقبله جنديّ فسأله : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشجّه وأدماه ، فلمّا جاوزه قيل له: إنّ ذلك إبراهيم بن أدهم

---

(١) سورة الأعراف ١٩٩ .
(٢) سورة لقمان ٢٠ .

زاهدُ خراسان ! فردّ إليه يعتذر . فقال إبراهيم : إنّك لمّا ضربتَنى سألتُ الله لك الجنة . قال : لِمَ سألت ذلك ؟ قال : علمتُ أنّى أوجر على ضربك لى ، فلم أرد أن يكون نصيبى منك الخير ، ونصيبك منّى الشر .

وقال بعض أصحاب الجُنيد : قدِمتُ من مكّة ، فبدأت بالشيخ كى لا يتعنّى إلىّ ، فسلّمت عليه ، ثم مضيت إلى منزلى ، فلمّا صلّيت الصبح فى المسجد ، إذا أنا به خَلْفى فى الصفّ ، فقلت : إنّما جئتك أمسِ لئلا تتعنّى ! فقال : ذلك فضلُك ، وهذا حقُّك .

كان أبو ذَرّ عَلَى حوضٍ يسقى إبله ، فزاحمه إنسانٌ فكسر الحوض ، فجلس أبو ذرّ ثم اضطجع فقيل له فى ذلك، فقال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله: « إذا غضب الرجل وهو قائم فليْجلس ؛ فإن ذهب عنه ، وإلا فليضطجع » .

دعا إنسانٌ بعض مشاهير الصوفيّة إلى ضيافة، فلمّا حضر باب داره ردّه واعتذر إليه . ثم فعل به مثل ذلك وثانية وثالثة ، والصوفىّ لا يغضب، ولا يضجر ، فدحه ذلك الإنسان وأثنى عليه بحسن الخُلُق ، فقال : إنما تمدحنى على خلُقٍ تجد مثلَه فى الكلب ؛ إن دعوته حضر ، وإن زجرته انزجر .

مرّ بعضُهم وقت الهاجرة بسكّة ، فأُلقِيَ عليه من سطح طست رماد ، فغضب مَنْ كان فى صحبته ، فقال : لا تغضبوا ، من استحقّ أن يُصَبّ عليه النّار فصولح على الرماد، لم يَجُزْ له أن يغضب .

كان لبعض الخياطين جارٌ يدفع إليه ثيابا فيخيطها ، ويدفع إليه أجرتَها دراهم زُيوفا، فيأخذها ، فقام يوماً من حانوته ، واستخلف ولَده ، فجاء الجار بالدّراهم الزائفة ،فدفعها إلى الولد فلم يقبلْها ، فأبدلها بدراهم جيّدة،فلمّا جاء أبوه دفع إليه الدّراهم ، فقال : وَيْحك! هل جرى بينك وبينه أمر ؟ قال : نعم ، إنه أحضَر الدّراهم زُيوفا ، فرددتّها فأحضرهذه،

فقال : بئس ماصدمت ! إنه منذ كذا وكذا سنة يعاملنى بالزائف وأصبر عليه ، وألقيها فى بئر ، كى لا يغرّ غيرى بها !

وقيل : الخلُق السّيئُ هو أن يضِيقَ قلبُ الإنسان عنْ أن يتّسع لغير ماتحبُّه النفس وتؤثره ، كالمكان الضيّق لا يسع غير صاحبه .

وكان يقال : منْ سوء الخلق أن تقف على سُوء خُلُق غيرك وتعيبه به .

قيل لرسول الله : ادعُ اللهَ علَى المشركين ، فقال : « إنما بعثتُ رحمةً ، ولم أبعث عذاباً » .

دعا علىّ عليه السلام غلاماً له مرارا ؛ وهو لا يجيبه ، فقام إليه فقال : ألا تسمع ياغلام ! قال : بلى ، قال: فما حملك على ترك الجواب ؟ قال : أمْنِى لعقوبتك ، قال:اذهب فأنت حرّ .

***

ومنها الكتمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « استعينوا على أمورِكم بالكتمان » .

وقال السرىّ : علامة الحبّ الصبر والكِتمان ، ومن باح بسرّنا فليس منّا .

وقال الشاعر :

كتمتُ حُبّك حتّى مِنْكَ تكرِمَةً ثم استوَى فيك إسرارى وإعلانِى

كأنه غاض حتى فاض عن جَسَدِى فصار سقمى به فى جسم كِتمانى

وهذا ضدّ مايذهب إليه القوم من الكتمان ؛ وهو عذر لأصحاب السرّ والإعلان.

وكان يقال : المحبّة فاضحة ؛ والدمع نمّام .

وقال الشاعر :

لا جزَى الله دمع عينِىَ خَيْراً وجزى الله كلّ خيرِ لسانى

فاض دمعى فليس يكتمُ شيئا | وَوجدتُ اللسانَ ذا كتمانِ

يقال : إن بعض العارفين ، أوصى تلميذه بكتمان مايطّلع عليه من الحال ، فلمّا شاهد الأمر غلب، فكان يطلع فى بئر فى موضع خالٍ ، فيحدّثها بما يشاهد ، فنبتت فى تلك البئر شجرة سمع منها صوت يحكى كلام ذلك التلميذ ، كما يحكى الصدا كلام المتكلّم ، فأسقط بذلك من ديوان الأولياء .

وأنشدوا :

أبدا تحنّ إليكمُ الأرواحُ | ووصالكمْ رَيحانُها والرّاحُ
وقلوب أهلِ ودادكم تشتاقكمْ | وإلى لقاء جمالكم ترتاحُ
وارحمةً للعاشقين تحمّلوا | ثقلَ المحبّة والهوى فضّاحُ
بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهم | وكذا دماء البائحين تباحُ

وقال الحسين بن منصور الحلّاج :

إنى لأكتمُ من علمى جواهرَه | كى لا يرى العلم ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدّمنى فيه أبو حسن | إلى الحسين ، وأوصى قبلَه الحسَنا
يارُبّ مكنونِ علمٍ لو أبوحُ به | لقيل لى أنتَ ممّن يعبدُ الوثنا !
ولَاستحلّ رجالٌ صالحونَ دمى | يرون أقبحَ ما يأتونَهُ حسنا

* * *

ومنها الجود والسّخاء والإيثار ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١) :

وقال النبى صلى الله عليه وآله : السّخىّ قريبٌ من الله ، قريب من الناس ،

---

(١) سورة الحشر ٩ .

والبخيلُ بعيدٌ من الله بعيد من الناس. وإنّ الجاهل السخيّ أحبُّ إلى الله من العابد البخيل.

قالوا : لا فرق بين الجود والسَّخاء فى اصطلاح أهل العربية ، إلّا أنّ البارى سبحانه لا يوصَف بالسّخاء ، لأنه يشعر بسماح النفس عَقِيب التردّد فى ذلك ، وأمّا فى اصطلاح أرباب هذه الطريقة ، فالسّخاء هو الرتبة الأولى ، والجود بعده ، ثم الإيثار ، فمنْ أعطَى البعض وأبقى البعض فهو صاحب السَّخاء ، ومَنْ أعطَى الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب الجود ، والذى قاسى الضّرّاء وآثر غيره بالبُلْغَة فهو صاحب الإيثار .

قال أسماء بن خارجة الفزاريّ : ماأحبّ أنْ أردّ أحداً عن حاجة طَلَبها ؛ إن كان كريماً صُنْتُ عِرْضَه عن الناس ، وإن كان لئيماً صُنْتُ عنه عرضى .

كان مورّق المجليّ يتلطّف فى برّ إخوانه ، يضع عندهم ألف درهم ، ويقول : امسكوها حتى أعودَ إليكم ، ثم يرسِل إليهم : أنتم منها فى حلّ .

وكان يقال : الجود إجابة الخاطر الأول .

وكان أبو الحسن البوشنجيّ فى الخلاء ، فدعا تلميذا له ، فقال انزع عنّى هذا القميص وادفعه إلى فلان ، فقيل له : هلاّ صبرت ! فقال : لم آمن على نفسى أن تغير عَلَى ماوقع لى من التخلّق معه بالقميص .

رُئِىَ علىّ عليه السلام يوما باكيا ، فقيل له . لم تبكى ؟ فقال: لم يأتنى ضيف منذ سبعة أيام ؛ أخاف أن يكون الله قد أهاننى.

أضاف عبد الله بن عامر رجلا فأحسن قِرَاه ، فلما أراد أن يرتحل لم يعنه غلمانه. فسئل عن ذلك ، فقال إنهم إنما يعينون مَنْ نزل علينا ، لا من ارتحل عنا .

* * *

ومنها الغَيْرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا أحدَ أغيرُ من الله ، إنّما حرّم الفواحش ماظهر منها وما بطن لغيرته » .

وفى حديث أبى هريرة : « إنّ اللهَ ليغار وإنّ المؤمن ليغار » .

قال : والغيْرة هى كراهية المشاركة فيما هو حقك .

وقيل : الغيْرة الأنفة والحمية .

وحكى عن السرىّ أنه قرئ بين يديه : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا[1] ﴾ .

فقال لأصحابه : أتدرون ماهذا الحجاب ؟ ؟ هذا حجاب الغَيْرة ، ولاأحد أغير من الله.

قالوا : ومعنى حجاب الغَيْرة ، أنّه لما أصرّ الكافرون على الجحود عاقبهم بأن لم يجعلهم أهلاً لمعرفة أسرار القرآن .

وقال أبو على الدقّاق : إنّ أصحاب الكسل عن عبادته ، هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخذلان ، فاختار لهم البعد ، وأخرهم عن محل القرب ، ولذلك تأخّروا .

وفى معناه أنشدوا فقالوا :

أنا صبٌّ بمن هَوِيتُ وَلكِنْ ما احتيالِى فى سُوء رأى المَوَالِى !

وفى معناه قالوا : سقيمٌ لا يعاد ، ومريد لا يراد .

وكان أبو على الدّقاق : إذا وقع شىء فى خلال المجلس يشوّش قلوبَ الحاضرين ، يقول : هذا من غَيْرة الحق ؛ يريدبه ألاّ يتم ماأملناه من صفاء هذا الوقت .

وأنشدوا فى معناه :

همّتْ بإتياننا حتى إذا نظرت إلى المِراة نهاها وجهُها الحسنُ

وقيل لبعضهم : أتريد أن تراه ؟ قال : لا ، قيل : لم ؟ قال أنزّه ذلك الجمال عن نظر مثلى . وفى معناه أنشدوا :

إنّى لأحْسُدُ ناظرىّ عَلَيْكَ حتى أغضّ إذا نظرتُ إليكَ

---

(١) الإسراء : ٤٥ .

وأراك تخطر فى شمائلك التى   هى فتنتى ، فأغار منك عليكا

وسُئِل الشِّبلىّ : متى تستريح ؟ قال : إذا لم أر له ذاكرا .

وقال أبو على الدقاق فى قول النبىّ صلى الله عليه وآله عند مبايعته فرساً من أعرابىّ وأنه استقاله فأقاله ، فقال الأعرابى : عمّرك الله ، فمن أنت ؟ قالَ صلى الله عليه وآله : « أنا امرؤ من قريش » ، فقال بعضُ الصحابة من الحاضرين للأعرابىّ : كَفَاكَ جَفَاءً ألّا تعرِف نبيّك ! فكان أبو علىّ يقول : إنما قال : « امرؤ من قريش » غَيْرةً ونوعا من الأنَفَة ، وإلّا فقد كان الواجب عليه أن يتعرّف لكل أحد أنه مَنْ هو ، لكن الله سبحانه أجرى على لسان ذلك الصحابىّ التعريف للأعرابىّ بقوله : « كفاك جفاء ألّا تعرف نبيك ! »

وقال أصحاب الطريقة : مساكنة أحد من الخلق للحقّ فى قلبك تُوجِب الغَيْرة منه تعالى .

أذّن الشّبلىّ مرة ، فلما انتهى إلى الشهادتين ، قال : وحقّك لولا أنك أمرتنى ما ذكرتُ معك غيرك .

وسمع رجلٌ رجلاً يقول : جلّ الله ! فقال له : أحبّ أن تجلّه عن هذا .

وكان بعض العارفين يقول : لا إله إلا الله من داخل القلب ، محمد رسول الله من قُرْط الأذن .

وقيل لأبى الفتوح السهروردىّ ـ وقد أخِذ بحلَب ليصلب على خشبة : ما الذى أباحهم هذا منك ؟ قال : إنّ هؤلاء دعونى إلى أن أجعل محمداً شريكا لله فى الربوبية ، فلم أفعل ، فقتلونى .

* * *

ومنها التفويض ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، فاستوقف مَنْ عقل أمره عن الاقتراح عليه ، وأفهمه ما يرضاه به من التفويض إليه ، فالعاقل تارك للاقتراح ، على العالم بالصلاح .

وقال تعالى : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٢) ؛ فبعث على تأكيد الرّجاء بقوله : ﴿ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

ولمّا فوّض مؤمن آل فرعون أمرَه إلى الله وقاه ﴿ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (٣) كما ورد فى الكتاب العزيز .

وحقيقة التفويض هى التسليم لأحكام الحقّ سبحانه ، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) ، فأسّ التفويض والباعث عليه هو اعتقاد العجز عن مغالبة القدر ، وأنّه لا يكون فى الخير والشر – أعنى الرّخص والصحّة وسعة الرزق والبلايا والأمراض والعِلل وضيق الرزق ، إلا ما أراد الله تعالى كونه ، ولا يصحّ التفويض ممّن لم يعتقد ذلك ولم يعلمه علم اليقين .

وقد بالغ النبى صلى الله عليه وآله فى التصريح به والنصّ عليه بقوله لعبد الله بن مسعود : « ليقلّ همّك ؛ ما قدّر أتاك وما لم يقدّر لم يأتِك ؛ ولو جهد الخلق أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو جَهِدوا أن يضرُّوك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك » .

---

(١) سورة البقرة ٢١٦ .

(٢) سورة النساء ١٩ .

(٣) سورة غافر ٤٥

(٤) سورة التوبة ٥١

وفى صحيح مسلم بن الحجّاج أنه قال لأبى هريرة فى كلام له : « فإنْ أصابَك شىء فلا تقل : لَوْ فعلت كذا لـكان كذا ، فإنّ « لو » تفتح عمل الشيطان، ولـكن قل: ماقدر الله وما شاء فعل » .

وفى صحيح مسلم أيضاً عن البَرَاء بن عَازب : « إذا أخذت مضجَعك فقل كذا... » إلى أن قال : « وجّهت وجهى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبةورهبة إليك،لامنجى ولا ملجأ منك إلا إليك » .

وكان يقال : معارضة المريض طبيبَه ، توجب تعذيبَه .وكان يقال: إنّما الـكيِّس الماهر من أمسى[1] فى قبضة القاهر .

وكان يقال : إذا كانت مغالبة القَدَر مستحيلة ، فما من أعوان تقوده إلى الحيلة .

وكان يقال : إذا التبست المصادر ، ففوّض إلى القادر .

وكان يقال : من الدّلالة على أنّ الإنسان مصرّف مغلوب ، ومدبَّر مربوب ، أن يتبلّد رأيُه فى بعض الخطوب ، ويعمى عليه الصواب المطلوب .

وإذا كان كذلك ، فربّما كان تدميره فى تدبيره ، واغتيالُه من احتياله ، وهلـكته من حَرَكته .

وفى ذلك أنشدوا :

أيا مَنْ يعوّلُ فِى المُشْـكِلَاتِ ... عَلَى ما رآه وما دَبَّرَهْ[2]

إذا أعضَـلَ الأمـرُ فافزعْ به ... إلى مَـنْ يرى منـه مالم تَرَهْ

تـكن بـين عطفٍ يقيـل الخطوبَ ... ولطـفٍ يهوّن ماقـدّرَهْ

إذا كنت تجهـل عُقْبَى الأمـورِ ... ومالك حـولٌ ولا مقـدرهْ

فـلِمْ ذَا العَنَا ، وعـلام الأسى ... وممّ الحِـذار ، وفيم الشّرهْ !

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « استسلم » .
(٢) الأبيات لابن ظفر ؛ وهى فى كتابه سلوان المطاع ٨ .

وأنشدوا فى هذا المعنى :

يارب مغتبط ومغبوطٍ بأمرٍ فيه هُلْكُهْ[1]
وَمُنَافِسٍ فِى مُلْكِ مَا يُشْقِيه فى الدّارَيْن مُلْكُهْ
علمُ العواقبِ دُونَهُ سِتْرٌ ، وليس يرامُ هَتْكُهْ
وَمُعَارِضُ الأقدارِ بالـ آراء سَىْء الحالِ ضَنْكُهْ
فكن امرأ محض اليقيـ نِ وزيفُ الشبهات سَبْكُهْ
تفويضه توحيدُهُ وعِنادُه المِقْدار شِرْكُهْ

* * *

ومنها الولاية والمعرفة ، وقد تقدم القول فيهما .

ومنها الدّعاء والمناجاة ، قال الله تعالى : ﴿ أَدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[2] .

وفى الحديث المرفوع : « الدعاء مخّ العبادة » .

وقد اختلف أربابُ هذا الشأن فى الدعاء ، فقال قوم : « الدعاء مفتاح الحاجة ، ومستروَح أصحاب الفاقات ، وملجأ المضطرّين ، ومتنفّس ذوى المآرب .

وقد ذمّ الله تعالى قوماً فقال : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾[3] فسّروه وقالوا : لا يمدّونها إليه فى السؤال .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : خلق الله الخلق ، وقال : تاجروا فىّ ، فإن لم تفعلوا فاسمعوا منّى ، فإن لم تفعلوا فكونوا ببابى ، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بى .

قالوا : وقد أثنى الله على نفسه ، فقال : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾[4] ، قالوا : الدعاء إظهار فاقة العبوديّة .

---

(١) لابن ظفر ، سلوان المطاع ٨
(٢) سورة غافر ٦٠
(٣) سورة التوبة ٦٧ .
(٤) سورة النمل ٦٢

وقال أبو حاتم الأعرج : لأن أحرَم الدّعاء أشد علىّ من أن أحرَم الإجابة .

وقال قوم : بل السكوت والجمود تحتَ جريان الحكْم والرّضا بما سبق من اختيار الحكيم العالِم بالمصالح أولى ؛ ولهذا قال الواسطىّ : اختيار ماجرَى لك فى الأزَل، خيرلك من معارضة الوقت .

وقال النبى صلى الله عليه وآله إخباراً عن الله تعالى : « مَنْ شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضلَ ما أعطى السائلين » .

وقال قوم : يجب أن يكون العبدُ صاحب دعاء بلسانه ، وصاحب رضاً بقلبه، ليأتىَ بالأمرين جميعاً .

وقال قوم: إنّ الأوقاتَ تختلف، ففى بعض الأحوال يكون الدّعاء أفضل من السكوت، وفى بعض الأحوال يكون بالعكس، وإنّما يعرَف هذا فى الوقت ،لأنّ علم الوقت يحصل فى الوقت ، فإذا وجد فى قلبه الإشارة إلى الدّعاء فالدعاء أولى ، وإن وجد بقلبه الإشارة إلى السكوت فالسكوت له أتمّ وأولى .

وجاء فى الخبر : « إنّ اللهَ يُبغِض العبدَ فيسرع إجابته بغضاً لسماع صوته ، وأنّه يحب العبد فيؤخّر إجابتهُ حباً لسماع صوته » .

* * *

ومن أدب الدعاء حضورُ القلب ، فقد روى عنه صلى الله عليه وآله : « إنّ الله لا يستجيب دعاء قلب لاهٍ » .

ومن شروط الإجابة طِيب الطُّعمة وحلّ المكسب ؛ قال صلّى الله عليه وآله لسعد ابن أبى وقّاص : « أطِبْ كسبك تُستَجَبْ دعوتك » .

وينبغى أن يكون الدعاء بعد المعرفة ، قيل لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام : مابالُنا ندْعو فلا يستجاب لنا ! قال : لأنّكم تدعون مَنْ لا تعرفونه .

كان صالح المرّىّ يقول كثيرا : ادعوا : فمن أدْمَن قَرْع الباب يوشك أن يفتح له ، فقالت له رابعة العدوية : ماذَا تقول ؟ : أغُلِق هذا الباب حتى يستفتح ! فقال صالح : شيخ جَهِل ، وامرأة علمت .

وقيل : فائدة الدعاء إظهار الفاقة من الخلق ، وإلّا فالرّب يفعل ما يشاء .

وقيل : دعاء العامّة بالأقوال ، ودعاء العابد بالأفعال ، ودعاء العارف بالأحوال .

وقيل : خير الدعاء ماهيّجه الأحزان والوجد .

وقيل : أقربُ الدعاء إلى الإجابة دعاء الاضطرار ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ .

قال أصحاب هذه الطريقة : ألسنة المبتدئين أرباب الإرادة منطلقة بالدعاء ، وألسنة المحققين الواصلين قد خرست عن ذلك.

وكان عبد الله بن المبارك يقول : مادعوتهُ منذُ خمسين سنة ، ولا أريد أن يدعوَ لى أحد .

وقيل : الدعاء سلّمُ المذنبين .

وقال من قال بنقيض هذا : الدعاء مراسلة ، وما دامت المراسلة باقية فالأمر جميل بعد.

وقالوا : ألسنة المذنبين دمُوعهم .

وكان أبو على الدّقاق يقول : إذا بكى المذنب فقد راسل الله .

وفى معناه أنشدوا :

دُمُوعُ الْفَتَى عَمّا يجِنّ تترجمُ وأنفاسه تبدين ما القلبُ يَكْتُمُ

وقال بعضهم لبعض العارفين : أدعُ لى ، فقال : كفاك من الإجابة ألّا تجعل بينك وبينه واسطة .

* * *

ومنها التأسى، قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(١) أى فى مصابه وما نيل منه فى نفسه وفى أهله يوم أُحُد ، فلا تجزعوا إن أصيب بعضكم .

وجاء فى الحديث المرفوع : لاتنظروا إلَى مَنْ فَوْقَكُم ، وانظروا إلى مَنْ دونكم ، فإنّه أجدر ألّا تزدروا نِعَم الله عليكم .

وقالت الخنساء ترثى أخاها :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِين حَوْلِى ... عَلَى إخوانِهِم لَقَتَلْتُ نَفْسِى (٢)

وَمَا يَبكُونَ مِثْلَ أخِى ولَكِنْ ... أُعَزِّى النَّفْسَ عَنْهُ بالتأسّى

وحقيقة التأسىّ تهوين المصائب والنوائب على النفس بالنظر إلى ما أصاب أمثالك ، ومن هو أرفعُ محلًّا منك .

وقد فسّر العلماء قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَومَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾(٣) ؛ قال : إنّه لايهون على أحدٍ من أهل النار عذابه ، وإنْ تأسّى بغيره من المعذّبين ، لأنّ الله تعالى جعل لهم التأسّى نافعاً فى الدنيا ، ولم يجعله نافعا لأهل النار مبالغة فى تعذيبهم ، ونفياً لراحة تصل إليهم .

* * *

(١) سورة الأحزاب ٢١ .
(٢) ديوانها ١٠٢
(٣) سورة الزخرف ٣٩

ومنها الفقر ، وهو شمار الصّالحين ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « اللّهمّ أحْيِنِي مِسْكِيناً ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى مع المساكين » .

قال لعلىّ عليه السلام : « إنّ الله قد زيّنك بزينة لم يزيّن العبادَ بأحسنَ منهما ، وهَبَ لك حبّ المساكين ، فجعلك ترضى بهم أتباعا ، ويرضوْن بك إماما » .

وجاء فى الخبر المرفوع : « الفقراء الصُّبُرُ جُلساء الله يوم القيامة » .

وسئل يحيى بن مُعاذ عن الفقرِ فقال : ألّا تستغنى إلا بالله .

وقال أبو الدّرداء : لأن أقَعَ من فوق قصرٍ فأنحطم أحبّ إلىّ من مجالسة الغنىّ لأنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « إيّاكُمْ ومجالسةَ الموتى » ، فقيل له : وما الموتى ؟ قال : الأغنياء .

قيل للربيع بن خثيم : قَدْ غَلا السّعر ، قال : نحنُ أهونُ على الله من أن يُجيعنا ، إنّما يجيع أولياءه .

وقيل ليحيى بن معاذ : ما الفقرُ ؟ قال : خوف الفقر .

وقال الشِّبْلِىّ : أدنى علاماتِ الفقير أن لوْ كانت الدّنيا بأسرها لواحدٍ فأنفقها فى يوم واحِد ، ثم خطر بباله : « لو أمسكت منها قوت يوم آخر ! » ، لم يصدق فى فقره .

سئل ابن الجلاء عن الفقر ، فسكت ثم ذهب قليلا ، وعاد فقال : كانت عندى أربعة دوانيق فضّة ، فاستحييت من الله أن أتكلّم فى الفقر وهى عندى ، فذهبت فأخرجتها ، ثم قعد فتكلّم فى الفقر .

وقال أبو على الدّقاق فى تفسير قوله صلى الله عليه وآله : « مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِىّ ذهب ثلثا دينه ، إنّ المرء بقلبه ولسانه وجوارحه ، فمن تواضع لغنىّ بلسانه وجوارحه ، ذهب ثلثا دينه ، فإن تواضع له مع ذلك بقلبه ذهب دينه كلّه .

* * *

ومنهـا الأدب ، قالوا فى تفسير قوله تعالى : ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَى ﴾[1] : حفظ أدب الحضرة .

قيل إنه عليه السلام لم يعدّ نظره فوق المقام الّذِى أوصل إليه ليلة شاهد السّدرة ، وهى أقصى مايمكن أن ينتهى إليه البشريّون .

وفى الحديث المرفوع : « أدّبنِى ربّى فأحسنَ تأديبى » .

وقيل : إنّ الجنيد لم يمدّ رجلَه فى الخلوة عشرين سنة ، وكان يقول : الأدب مع الله أوْلَى من الأدب مع الخلق .

وقال أبو على الدقاق : مَنْ صاحب الملوك بغير أدبٍ ، أسلمه الجهلُ إلى القتل .

ومن كلامه عليه السلام : ترك الأدب يوجب الطّرد ، فمن أساء الأدب على البساط ، ردّ إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب ، ردّ إلى ساحة الدّوابّ .

وقال عبد الله بن المبارك : قد أكثر النّاس فى الأدب ، وعنـدى أنّ الأدب معرفة الإنسان بنفسه .

وقال الثورىّ : من لم يتأدّب للوقت ، فوقته مقت.

وقال أبو على الدّقاق فى قوله تعالى ، حكايةً عن أيوب : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[2] . قال : لم يقل : « فارحَمْنِى » لأنه حفظ آداب الخطاب ، وكذلك قال فى قول عيسى : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾[3] ، قال: لم يقل: « لم أقل » رعايةً لأدب الحضرة .

***

---

(١) سورة النجم ١٧
(٢) سورة الأنبياء ٨٣
(٣) سورة المائدة ١١٦

ومنها المحبّة ، وهى مقام جليل ، قالوا : المحبة أن تهبَ كُلكَ لمن أحببتَ ، فلا يبقى لك منك شيء .

قيل لبعض العرب : ماوجدت من حبّ فلانة ؟ قال : أرى القَمَر على جدارها أحسنَ منه على جُدْران الناس .

وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ : المحبّة أن تغار على محبوبك أن يحبّه غيرُك .

وقال النصراباذى : المحبّة نوعان: نوع يُوجب حَقْنَ الدّماء، ونوع يوجب سَفْكَ الدماء .

وقال يحيي بن معاذ : المحبّة الخالصة ألّا تنقص بالجفاء ، ولا تزيد بالبرّ .

وقيل للنصر اباذى : كيف حالك فى المحبّة ؟ قال : عدمتُ وصال المحبّين ، ورزقتُ حسراتهم ، فهو ذا أنا أحترق فيها . ثم قال : المحبّة مجانبة السلوّ على كلّ حال .

وأنشدوا :

وَمَنْ كان فى طول الهوى ذاق سَلْوةً ... فإنّى من ليلَى لها غير ذائِق
وأكثر شىء نلته مِنْ وصالها ... أمانىّ لم تصدُقْ كلمحة بارق

وجاء فى الحديث المرفوع : «المرء مَعَ مَنْ أحبّ » ؛ ولما سمِعَ سمنون هذا الخبر ، قال : فاز المحبّون بشرَف الدنيا والآخرة ، لأنّهم مع الله تعالى .

وفى الحديث المرفوع : « لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ اللهَ ورسوله ، ويحبّه اللهُ ورسولُه » ، وهذا يتجاوز حدّ الجلالة والشرف .

وكان يقال : الحبّ أوّله خَتَلٌ ، وآخره قتل .

قيل: كتب يحيي بن معاذ إلى أبي يزيد : سكرت من كثرة ما شربت من محبّته ، فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السّموات والأرض ، وما روى بعد ، ولسانه خارج ، وهو يقول : هل من مزيد !

وأنشد :

عَجِبْتُ لمن يقولُ ذكرتُ حِبِّى وهَــلْ أنسَى فأذْكر مانسيتُ !
شربتُ الحبّ كأساً بعد كأسٍ فمـا نَفِد الشّراب ، ولا رَوِيتُ

وقيل : المحبّة سكر لا يصحو صاحبه إلّا بمشاهدة محبوبه ؛ ثمّ السكر الذى يحصلُ عند المشاهدة لا يوصف .

وأنشدوا :

فأسكرَ القــومَ دَوْرُ كأسٍ وكان سكرى مِن المُدِيرِ

* * *

ومنهـا الشوق ، جاء فى الخـبر المرفوع : إنّ الجنـة لتشتـاق إلى ثلاثة : علىّ ، وسلمان ، وعمّار .

الشوق مرتبة من مراتب القوم ، ومقام من مقاماتهم . سئل ابن عطاء : الشّوْق أعلَى أم المحبة ؟ فقال : المحبّة ، لأنّ الشوق منها يتولّد .

ومن الأدعية النبويّة المأثورة الدّعاء الذى كان يدعُو به عمّار بن ياسر رضى الله عنه : « اللّهمّ بعلمك بالغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ماعلمت الحياةَ خيراً لى ، وتوفّنى ما كانت الوفاة خيرا لِى . اللهمّ إنى أسألُكَ خشيَتك فى الغيب والشّهادة ، واسألك كَلِمَة الحقّ فى الرّضا والغضب ، وأسألك القصد فى الغنى والفقر ، وأسألك نعيماً لا يَبِيد ، وقرة عينٍ لا تنقطع ، وأسألك الرّضا بعد القضاء ، وبَرْد العيش بعد الموت . وأسألك النّظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، من غير ضرّاء مضرّة . اللهمّ زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » .

قالوا : الشوق احتياج القلب إلى لقاء المحبوب ، وعَلَى قدْر المحبّة يكون الشوق ، وعلامة الشّوق حب الموت .

وهذا هو السرّ فى قوله تعالى : ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] أى أنّ مَنْ كان صاحب محبة يتمنّى لقاء محبوبه ، فمن لا يتمنى ذلك لا يكون صادق المحبة .

قيل لبعض الصّوفية : هل تشتاق إليه ؟ فقال : إنّما الشّوق إلى غائب ، وهو حاضر لا يغيب .

وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾[2] : إنه تطييب لقلوب المشتاقين .

ويقال : إنّه مكتوب فى بعض كتب النبوّات القديمة : شوّقناكم فلم تشتاقوا ، وزَمَرْنا لكم فلم ترقصوا ، وخوّفناكم فلم ترهبوا ، ونُحْنا لكم فلم تحزنوا .

وقيل : إن شعيبا بكى حتى عمىَ ، فردّ الله إليه بصره ، ثم بكى حتى عمِيَ ، فردّ عليه بصره ، ثم كذلك ثلاثا ، فقال الله تعالى : « إنْ كان هذا البكاء شوقاً إلى الجنّة فقد أبحتُها لك ، وإن كان خوفاً من النار فقد أجرْتُك منها » . فقال : وحقّك لا هذا ولا هذا ، ولكن شوقاً إليك ، فقال له : « لأجل ذلك أخدمتك نبيّ وكليمى عشر سنين » .

***

ومنها الزهد ورفض الدنيا ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[3] .

وجاء فى الخبر أنّ يوسف عليه السلام كان يجوع فى سِنِي الجدْب ، فقيل له : أتجوعُ وأنت على خزائن مصر ! فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجياع .

وكذلك قال علىّ عليه السلام ، وقد قيل له : أهذا باسُك ، وهذا ما كولك ، وأنت أمير

---

(١) سورة البقرة ٩٤
(٢) سورة العنكبوت ٥
(٣) سورة طه ١٣١

المؤمنين ! فقال : نعم ، إن الله فرضَ عَلَيَّ أئمة العدل أن يقدّروا لأنفسهم كضَعَفة النّاس، كيلاَ يتبيّغ (١) بالفقير فقره .

ومنع عمر بن الخطاب نفسَه عام الرّمادة الدّسم ، وقال : لا آكله حتى يصيبَه المسلمون جميعا .

وكان عمر بن عبد العزيز من أكثر الناس تنعّما ؛ قبل أن يلِيَ الخلافة ، قوّمت ثيابه حينئذ بألف دينار ، وقُوّمت وهو يخطب النّاس أيام خلافته بثلاثة دراهم .

***

واعلم أنّ بعض هذه المراتب والمقامات التى ذكرناها لقوم قد يكون متداخلا فى الظاهر ، وله فى الباطن عندهم فرق يعرفه مَنْ يأنس بكتبهم ، وقد أتينا فى تقسيم مراتبهم وتفصيل مقاماتهم فى هذا الفصل بما فيه كفاية .

---

(١) يتبيغ به فقره : أى يغلبه ويحمله على الشر .

(٢١٨)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

قاله عند تلاوته : ﴿ يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾[1].

أَدْحَضُ مَسْئُولٍ حُجَّةً ، وَأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً . لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ

يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ ، مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ ، وَمَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ، وَمَا أَنَسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ !

أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ ، أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمِكَ يَقَظَةٌ ! أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ ! فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ ، أَوْ تَرَى الْمُبْتَلَى بِأَلَمٍ يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ !

فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ ، وَجَلَّدَكَ عَلَى مُصَابِكَ ، وَعَزَّاكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ ، وَهِيَ أَعَزُّ الأَنْفُسِ عَلَيْكَ ؛ وَكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ ؛ وَقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ !

فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ الْفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ ، وَمِنْ كَرَى الْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِيَقَظَةٍ ، وَكُنْ لِلَّهِ مُطِيعاً ، وَبِذِكْرِهِ آنِساً .

وَتَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ ، إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ ، يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ ، وَيَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ ، وَأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ .

---

(١) سورة الانفطار ٦

فتعالَى مِنْ قَوِيٍّ ما أكْرَمَهُ ! وَتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ ما أجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ ! وَأنْتَ فِي كَنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ ، وَفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ ! فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ ، وَلَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ ؛ فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ ، أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ .

وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ ، مُتَوَازِيَيْنِ فِي الْقُدْرَةِ ، لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الْأَخْلَاقِ ، وَمَسَاوِئِ الْأَعْمَالِ .

وَحَقًّا أَقُولُ ! مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ ، وَلَكِنْ بِهَا اغْتَرَرْتَ ، وَلَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتِ ، وَآذَنَتْكَ عَلَى سَوَاءٍ .

وَلَهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ ، وَالنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ ، أَصْدَقُ وَأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ أَوْ تَغُرَّكَ . وَلَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ ، وَصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ .

وَلَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ ، وَالرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ ، لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ ، وَبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ ، بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ ، وَالشَّحِيحِ بِكَ ! وَلَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً ، وَمَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلًّا !

وَإِنَّ السُّعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ ، إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ ، وَحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ ، وَلَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ ، وَبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ ، وَبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ ، فَلَمْ يُجْزَ فِي عَدْلِهِ وَقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ ، وَلَا هَمْسُ قَدَمٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ . فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ ، وَعَلَائِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ !

فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ ، وَتَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ ، وَخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ ، وَتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ ؛ وَشِمْ بَرْقَ النَّجَاةِ ، وَارْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ .

* * *

الشرح :

لقائل أن يقول:لو قال : «ماغرك بربك العزيز أو المنتقم» أو نحو ذلك،لكان أوْلَى لأنّ للإنسان المعاتب أن يقول : غرّني كرمُك الّذى وصفتَ به نفسك !

وجواب هذا أنْ يقال : إنّ مجموع الصفات صار كشىء واحد ، وهو الكريم الذى خلقك فسوّاك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركّبك . والمعنى : ماغرّك بربٍّ هذه صفته ، وهذا شأنه،وهو قادر على أن يجعلك فى أى صورة شاء ! فما الذى يؤمّنك من أن يمسخك فى صورة القرَدةوالخنازير ونحوها من الحيوانات العجم . ومعنى الكريم هاهنا:الفيّاض على المواد بالصور ، ومَنْ هذه صفته ينبغى أن يُخاف معه تبديل الصورة .

قال عليه السلام : « أدحض مسئول حُجّة » المبتدأ محذوف ، والحجة الداحضة : الباطلة .

والمعذِرة بكسر الذال : العذر .

ويقال : لقد أبرح فلان جهالةً،وأبرح لؤماً ، وأبرح شجاعة، وأتى بالبرْح من ذلك، أى بالشّديد العظيم . ويقال : هذا الأمر أبرحُ من هذا ، أى أشدّ ، وقتلوه أبْرَح قَتْل .
وجهالةً منصوب على التمييز .

وقال القطب الرّاونديّ : مفعول به ، قال معناه : جلب جهالةً إلى نفسه ، وليس بصحيح ؛ وأبرح لا يتعدّى هاهنا وإنّما يتعدّى « أبرح » فى موضعين : أحدهما أبرحه الأمر ، أى أعجبه ، والآخر أبرحَ زيدٌ عمْرا ، أى أكرمه وعظّمه .

قوله : « ماجرّأك » بالهمزة ، وفلان جرئ القوم ، أى مقدّمهم .
وما أنّسك بالتشديد ، وروى:« ما آنسك »بالمدّ ؛ وكلاهما من أصل واحد،وتأنّست

بفلان واستأنستُ بمعنى ، وفلان أنيسى ومؤانسى ، وقد أنِسَنى وآنسنى كلّه بمعنى ، أى كيف لم تستوحش من الأمور التى تؤدى إلى هلكة نفسك .

والبُلُول : مصدر بلّ الرجل من مرضه، إذا برئ ، ويجوز « أبلّ » ، قال الشاعر :

إذا بلّ من داء به ظنّ أنه   نجا وبه الداء الذى هو قاتِلُهْ[1]

والضّاحى لحرّ الشمس: البارز . وهذا داء ممضّ ، أى مؤلم ، أمضنى الجرح إمضاضاً، ويجوز « مَضّنِى » .

وروى : وجلّدك عَلَى مَصَائبك » ، بصيغة الجمع .

وبيَات نقمة بفتح الباء : طروقها ليلا ، وهى من ألفاظ القرآن العزيز[2] .

وتورّط : وقع فى الورْطة ، بتسكين الراء ، وهى الهلاك ، وأصل الورطة أرضٌ مطمئنة لا طريق فيها ، وقد أورطَه ، وورطه توريطا ، أى أوقعه فيها .

والمدارج : الطرق والمسالك ، ويجوز انتصاب « مدارج » ها هنا ، لأنها مفعول به صريح ، ويجوز أن ينتصب على تقدير حرف الخفض وحذفه ، أى فى مدارج سطواته .

قوله : و « تمثّل » أى وتصوّر .

ويتغمّدك بفضله ، أى يسترك بعفوه ، وسُمّىَ العفو والصفح فضلًا ؛ تسمية للنوع بالجنس .

قوله : « مَطْرَف عين » بفتح الراء ، أى زمان طرف العين ، وطرْفها : إطباق أحدِ

---

(١) الصحاح ٤ : ١٦٤٠ (من غير نسبة) .

(٢) منه قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْهُمْ قَائِلُونَ ﴾ . ٤ سورة الأعراف .

جفنيها على الآخر ، وانتصابُ «مطرف» هاهنا على الظرفية، كقولك : وردتُ مقدمَ الحاجّ ، أى وقت قدومهم .

قوله : « متوازِيَيْن فى القُدرة » ، أى متساويَيْن ، وروى : « متوازنين » بالنون .

والعظات: جمع عِظَة ، وهو منصوب على نزع الخافض، أى كاشفتك بالعظات، وروى « العظاتُ » بالرفع على أنّه فاعل . وروى : « كاشفتك الغطاء » .

وآذنتك ، أى أعلمتك .

وعلى سواء ، أى على عَدْل وإنصاف ، وهذا من الألفاظ القرآنية [١] .

والراجفة : الصيحة الأولى، وحقّتْ بجلائلها القيامة ، أى بأمورها العظام . والمنسِك: الموضع الذى تذبح فيه النسائك ، وهى ذبائح القربان ويجوز فتح السين ، وقد قرئ بهما فى قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ [٢] .

فإن قلت : إذا كان يلحق بكلّ معبود عَبَدتُه ؛ فالنصارى إذن تلحق بعيسى ، والغلاة من المسلمين بعلىّ ، وكذلك الملائكة ، فما القول فى ذلك ؟

قلت ، لا ضرر فى التحاق هؤلاء بمعبوديهم ، ومعنى الالتحاق أن يؤمَر الأتباع فى الموقف بالتحيز إلى الجهة التى فيها الرؤساء ، ثم يقال للرؤساء : أهؤلاء أتباعكم وعبدتكم ؟ فحينئذ يتبرءون منهم ، فينجو الرؤساء ، وتهلك الأتباع، كما قال سبحانه : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [٣] ، أى إنّما كانوا يطيعون الشياطين المضلّة لهم ، فعبادتهم فى

---

(١) من قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ .
٥٨ سورة الأنفال .
(٢) سورة الحج ٦٧ .
(٣) سورة سبأ ٤١ .

الحقيقة للشياطين لا لنا ، وإنهم ما أطاعونا ، ولو أطاعونا لـكانوا مهتدين ، وإنما أطاعوا شياطينهم .

ولا حاجة فى هذا الجواب إلى أن يقال ماقيل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّـكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1] من تخصيص العموم بالآية الأخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[2] .

فإن قلت : فما قولك فى اعتراض ابن الزِّبَعْرَى على الآية ، هل هو وارد ؟

قلت : لا ، لأنه قال تعالى : ﴿ إِنَّـكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ و « ما » لما لا يعقل ، فلا يردُ عليه الاعتراض بالمسيح والملائـكة : والذى قاله المفسرون من تخصيص العموم بالآية الثانية تـكلّف غير محتاج إليه .

فإن قلتْ : فما الفائدة فى أن قَرَن القوم بأصنامهم فى النّار ؟ وأى معنى لذلك فى زيادة التعذيب والسخط ؟

قلت : لأنّ النظر إلى وجه العدوّ باب من أبواب العذاب ، وإنّمـا أصاب هؤلاء ما أصابهم بسبب الأصنام التى ضلّوا بها ، فـكلّما رأوها معهم زاد غمّهم وحسرتهم .

وأيضا فإنهم قدّروا أن يستشفعوا بها فى الآخرة ، فإذا صادفوا الأمر على عكس ذلك لم يكن شىء أبغضَ إليهم منها .

قوله : « فلم يَجْرِ » قد اختلف الرّواة فى هـذه اللفظة ، فرواها قوم « فلم يَجْرِ » وهو مضارع « جَرَى يجرى » ، تقول : ما الذى جرى للقوم ؟ فيقول مَنْ سألته : قَدِم الأمير من السفر ، فيـكون المعنى على هذا : فلم يكن ولم يتجدّد فى ديوان حسابه ذلك اليوم صغير ولا حقير إلّا بالحقّ والإنصاف . وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ

---

(١) سورة الأنبياء ٩٨ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠١ .

الحساب ﴾(١)، ورواها قوم « فلم يجز » ،مضارع « جازَ يجوز » ، أى لم يسغ ولم يرخص ذلك اليوم لأحدمن المكلّفين فى حركة من الحركات المحقرات المستصغرات ؛ إلا إذا كانت قد فعلها بحق ، وعلى هذا يجوز فعل مثلها .ورواها قوم : « فلم يَجُرْ» من « جار »،أى عدل عن الطريق ، أى لم يذهب عنه سبحانه ، ولم يضلّ ولم يشذّ عن حسابه شىء من أمر محقّرات الأمور إلّا بحقه ، أى إلا مالا فائدة فى إثباته والمحاسبة عليه ، نحو الحركات المباحة والعبثيّة التى لاتدخل تحت التكليف .

وقال الراوندىّ : « خَرْقُ بصَرٍ » مرفوع لأنه اسم مالم يسمّ فاعله ، ولا أعرف لهذا الكلام معنى .

والهمس : الصوت الخفى .

قوله : « فتحرّ من أمرك » ، تحرّيت كذا ، أى توخّيته وقصدته واعتمدته .

قوله : « وتيسّر لسفرك » ، أى هيّئ أسباب السّفر ، ولا تترك لذاك عائقا .

والشّيْم : النظر إلى البرق .

ورحلت مطيتى ، إذا شددت على ظهرها الرّحل ، قال الأعشى :

رَحَلَتْ سُمَيّةُ غَـدْوَةً أَجْمَالَهَا   غَضْبَى عَلَيْكَ فَمَاتَقُولُ بَدَالَهَا(٢)

والتّشْمير : الجدّ والانكماش فى الأمر .

ومعانى الفصل ظاهرة ، وألفاظه الفصيحة تعطيها وتدلّ عليها بما لو أراد المفسّر أن يعبّر عنه بعبارة غير عبارته عليه السلام لكان لفظه عليه السلام أوْلى أن يكون تفسيراً لكلام ذلك المفسّر .

---

(١) سورة غافر ١٧

(٢) مطلع قصيدته ، ديوانه ٢٢ .

(٢١٩)

الأصلُ :

ومن كلام له عليه السلام :

وَاللهِ لأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً ، أَوْ أُجَرَّ فى الأغلالِ مُصَفَّداً ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ ، وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا ، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا !

وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ صَاعاً ، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ ، غُبْرَ الأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ ، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً ، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً ، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي ، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي ، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقَتِي ، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا ، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا ، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا ، فَقُلْتُ لَهُ : ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ ! أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ ! أَتَئِنُّ مِنَ الأَذَى وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظَى !

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا ، وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا ؛ كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا ، فَقُلْتُ : أَصِلَةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ ! فَقَالَ : لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ؛ وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ . فَقُلْتُ : هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ ! أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي ! أَمُخْتَبِطٌ أَمْ ذُو جِنَّةٍ أَمْ تَهْجُرُ ! وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاَكِهَا ، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ

مَافَعَلْتُهُ ؛ وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا .

مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى ؛ وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى ! نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ .

* * *

الشَّرْحُ :

السَّعْدَان : نبتٌ ذو شوك ؛ يقال له : حَسَك السَّعْدان وحَسَكَةُ السعْدان ؛ وتشبّه به حلَمَة الثّدى ، فيقال : سَعْدانة الثندُوَة ، وهذا النّبت من أفضل مراعى الإبل ، وفى المثل « مَرْعًى ولا كالسَّعْدان » ؛ ونونه زائدة ، لأنه ليس فى الكلام « فَعْلال » غير مضاعف ، إلّا « خَزْعال » وهو ظَلْع يلحق الناقة ، و « قَهقَار » ، وهو الحجر الصلب ، و « قَسْطال » وهو الغبار .

والمسهّد : الممنوع النوم ، وهو السهاد .

والأغلال : القيود . والمصفّد : المقيّد . والحُطَام : عروض الدنيا ومتاعها ، شبّه لزواله وسرعة فنائه بما يتحطّم من العيدان ويتكسّر .

ثم قال : كيف أظلم الناس لأجل نَفْسٍ تموت سريعاً ـ يعنى نَفْسه عليه السلام !

فإن قلت : أليس قوله : « عن نَفْسٍ يسرع إلى البلى قفولها » يشعر بمذهب من قال بقدم الأنفس ، لأنّ القفول الرجوع ، ولا يقال فى مذهبه للمسافرة : قافلة إلا إذا كانت راجعة .

قلت : لا حاجة إلى القول بقدَم الأنفس محافظةً على هذه اللفظة ، وذلك لأنّ النفس إذا كانت حادثة فقد كان أصلها العدم ، فإذا مات الإنسان عدمت نفسه فرجعت إلى العدم الأصلىّ ، وهو المعبّر عنه بالبِلى .

وأملق : افتقر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ [1] .

واستماحنى : طلب منّى أن أعطيَه صاعا من الحنطة ، والصاع أربعة أمداد ، والمُدّ رطل وثلث ، فمجموع ذلك خمسة أرطال ، وثلث رطل ، وجمع الصاع أصوع ، وإن شئت همزت . والصُّواع لغة فى الصاع ، ويقال : هو إناء يشرب فيه .

والعِظلِم ، بالكسرة فى الحرفين : نَبْت يصبغ به ما يراد اسوداده ، ويقال : هو الوَسِمة :

وشحث الألوان ، أى غُبْر .

وأصغيت إليه : أملتُ سمعى نحوه .

وأتبع قياده : أطيعه وأنقاد له .

وأحميت الحديدة فى النار ، فهى محماة ، ولا يقال : حَميت الحديدة .

وذى دَنف ، أى ذى سقم مؤلم .

ومن ميسمها : من أثرها فى يده .

وثكلتك الثواكلُ ، دعاء عليه ، وهو جمع ثاكلة ، وفواعل لا يجىء إلا جمع المؤنث إلا فيما شذّ ، نحو فوارس ، أى ثكلتك نساؤك .

قوله : « أحماها إنسانُها » ، أى صاحبها ، ولم يقل « إنسان » ، لأنّه يريد أن يقابل هذه اللفظة بقوله : « جبّارها » .

وسَجَرها ، بالتخفيف : أوقدها وأحماها ، والسَّجور ما يسجر به التنّور .

قوله : « بملفوفة فى وعائها » ، كان أهدى له الأشعث بن قيس نوعاً من الحلواء تأنّق فيه ، وكان عليه السلام يُبغض الأشعث ، لأنّ الأشعث كان يُبغضه ، وظنّ الأشعث أنّه يستميله بالمهاداة لغرض دنيوىّ كان فى نفس الأشعث ، وكان أمير المؤمنين

(١) سورة الأنعام ١٥١ .

عليه السلام بفطِن لذلك ويعلمه ، ولذلك ردّ هديّة الأشعث ، ولولا ذلك لقبلها ، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله قبل الهديّة ، وقد قبل عليّ عليه السلام هدايا جماعةٍ من أصحابه ، ودعاه بعضُ مَنْ كان يأنس إليه إلى حَلْوَاء عملها يوم نوروز فأكلَ وقال : لمَ عملتَ هذا ؟ فقال : لأنه يوم نوروز ، فضحك . وقال : نَوْرِزُوا لنا فى كلّ يوم إن استطعتم .

وكان عليه السلام من لطافة الأخلاق وسجاحة الشيَم على قاعدة عجيبة جميلة ، ولكنه كان ينفر عن قومٍ كان يعلم من حالهم الشنآن له ، وممّن يحاول أن يصانعه بذلك عن مال المسلمين ، وهيهات حتى يلين لِضِرْس الماضغ الحجر !

وقال : بملفوفة فى وعائها ، لأنّه كان طبق مغطىً .

ثم قال : « ومعجونة شَنِئتُها » ، أى أبغضتها ونفرت عنها . كأنها عجنت بريق الحيّة أو بقيئها ، وذلك أعظم الأسباب للنفرة من المأكول .

وقال الراوندىّ : وصفها بالطافة فقال : كأنها عُجِنَتْ بريق الحيّة ، وهذا تفسير أبعد من الصحيح .

قوله : « أصِلَةٌ ، أم زكاة أم صدقة ؟ فذلك محرم علينا أهل البيت ! » ، الصّلة : العطيّة لا يراد بها الأجر ، بل يراد وصلة التقرّب إلى الموصول ، وأكثر ما تُفعَل للذِّكْر والصّيت . والزّكاة : هى ما تجب فى النّصاب من المال .

والصدقة ها هنا هى صدقة التّطوّع ، وقد تسمّى الزكاة الواجبة صدقة ، إلّا أنها هنا هى النافلة .

فإن قلت : كيف قال : « فذلك محرّم علينا أهل البيت » ، وإنما يحرم عليهم الزكاة الواجبة خاصة ، ولا يحرم عليهم صدقة التطوّع ، ولا قبول الصّلات ؟ قلت : أراد بقوله : « أهل البيت » الأشخاصَ الخمسة : محمدا ، وعليًا ، وفاطمة ، وحسنا ؛ وحسينا

عليهم السلام،فهؤلاء خاصّة دون غيرهم من بنى هاشم،يحرّم عليهم الصلة وقبول الصدقة،وأمّا غيرهم من بنى هاشم فلا يحرُم عليهم إلّا الزكاة الواجبة خاصّة .

فإن قلت : كيف قلت : إنّ هؤلاء الخمسة يحرُم عليهم قبول الصِّلات ، وقد كان حسن وحسين عليهما السلام يقبلان صِلَة معاوية ؟

قلت : كلاّ لم يقبلا صلته ، ومعاذ الله أن يقبلاها ! وإنما قبِلا منه ما كان يدفعه إليهما من جملة حقهما من بيت المال ، فإنّ سهم ذوى القربى منصوص عليه فى الكتاب العزيز ، ولهما غير سهم ذوى القربى سهم آخر للإسلام من الغنائم .

***

قوله : « هبلتك الهَبُول » أى ثكلتك أمّك،والهَبُول التى لها عادة بثكل الولد.

فإن قلت : ماالفرق بين مختبط ، وذى جنة ، ويهجُر ؟

قلت : المختبط:المصروع من غَلَبة الأخلاط السوداويّة أو غيرها عليه،وذو الجِنّة مَنْ به مسٌّ من الشيطان . والذى يهجُر هو الذى يهـذِى فى مرض ليس بصرَع كالمحموم والمبرسَم ونحوهما .

وجُلب الشّعيرة ، بضم الجيم : قشرها ، والُجلب والُجلبة أيضا جليدة تعلو الجرح عند البرء ، يقال منه : جلب الجرح يجلِب ويجلُب ، وأجلب الجرح أيضا ، ويقال للجليدة التى تجعل على القتب جُلْبة أيضا .

وتقضَمها بفتح الضاد ، والماضى قَضِم بالكسر .

***

[نبذ من أخبار عَقيل بن أبي طالب]

وعَقيل ، هو عَقِيل بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف، أخو أمير المؤمنين عليه السلام لأمّه وأبيه، وكان بنو أبي طالب أربعة : طالب، وهو أسنّ من عَقيل بعشر سنين ، وعَقِيل وهو أسنّ من جعفر بعشر سنين ، وجعفر وهو أسنّ من عليّ بعشر سنين ، وعليّ وهو أصغرهم سِنًّا ، وأعظمهم قَدْراً ، بل وأعظم النّاس بعد ابن عمّه قَدْراً .

وكان أبو طالب يحبّ عقيلاً أكثر من حبّه سائرَ بنيه ، فلذلك قال للنبيّ صلى الله عليه وآله والعباس حين أتَيَاه ليقتسِما بَنِيه عامَ المحْل ، فيخفّفا عنه ثِقَلهم : « دَعُوا لي عَقِيلاً ، وخذوا مَنْ شئتم » ، فأخذ العبّاس جعفراً ، وأخذ محمد صلّى الله عليه وآله عليا عليه السلام .

وكان عَقِيل يكنَى أبا يزيد، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا أبا يزيد ، إنّي أحبّك حُبَّيْن : حبًّا لقرابتك منّي ، وحبًّا لما كنت أعلم من حبّ عمّي إياك » .

أخرِج عَقِيلٌ إلى بدر مكرَهًا كما أخرِج العبّاس ، فأسِرَ وفُدِيَ ، وعاد إلى مكّة ، ثم أقبل مسلماً مهاجرا قبل الحديبية ، وشهد غزاة مُؤْتة مع أخيه جعفر عليه السلام، وتوفّي في خلافة معاوية في سنة خمسين ، وعمره ست وتسعون سنة .

وله دارٌ بالمدينة معروفة ، وخرج إلى العراق ، ثم إلى الشّام ، ثم عاد إلى المدينة ، ولم يشهد مع أخيه أمير المؤمنين عليه السلام شيئا من حروبه أيّام خلافته ، وعرض نفسه وولده عليه فأعفاه ، ولم يكلّفه حضور الحرب .

وكان أنسب قريشٍ وأعلمهم بأيامها ، وكان مبغَضاً إليهم ، لأنه كان يعدّ مساوئهم .

وكانت له طِنْفِسة تطرَحُ فى مسجد رسول الله صلى الله عليــه وآله ، فيصلّى عليها ، ويجتمع إليــه النــاس فى علم النسب وأيام العرب ، وكان حينئذ قد ذهب بصرُه ، وكان أسرع النّاس جوابا ؟ وأشدّهم عارضةً .

كان يقال : إنّ فى قريش أربعةً يُتحاكَم إليهم فى علم النّسب وأيام قريش ، ويرجع إلى قولهم : عَقِيل بن أبى طالب ، ومَخْرَمة بن نَوْفل الزّهرىّ ، وأبو الجهم بن حُذَيفــة العدوىّ ، وحويطب بن عبد العُزّى العامرىّ .

واختلف الناس فى عَقِيل ؛ هل التحق بمعاوية وأمير المؤمنين حىّ ؟ فقال قوم : نعم، ورَوَوْا أنّ معاوية قال يوما وعقيل عنده : هذا أبو زيد ، لولا علمه أنّى خيرٌ له من أخيه لمــا أقام عندنا وتركه . فقال عَقِيل : أخى خيرٌ لى فى دينى ، وأنت خيرٌ لى فى دنيــاى ، وقد آثرتُ دنياى ، أسأل الله خاتمة خير .

وقال قوم : إنه لم يَفِدْ إلى مُعاوية إلّا بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ واستدلُّوا على ذلك بالكتاب الذى كتبه إليه فى آخر خلافته ، والجواب الذى أجابه عليه السلام ، وقد ذكرناه فيما تقدم ، وسيأتى ذكره أيضا فى باب كتبه عليه السلام ، وهذا القول هو الأظهر عندى .

***

وروى المدائنى ، قال : قال معاوية يوما لعَقِيل بن أبى طالب: هل مِن حاجة فأقضيها لك ؟ قال : نعم جارية عُرِضت علىّ وأبى أصحابُها أن يبيعوها إلّا بأربعين ألفا ، فأحبّ معاويةُ أن يمازحَه فقــال : وما تصنع بجارية قيمتهــا أربعون ألفــا وأنت أعمى تجتزئ بجارية قيمتهــا خمسون درهما ! قال : أرجو أن أطــأها فتلد لى غلاما إذا أغضبتَه يضرب عنقك بالسيف . فضحك معاوية ؛ وقال : ما زحناك يا أبا يزيد ! وأمر فابتيعت له الجارية

التي أولد منها مُسلماً ، فلما أتت على مسلم ثماني عشرة سنة ــ وقد مات عَقِيل أبوه ــ قال لمعاوية : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ لي أرضاً بمكان كذا من المدينة ، وإني أعطيتُ بها مائة ألف ، وقد أحببت أن أبيعَك إياها ، فادفع إليّ ثمنها ، فأمر معاوية بقبض الأرض ، ودفع الثمن إليه .

فبلغ ذلك الحسين عليه السلام ، فكتب إلى معاوية : أما بعدُ ، فإنك غررتَ غلاماً من بني هاشم ، فابتعتَ منه أرضا لا يملكها ، فاقبض من الغلام ما دفعتَه إليه ، واردد إلينا أرضَنا .

فبعث معاوية إلى مسلم ، فأخبره ذلك ، وأقرأه كتاب الحسين عليه السلام ، وقال : ارددْ علينا مالنا ، وخذ أرضك ، فإنك بعتَ مالا تملك ، فقال مسلم : أمّا دونَ أن أضربَ رأسك بالسيف فلا ، فاستلقى معاوية ضاحكا يضرب برجليه ، فقال : يا بنيّ ، هذا والله كلام قاله لي أبوك حين ابتعتُ له أمك .

ثم كتب إلى الحسين : إني قد رددت عليكم الأرض ، وسوّغتُ مسلما ما أخذ . فقال الحسين عليه السلام : أبيتم يا آل أبي سفيان إلّا كرَما !

***

وقال معاوية لعَقِيل : يا أبا يزيد ، أين يكون عمّك أبولهب اليوم ؟ قال : إذا دخلت جهنم ، فاطلبه تجده مضاجعا لعمتك أم جميل بنت حرب بن أمية .

وقالت له زوجته ابنة عتبة بن ربيعة : يابنِي هاشم ، لايحبّكم قلبي أبدا ، أين عمّي؟ أين أخي ؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة ، ترى آنافهم الماء قبل شفاههم ، قال : إذا دخلت جهنم ، فخذِي عَلَى شمالك .

سأل معاوية عَقِيلا عن قصّة الحديدة المحمّاة المذكورة ، فبكى وقال : أنا أحدّثك يامعاوية عنه ، ثم أحدّثك عمّا سألت ، نزل بالحسين ابنه ضيف ، فاستسلف درهما اشترى به خبزا ، واحتاج إلى الإدام فطلب من قَنبر خادمهم ، أن يفتح له زِقّا من زقاق عسل جاءتهم من اليمن ، فأخذ منه رطلا ، فلمّا طلبها عليه السلام ليقسمها ، قال : ياقنبر ، أظنّ أنه حدث بهذا الزقّ حدث ! فأخبره ، فغضب عليه السلام ، وقال : علىّ بحسين ! فرفع عليه الدّرّة ، فقال : بحقّ عمّي جعفر — وكان إذا سئل بحقّ جعفر سَكن — فقال له : ماحملك أنْ أخذت منه قبل القسمة ؟ قال : إنّ لنا فيه حقا ، فإذا أعطيناه رددناه ، قال : فداك أبوك ! وإن كان لك فيه حقّ ، فليس لك أن تنتفع بحقك قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم ! أما لولا أنّى رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّل ثنيّتك لأوجعتُك ضربا . ثم دفع إلى قنبر درهما كان مصرورا فى ردائه ، وقال : اشترِ به خير عسلٍ تقدر عليه .

قال عقيل : والله لكأنى أنظر إلى يدى علىّ ، وهى عَلَى فم الزّق ، وقنبر يقلِب العسل فيه ، ثم شدّه وجعل يبكى ، ويقول : اللهمّ اغفِرْ لحسين فإنه لم يعلم !

فقال معاوية : ذكرتَ من لا ينكر فضله ، رحم الله أبا حسن ، فلقد سبق مَنْ كان قبله ، وأعجز مَنْ يأتى بعده ! هلمّ حديث الحديدة .

قال : نعم ؛ أقويت وأصابتنى مخمصة شديدة ، فسألته فلم تندَ صَفاتُه ، فجمعت صبيانى وجئته بهم ، والبؤس والضرّ ظاهران عليهم ، فقال : ائتنى عشيةً لأدفع إليك شيئا ، فجئته يقودنى أحد ولدى ، فأمره بالتنحّى ، ثم قال : ألا فدونك ، فأهويت — حريصاً قد غلبنى الجشع ، أظنها صرّة — فوضعتُ يدى عَلَى حديدة تلتهب نارا ، فلمّا قبضتها نبذتها ، وخُرْت كما يخور الثور تحت يد جازره ، فقال لى : ثكلتك أمّك ! هذا من حديدة

أوقدت لها نار الدنيا ، فكيف بك وبي غداً إن سُلِكنا في سلاسل جهنم ! ثم قرأ :
﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾[1] .

ثم قال : ليس لك عندي فوق حقّك الذي فرضه الله لك إلاّ ماترى ، فانصرف إلى أهلك .

فجعل معاوية يتعجّب ، ويقول : هيهات هيهات ! عَقِمت النساء أن يلدْنَ مثله !



(١) سورة غافر ٧١ .

(٢٢٠)

الأصل :

ومن دعاء له عليه السلام :

اللهمّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسارِ ، وَلَا تَبْذُلْ جاهِي بِالإِقْتارِ ، فَأَسْتَرْزِقَ طالِبِي رِزْقِكَ ، وَأَسْتَعْطِفَ شِرارَ خَلْقِكَ ، وَأُبْتَلَى بِحَمْدِ مَنْ أَعْطانِي ، وَأُفْتَتَنَ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي ، وَأَنْتَ مِنْ وَراءِ ذلِكَ كُلِّهِ وَلِيُّ الإِعْطاءِ وَالْمَنْعِ ؛ ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

* * *

الشرح :

صُنْ وجهي باليسار ، أي استره بأن ترزقني يساراً وثروة ، أستغني بهما عن مسألة الناس .

ولا تبذل جاهي بالإقتار ، أي لا تسقط مروءتي وحرمتي بين الناس بالفقر الذي أحتاج معه إلى تكفّف الناس .

* * *

وروى أنّ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجواد رقّت حاله في آخر عمره ، لأنّ عبد الملك جفاهُ ، فراح يوما إلى الجمعة ، فدعا فقال : اللهمّ إنك عوّدتني عادة جريتُ عليها ، فإن كان ذلك قد انقضى ، فاقبضني إليك . فلم يلحق الجمعة الأخرى .

وكان الحسنُ بن عليّ عليه السلام يدعو فيقول : « اللهمّ وسّعْ عليّ فإنه لا يسعني إلّا الكثير » .

* * *

قوله: « فأسترزقَ » منصوب لأنه جواب الدعاء ، كقولهم: ارزقني بعيرا فأحجَّ عليه.
بيّن عليه السلام كيفية تبذّل جاهه بالإقتار ، وفسّره فقال : بأن أطلب الرزق ممّن يطلب منك الرزق .

وأستعطف الأشرار من النّاس ، أى أطلب عاطفتهم وإفضالهم ، ويلزم من ذلك أمران محذوران :

أحدهما أن أبتلى بحمد المعطى .

والآخر أن أفتتن بذمّ المانع .

قوله عليه السلام : « وأنت من وراء ذلك كلّه » مثل يقال للمحيط بالأمر ، القاهر له ، القادر عليه ، كما تقول للملك العظيم : هو من وراء وزرائه وكتّابه ، أى مستعدّ متهيّئ لتتبّعهم وتعقّبهم ، واعتبار حركاتهم ، لإحاطته بها وإشرافه عليها .

وولىّ ، مرفوع بأنّه خبر المبتدأ ، ويكون خبراً بعد خبر ، ويجوز أن يكون « ولىّ » هو الخبر ، ويكون « من وراء ذلك » ، جملة مركّبة من جار ومجرور منصوبة الموضع ؛ لأنّه حال .

(٢٢١)

الأصـلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

دَارٌ بِالْبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ ، وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ . لاتَدُومُ أَحْوَالُهَا ، وَلَا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا . أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ ، الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ ، وَالأَمَانُ مِنْهَا[1] مَعْدُومٌ ، وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ ، تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا ، وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا .

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَـذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَعْمَرَ دِيَارًا ، وَأَبْعَدَ آثَارًا ؛ أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً ، وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً ، وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً ، وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً ، وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً ، فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ ، وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ ؛ الصُّخُورَ وَالأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ ، وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ ، الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فِنَاؤُهَا ، وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا ، فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ ، وَسَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ ، بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ ؛ وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ ، لَا يَسْتَأْنِسُونَ بِالأَوْطَانِ ، وَلَا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ ، عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجِوَارِ ، وَدُنُوِّ الدَّارِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ ، وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبِلَى ، وَأَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَالثَّرَى !

وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ ، وَارْتَهَنَكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ ، وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ .

فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الأُمُورُ ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ

---

(١) ب : « فيها » .

نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [1] .

* * *

الشـرح :

بالبلاء محفوفة : قد أحاط بها من كلّ جانب.

وتارات : جمع تارة ، وهى المرّة الواحدة . ومتصرّفة : منتقلة متحوّلة .

ومستهدِفة بكسر الدال: منتصبة مهيّأة للرمى،وروى : « مستهدَفة » بفتح الدال على المفعولية ، كأنها قد استهدفها غيرُها ، أى جعلها أهدافا .

ورياحهم راكدة : ساكنة . وآثارهم عافية : مندرسة .

والقصور المشيّدة . العالية ، ومن روى : « المَشِيدة » بالتخفيف وكسر الشين،فمعناه المعمولة بالشِّيد ، وهو الجِص .

والنمارق : الوسائد .

والقبور المُلْحَدَة : ذوات اللحود .

وروى : « والأحجار المسنّدة » بالتشديد .

قوله عليه السلام : « قد بُنِي على الخراب فناؤها »؛أى بنيت لا لتسكن الأحياء فيها كما تبنى منازل أهل الدنيا .

والكلاكل : الصدر ؛ وهو هاهنا استعارة .

والجنادل : الحجارة . وبعثرت القبور : أثيرت .

وتبلو كلّ نفس ما أسلفت : تخبر وتعلم جزاء أعمالها ، وفيه حذف مضاف ، ومن

---

(١) سورة يونس ٣٠ .

قرأ : «تتلو» بالتاء بنقطتين ، أى تقرأ كلّ نفس كتابها . وضلّ عنهم ما كانوا يفترون: بطل عنهم ما كانوا يدّعونه ويكذبون فيه من القول بالشركاء وأنهم شفعاء .

* * *

[ذكر بعض الآثار والأشعار الواردة فى ذم الدنيا]

ومن كلام بعض البلغاء فى ذم الدنيا : أمّا بعد ، فإن الدنيا قد عاتبت نفسها بما أبدت من تصرّفها ، وانبأت عن مساوئها بما أظهرت من مصارع أهلها ، ودلت على عوراتها بتغيّر حالاتها ، ونطقت ألسنةُ العِبَر فيها بزوالها ، وشهد اختلافُ شئونها على فنائها، ولم يبق لمرتاب فيها ريب ، ولا ناظر فى عواقبها شكّ ، بل عرَفها جلُّ مَنْ عرفها معرفة يقين ، وكشفوها أوضح تكشيف ، ثم اختلجتهم الأهواء عن منافع العلم ، ودلّتهم الآمال بغرور ، فلجّجت بهم فى غمرات العجز ، فسبحوا فى بحورها موقنين بالهلكة ، ورتعوا فى عِراصها عارفين بالخدْعة ، فكان يقينهم شكاً ، وعلمهم جهلا ، لا بالعلم انتفعوا ، ولا بما عاينوا اعتبروا . قلوبهم عالمة جاهلة ، وأبدانهم شاهدة غائبة ، حتى طرقتهم المنيّة ، فأعجلتهم عن الأمنيّة ، فبغتَتْهم القيامة ، وأورثتهم الندامة ، وكذلك الهوى حلَت مذاقتُه ، ومَرّت عاقبتُه ، والأمل يُنْسَى طويلا ، ويأخذ وشيكا ، فانتفع امرؤ بعلمه ، وجاهد هواه أن يضلّه ، وجانب أمله أن يغرّه ، وقَوِيَ يقينه على العمل ، ونفى عنه الشكّ بقطع الأمل ، فإنّ الهوى والأمل إذا استضعفا اليقين صَرَعاه ، وإذا تعاونا على ذى غفلة خدعاه ، فصريعهما لا ينهض سالما ، وخديعهما لا يزال نادما ، والقوىّ مَنْ قوِىَ عليهما ، والحازم من احترس منهما . ألبسنا الله وإياكم جُنّة السلامة ، ووقانا وإياكم سوء العذاب !

* * *

كان عمر بن عبد العزيز إذا جلس للقضاء قرأ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾[1] .

قال منصور بن عمّار لأهل مجلسه : ماأرى إساءة تَكبُرُ على عفو الله فلا تيأس ، وربما آخذ اللهُ على الصّغير فلا تأمن ، وقد علمتَ أنك بطول عفو الله عنك عَرّت مجالس الاغترار به ، ورضيت لنفسك المقام على سخطه ، ولو كنت تعاقِبُ نفسك بقدر تجاوُزه عن سيئاتك ، مااستمرّ بك لجاج فيما نُهيتَ عنه ، ولا قصرت دون المبالغة فيه ، ولكنك رهين غفلتك ، وأسير حَيْرتك .

* * *

قال إسماعيل بن زياد أبو يعقوب : قدم علينا بعبّادان راهبٌ من الشام، ونزل ديرابن أبي كَبْشة، فذكروا حكمة كلامه، فحملني ذلك على لقائه ، فأتيته وهو يقول : إن لله عباداً سمَتْ بهم هِمَمُهم فهووا عظيم الذخائر ، فالتمسوا من فضل سيدهم توفيقا يُبلغهم سُمُوّ الهمم فإن استطعتم أيها المرتحلون عن قريب أن تأخذوا ببعضِ أمرهم ، فإنهم قوم قد ملكت الآخرة قلوبَهم ، فلم تجد الدنيا فيها ملبساً ، فالحزن بثهم ، والدمع راحتهم ، والدءوب وسيلتُهم ، وحسن الظنّ قربانهم ، يحزنون بطول المكث فى الدنيا إذا فرح أهلها ، فهم فيها مسجونون ، وإلى الآخرة منطلقون .

فما سمِعت موعظة كانت أنفعَ لى منها .

* * *

ومن جيد شعر أبى نواس فى الزهد[2] :

يابنى النَّقصِ والغِيَرْ وبنى الضَّعفِ والخوَرْ
وبنى البُعدِ فى الطِّبا ع على القُرْبِ فى الصُّوَرْ

(١) سورة الشعراء ٢٠٥ ، ٢٠٧ .
(٢) ديوانه ١٩٥ .

والشُّكول الّتي تبـا ... ينُ في الطُّول والقِصَرْ
أينَ مَنْ كانَ قَبلَكُمْ ... مِنْ ذَوِي البأسِ والخَطَرْ
سائِلوا عنهمُ المدَا ... ئِنَ واستبحثُوا الخَبَرْ
سبقونا إلى الرّحيـ ... ـلِ وإنّا بالأثرْ
مَنْ مَضى عِبْرَةٌ لَنا ... وَغَداً نَحْنُ مُعْتَبَرْ
إنّ للموت أخذةً ... تسبق اللّمح بالبَصَرْ
فكأنّي بكم غَداً ... في ثيابٍ من المَدَرْ
قد نُقِلْتُمْ من القُصُو ... رِ إلى ظُلْمَةِ الحُفَرْ
حيث لا تضرب القِبا ... بُ عليكم ولا الحُجَرْ
حيث لا تطربون منـ ... ـه لِلَهوٍ ولا سَمَرْ [1]
رحِم الله مسلماً ... ذكر الموت فازدَجَرْ !
رحم الله مؤمناً ... خاف فاستشعر الحَذَرْ !

***

ومن جيّد شعر الرضيّ أبي الحسن رحمه الله في ذكر الدنيا وتقلبها بأهلها [2] :

وهل نحن إلا مرامي السِّها ... م يحفزها نابلٌ دائبُ [3]
نُسَرُّ إذا جازنا طائشٌ ... ونجزعُ إنْ مسّنا صائبُ
ففي يومنا قَدَرٌ لابدٌ ... وعند غدٍ قَدَرٌ واثِبُ [4]

---

(١) رواية الديوان :

حيثُ لا تطهرون فيـ ... ـهِ لِلَهوٍ ولا سَمَرْ

(٢) ديوانه لوحة ٧١١ ، من قصيدة يرثي فيها عميد الجيوش أبا عليّ الحسن بن جعفر .
(٣) النابل : صاحب النبل . والدائب : المجد .
(٤) لابد : مقيم .

طرائد تطردُها النائبات ... ولا بدّ أنْ يدركَ الطالِبُ
أرى المرء بفعل فعل الحديد ... وهو غداً حَمَاً لازبُ[1]
عواريُّ من سَلَبِ المالكينَ ... يمدّ يداً نحوها السالبُ
لنا بالردى موعدٌ صادقٌ ... ونيل المُنى موعدٌ كاذبُ
حبائلُ للدهرِ مبثوثةٌ ... يُرَدّ إلى جذبِها الهاربُ
وكيف نجاوِز غاياتِنا ... وقد بلغ الموردَ القاربُ[2]
نصبِّح بالكأسِ مجدحةً[3] ... ذُعافاً ، ولا يعلم الشاربُ[4]

* * *

وقال أيضا ، وهي من محاسن شعره :

ما أقلّ اعتبارنَا بالزّمَانِ ... وأشدّ اغترارنا بالأماني ![5]
وقفاتٌ على غرورٍ ، وإقدا ... م على مُزْلقٍ من الحدَثَانِ
في حروب مع الردى فكأنا الـ ... يومَ في هُدْنةٍ مع الأزمانِ
وكفانا مذكّراً بالمنايا ... عِلْمُنَا أننا من الحيَوانِ
كلّ يوم رزيّةٌ بفلانٍ ... ووقوعٌ من الرّدَى بفلانِ
كم تراني أضِلُّ نفساً وألهو ... فكأني وثقتُ بالوجدانِ
قل لهذي الهوامل استوفِقي السّيْـ ... ـر أو استنشِدِي عن الأعطَانِ
واستقيمي قد ضمّك اللّقَمُ النّهْـ ... ـجُ ، وغنّى وراءك الحادِيانِ[6]

(١) الحمأ : الطين الأسود المنتن . واللازب : الصلب اللازق .
(٢) المورد : مكان ورود الماء . والقارب : الذى يطلب الماء .
(٣) نصبح : نؤتى بها وقت الصبح . ومجدوحة : مخلوطة .
(٤) رواية الديوان :

* ولا علمَ لي أيّنا الشاربُ *

(٥) ديوانه لوحة ١٥٥ ، يرثى صديقاً له من بنى العباس اسمه أبو عبد الله بن الإمام .
(٦) اللقم : معظم الطريق .

كم محيداً عن الطريق وقد ضـرّج خَلجُ البُرَى وجذب العِرَان

ننثنى جازعين من عَـدْوة الدهـ ـرِ ونرتاع للمنايا الرّوانى

جفـلة السِّرب فى الظلام وقد ذُ ـعر روعاً من عَـدوة الذُّؤبانِ

ثم نَنسَى جرحَ الحِمَامِ وإنْ كا ن رغيباً ياقُرْبَ ذا النسيان !

كلّ يوم تَزايلٌ مـن خَليطٍ بالرّدى ، أو تباعدٌ من دانٍ (١)

وسواء مضى بنا القـدر الجِـدّ عَجُولاً ، أو ماطل العَصْرانِ

***

وأيضا من هذه القصيدة :

قـد مررنا على الدّيار خُشـوعاً ورأينـا البنـا ، فأينَ البـانى !

وجَهِلنا الرُّسـومَ ثم عَلِمنا فذكرنا الأوطارَ بالأوطانِ

التفـاتاً إلى القُرون الخـوالى هل نرى اليوم غـير قرنٍ فانٍ !

أين رب السَّدير فالحـيرة البيـ ـضاء ، أم أين صاحبُ الإيوان !

والسّيوف الحِـداد من آل بدرٍ والقَنا الصمّ من بنى الرّيّانِ

طردَتْهمْ وقائع الدّهر عـن لعـ ـلع طرد السّفّاف عن نجْرانِ

والمواضى من آل جفنَـة أرسَى طُنُبَا ملكهمْ على الجولانِ

يـكرعون العُقار فى فلق الإبـ ـريز كَرْع الظّماء فى الغُدْرانِ (٢)

من أباة اللّعنِ الذين يُحيّو ن بهـا فى معـاقدِ التّيجان

تتراءاهمُ الوفود بعيـداً ضاربين الصّـدور بالأذقانِ

---

(١) الخليط : الصديق ، والدانى : القريب

(٢) الفلق : القطعة من الجفان

فى رياضٍ من السّماح حَـوالٍ وجبال من الُحـلوم رِزانِ

ومُ المـاء لَذّ للنـاهل الظّمـآنِ بَرْداً والنّارُ للحـيران

كُلُّ مستيقظ الجنان إذا أظـلَمَ ليـلُ النّوّامة المِبْطَان

يفتدى فى الشّباب غيرَ شجاع ويُرى فى النّزال غير جَبان

ماثنت عنهم المنون يداً شو كاء أطرافُها من المرّانِ (١)

عَطَف الدّهرُ فَرْعَهمْ فرآه بُعد بعـد الذّرا قريب الجانى

وثنتهمْ بعـدَ الجماح المنايا فى عِنَانِ التّسليم والإذعان

عُطّلت منهم المقارى وباخَتْ فى حماهمْ مواقِدُ النّيران (٢)

ليس يَبْقى على الزّمانِ جرىء فى إباء ، أو عاجز فى هَوَانِ

لا شبوب من الصّوار ولا أعـنق يرعى منابِتَ المِلْجَانِ

لا ولا خاضب من الرُّبْد يغتا ل بربطٍ أحمَّ غيرَ يمانٍ (٣)

يرتمى وِجهةَ الرئال إذا آ نَس لون الإظلام والإدجان

وعُقاب اللاعِ تُلحم فَرْخَيْـها بإزليقـةِ زلول القِنَانِ

نائلا فى مطامح الجوّ هاتيـ لك وذا فى مهابط الغيطان

وهذا شعر فصيح نادر معرق فى العربية .

***

(١) المران : الرماح .
(٢) باخت : خمدت .
(٣) الربط : جمع ربطة .

ومن شعره الجيد أيضا فى ذكر الدنيا ومصائبها (١) :

أو ما رأيتَ وقائع الدّهرِ أفــلا تسىء الظّنّ بالعُمْرِ !
بينــا الفتى كالطَّوْدِ تـكنفُهُ هضباته ، والعضب ذى الأثرِ
يأبَى الدنيــــة فى عشيرته ويجاذِبُ الأيدى على الفَخْرِ
وإذا أشارَ إلى قبــــائله حُشِدت عليــه بأوجهٍ غُرِّ
يترادفون على الرماح فَهُمْ سيل يصبُّ وعارضٌ يسرِى
إن نُهْنِهوا زادوا مقاربةً فــكأنّمــا يُدعَوْنَ بالزّجْرِ
عــدد النجوم إذا دُعِى بهمُ يتزاحمون تزَاحُمَ الشّمر
عقــدوا على الجلّى مآزِرَهُمْ سَبِطى الأنامل طَيِّبى النّشْرِ
زل الزمانُ بوطء أخمصِه ومواطئُ الأقدام للعــــثر
نزع الإباء وكان شمْلتَه وأقر إقرارا عَلَى صُغْرِ
صَدع الردى ، أعيـا تلاحمه من الحم الصدَفين بالقِطْرِ
جر الجيـاد على الوَجَى ومَضَى أممــا يدق السّهل بالوعْرِ
حتى التقى بالشمس مُمْعَدَةً فى قَفْر منقطعٍ من البَحْرِ
ثم انثنتْ كيفُ المنون بِهِ كالضّغْث بين النّاب والظُفْر
لم تشتجرْ عنـه الرماح ولا ردّ القضاء بماله الدّثْرِ
جَمَع الجنود وراءه فــكأنّمـا لاقتْــه وهو مضيّع الظّهْرِ
وبَنَى الحصون ممنّعًا فــكأنّمـا أمسى بمَضيَعــةٍ وما يدرِى
وبَرَى المنابِل للعِدا فــكأنّما لحِمامِهِ كانَ الّذى يبرِى

* * *

(١) من قصيدة يرثى بها أبا الحسن عبدالله بن محمد ، ديوانه لوحة ١٣٢ .

إن التوقي فرط منعجزة فدع القضاء يَقُدّ أو يَفري
وحمى الطعام لبقا وذي الـــآجال مل، فروجها تجري
لو كان حفظ النفس ينفعنا كانَ الطبيب أحقّ بالعُمْرِ
الموت داء لا دواء له سيّانِ ما يوبى وما يُمْرِي

وهذا من حر الــكلام وفصيحه ونادره ، ولا عجب فهذه الورقة من تلك الشجرة ،
وهذا القبس من تلك النار !



(٢٢٢)

الأصل :

ومن دعاء له عليه السلام :

اَللَّهُمَّ إِنَّكَ آنَسُ الآنِسِينَ لأَوْلِيَائِكَ ، وَأَحْضَرُهُمْ بِالْكِفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ ، تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ ، وَتَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ ، فَأَسْرَارُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ ، إِنْ أَوْحَشَتْهُمُ الْغُرْبَةُ ؛ آنَسَهُمْ ذِكْرُكَ ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجَأُوا إِلَى الاسْتِجَارَةِ بِكَ ؛ عِلْماً بِأَنَّ أَزِمَّةَ الأُمُورِ بِيَدِكَ ، وَمَصَادِرَهَا عَنْ قَضَائِكَ .

اَللَّهُمَّ إِنْ فَهِهْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي ، أَوْ عَمِيتُ عَنْ طِلْبَتِي ، فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي ، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ ، وَلَا بِبِدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ .

اَللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ ، وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَدْلِكَ .

* * *

الشرح :

أنست : ضدّ وحشت ، والإيناس : ضدّ الإيحاش ، وكان القياس أن يقول : إنك آنس المؤنسين ، لأن الماضي « أفعل » وإنما الآنسون جمع آنس ، وهو الفاعل من أنست بكذا ، لا من « آنست » ؛ فالرواية الصحيحة ، اذن « بأوليائك » أي أنت أكثرهم أنساً بأوليائك وعطفا وتحننا عليهم .

وأحضرهم بالكفاية ، أي أبلغهم إحضارا لكفاية للمتوكلين عليهم ، وأقومهم بذلك

تشاهدهم فى سرائرهم ، أى تطلع على غيبهم ، والبصائر : العزائم ، نفذت بصيرته فى كذا ، أى حقّ عزمه .

وقلوبهم إليك ملهوفة ، أى صارخة مستغيثة .

وفهِهت عن مسألتى ، بالكسر : عَيِيت ، والفهّة والفَهاهةُ : العىّ ، رجل أفِهٌ ، ورجل فهّ أيضا ، وامرأة فَهِهة ، قال الشاعر :

فلم تُلفنى فَهًّا ولم تُلفِ حاجتى ملجلَجةً أبغى لها مَنْ يقيمها [1]

وقد فَهِهْتَ يا رجل فَهَهًا ، أى عييت ، ويقال سفيه فهيه ، وفهه الله ، وخرجت لحاجة فأفهّنى عنها فلان ، أى أنسانيها .

ويروى : «أو عمهت » بالهاء والميم المكسورة ، والعَمَه : التحيّر والتردّد ، عَمِه الرجل ، فهو عَمِه وعامِهٌ والجمع عُمّهٌ ، وأرض عَمْهاء : لا أعلام بها .

والنكر . العجب والبِدْع المبتدع ، ومنه قوله تعالى . ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنْ الرُّسُلِ ﴾ [2] ؛ أى لم آت بما لم أسبق إليه .

ومثل قوله عليه السلام . « اللهم احمِلْنى على عفوك ، ولا تحملنى على عَدْلك » قولُ المرْوانية للهاشميّة لما قُتل مروان فى خبرٍ قد اقتصصناه قديما . ليسَعْنا عدْلُكم ، قالت الهاشمية . إذنْ لا نُبقِى منكم أحداً ، لأنكم حاربتم عليا عليه السلام ، وسَممتم الحسن عليه السلام ، وقتلتم الحسين وزيدا وابنه ، وضربتم علىّ بن عبد الله ، وخنقتم إبراهيم الإمام فى جراب النورة .

قالت . قد يسعنا عفوكم ، قالت . أما هذا فنعم .

---

(١) الصحاح ٢٢٤٥ من غير نسبة .

(٢) سورة الأحقاف ٩ .

[أدعية فصيحة من كلام أبي حيان التوحيدي]

ومن الدعوات الفصيحة المستحسَنة فصولٌ من كلام أبي حيان التوحيديّ نقلتها .

فمنها : اللهمّ إنّى أبرأ من الثقة إلّا بك ، ومن الأمل إلّا فيك ، ومن التسليم إلّا لك ، ومن التفويض إلّا إليك ، ومن التوكُّل إلّا عليك ، ومن الطلب إلّا منك ، ومن الرّضا إلّا عنك ، ومن الذلّ إلا فى طاعتك ، ومن الصبر إلا على بلائك ، وأسألك أن تجعلَ الإخلاص قرين عقيدتى ، والشكرَ على نعمك شعارِى ودثارى ، والنظَر إلى ملكوتك دأبى وديدنى ، والانقياد لك شأنى وشُغلى ، والخوف منك أمْنِى وإيمانى ، واللِّياذَ بذكرك بَهْجتِى وسرورى .

اللهمّ تتابع برُّك، واتّصل خيرُك، وعَظُم رِفْدُك، وتناهى إحسانك، وصدق وعدُك، وبَرّ قَسَمُك، وعمّت فواضلك، وتمّت نوافلك، ولم تبقَ حاجةٌ إلّا وقد قضيتَها، أو تكفّلت بقضائها ، فاختِم ذلك كلّه بالرضا والمغفرة ؛ إنّك أهلُ ذلك ، والقادر عليه ، والمليّ به .

* * *

ومنها : اللهمّ إنى أسألُك خفايا لطفك ، وفواتحَ توفيقك، ومألوفَ برّك ، وعوائد إحسانك، وجاه المقدّسين من ملائكتك ، ومنزلة المصطفَيْن من رسلك ، ومكاثرة الأولياء من خلقك ، وعاقبة المتقين من عبادك .

وأسألك القناعة برزقك ، والرّضا بحكمك ، والنزاهة عن محظورك ، والوَرَع فى شبهاتك والقيامَ بحجتك ، والاعتبار بما أبديت ، والتسليمَ لما أخفيت ، والإقبالَ على ما أمرت ، والوقوف عمّا زجرت، حتى أتّخذ الحقّ حجة عندما خَفّ وثقل ، والصدق سنّة فيما عَسُر وَسُهل ، وحتى أرى أنّ شعار الزهد أعزّ شعار ، ومنظر الباطل أشوه منظر ،

فأتبختَر فى ملكوتك بفضفاض الرداء بالدّعاء إليك ، وأبلغَ الغاية القصوى بين خلْقك بالثناء عليك .

* * *

ومنها : اللهمّ إليك أرفع عُجَرِى وبُجَرِى ، وبك أستعين فى عُسْرِى ويُسرى ، وإيّاك أدعو رَغَباً ورَهَباً ، فإنّك العالم بتسويل النّفْس ، وفتنة الشيطان ، وزينة الهوى ، وصرْف الدهر ، وتلون الصديق ، وبائقة الثّقة ، وقنوط القلب ، وضعف المُنة ، وسوء الجزَع .

فقِنى اللّهم ذلك كلّه ، واجمع من أمرى شمله ، وانظِمْ من شأنى شتيتَه ، واحرُسْنى عند الغنى من البَطَر ، وعند الفقر من الضّجَر ، وعند الكفاية من الغَفْلَة ، وعند الحاجة من الحسْرة ، وعند الراحة من الفسُولة ، وعند الطّلب من الخيبة ، وعند المنازلة من الطغيان ، وعند البحث من الاعتراض عليك ، وعند التسليم من التّهمة لك .

وأسألك أن تجعل صدرى خِزانة توحيدك ، ولسانى مفتاح تمجيدك ، وجوارحى خَدَم طاعتك ؛ فإنه لا عزّ إلا فى الذلّ لك ، ولا غنَى إلا فى الفقر إليك ، ولا أمْنَ إلا فى الخوف منك ، ولا قرار إلا فى القَلَق نحوك ، ولا رَوح إلا فى الكرْب لوجهك ، ولا ثقةَ إلا فى تهمة خلقك ، ولا راحة إلا فى الرضا بقَسْمك ، ولا عيش إلا فى جوار المقربين عندك .

* * *

ومنها : اللهم ببرهانك الصادع ، وبنور وجهك الساطع ؛ صلّ على محمد نبيّك نبى الرحمة ، وقائد الأمّة ، وإمام الأئمة ، واحرس علىّ إيمانى بك بالتسليم لك ، وخفف عنّى مؤنة الصبر على امتحانك ، وواصل لى أسباب المزيد عند الشكر على نعمتك ، واجعل بقيّة عمرى فى غنًى عن خلقك ، ورضا بالمقدّم من رزقك .

اللهم إنك إن آخذتنا بذنوبنا خَسَفَت الأرض بنا ، وإن جازيتنا على ظلمنا قطعت دوابرنا ، فإنك قلت : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[1].

اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا ؛ وغلّ صدورنا ؛ وفتنةَ أنفسنا ، وطموحَ أبصارنا ، ورفَث ألسنتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا ، وفُحْش لجاجنا ، وقبح دعوانا ، ونَتْن أشرارنا ، وخُبْث أخيارنا ، وتلزّق ظاهرنا ، وتمزّق باطننا .

اللهم فارحمنا ، وارأفْ بنا ، واعطف علينا ، وأحسِن إلينا ، وتجاوز عنّا ، واقبل الميسورَ منّا ، فإننا أهلُ عقوبة ، وأنت أهل مغفرة ، وأنتَ بما وصفت به نفسَك أحقّ منّا بما وَسَمْنَا به أنفسنا ، فإن فى ذلك ما اقترن بكرَمِك ، وأدّى إلى عفوك . ومن قبل ذلك وبعده ، فأَطِبْ عيشنا بنعمتك ، وأرحْ أرواحنا من كدّ الأمل فى خلقك ، وخذ بأزمّتنا إلى بابك ، وألْهِ قلوبنا عن هذه الدار الفانية ، وازرع فيها محبّة الدار الباقية ، وقلّبنا على بساط لطفك ، وحُثّنا بالإحسان إلى كنَفك ، ورفّهنا عن التماس ماعند غيرك ، واغضض عيونَنا عن ملاحظة ماحُجِب من غيرك ، وصِلْ بيننا وبين الرّضا عنك ، وارفع عناءؤنة العَرْض عليك ، وخفّف علينا كلّ ما أوصلنا إليك ، وأذقنا حَلاوة قُربك ، واكشف عن سرائرنا سواتر حُجُبك ، ووكّل بنا الحفَظة ، وارزقنا اليقَظة ، حتى لا نقترف سيّئة ، ولا نفارق حسنة ، إنّك قائم على كلّ نفس بما كسبت ، وأنت بما نخفى ومانعلن خبير بصير .

***

ومنها : اللهمّ أنت الحىّ القيّوم ، والأوّل الدائم ، والإله القديم ، والبارئ المصوّر ، والخالق المقدّس ، والجبّار الرفيع ، والقهّار المنيع ، والملك الصَّفُوح ، والوهّاب المَنُوح ،

---

(١) سورة الأنعام ٤٥ .

والرحمن الرءوف ، والحنّان العطوف ، والمنّان اللطيف ، مالك الذوائب والنّواصي ، وحافظ الأداني والأقاصي ، ومصرّف المطيع والعاصي .

اللهمّ أنت الظّاهر الذي لا يجحدك جاحد إلا زايلته الطّمأنينة ، وأسلمه اليأس ، وأوحشه القنوط ، ورحلتْ عنه العصمة ، وتردّد بين رجاء قد نأى عنه التّوفيق ، وأمل قد حفّت به الخيبة ، وطمع يحوم على أرجاء التّكذيب ، وسرّ قد أطاف به الشّقاء ، وعلانية قد أناف عليها البلاء ، موهون المُنّة ، منسوخ العقدة ، مسلوب العدّة ، تشنؤه العين ، وتقليه النّفس ، عَقْلُه عقلٌ طائر ، ولبّه لُبٌّ حائر وحكمه حكم جائر ، لا يروم قرارا إلا أزعج عنه ، ولا يستفتح بابا إلا أرتج دونه ، ولا يقتبس ضَرَماً إلا أجّج عليه ، عثرتُه موصولة بالعَثْرة ، وحسرته مقرونة إلى حسرة ، إن سمع زيّف ، وإن قال حرّف ، وإن قضى خرّف ، وإن احتجّ زخرف ، ولَوْ فاء إلى الحقّ لوجد ظلّه ظليلا ، وأصاب نجعه مثوّى ومقيلا ،

وأنت الباطن الذي لا يرومك رائم ، ولا يحوم على حقيقتك حائم ، إلا غشيَه من نور إلهيّتك ، وعزّ سلطانك ، وعجيب قدرتك ، وباهر برهانك ، وغرائب غيوبك ، وخفيّ شأنك ، ومخوف سطوتك ، ومرجوّ إحسانك ، ما يردّه خاسئا من مزحزحه عن الغاية ، خجِلا مَبْهوراً ، ويردّه إلى عجزه ، ملتحفاً بالعدم ، مرتديا بالاستكانة ، راجعاً إلى الصّغار ، موقوفاً مع الذلّة . فظاهرك يدعو إليك بلسان الاضطرار ، وباطنك يحيّر فيك لسعة فضاء الاعتبار ، وفعلك يدلّ عليك الأسماع والأبصار ، وحكمتك تعجب منك الألباب والأسرار . لك السلطان والملكة ، وبيدك النّجاة والهلكة ، فإليك المفرّ ، ومعك المقرّ ، ومنك صنوف الإحسان والبر ، أسألك بأصحّ سرّ ، وأكرم لفظ ، وأفصح لغة ، وأتمّ إخلاص ، وأشرف همّة ، وأفضل نيّة ، وأطهر عقيدة ، وأثبت يقين ، أن تصدّ عنّي

كلّ مايصدّ عنك ، وتصلني بكلّ مايصل بك ، وتحبّب إلىّ كلّ مايحبّب إليك ، فإنك الأوّل والثانى ، والمشار إليه فى جميع المعانى ، لا إله إلا أنت .

* * *

ومنها : اللهمّ إنى أسألك جدًّا مقرونا بالتوفيق ، وعلماً بريئا من الجهل ، وعملا عريًّا من الرياء ، وقولًا موشّحا بالصواب ، وحالًا دائرة مع الحقّ ، وفطنةَ عقل مضروبة فى سلامة صدور ، وراحةَ جسم راجعةً إلى روح بال ، وسكونَ نفس موصولا بثبات يقين ، وصحّة حجّةٍ بعيدة من مرض شبهة ، حتى تكون غايتى فى هذه الدنيا موصولةً بالأمثل فالأمثل ؛ وعاقبتى عندك محمودة بالأفضل فالأفضل ؛ من حياة طيّبة أنت الواعد بها ، ونعيم دائم أنت المبلّغ إليه .

اللهم لا تخيّب رجاء هو منوطٌ بك ، ولا تُصفِر كفًّا هى ممدودة إليك ، ولا تعذّب عيناً فتحتَها بنعمتك ، ولا تذلّ نفسا هى عزيزة بمعرفتك ، ولا تسلُبْ عقلا هو مستضىء بنور هدايتك ، ولا تخرس لسانا عوّدته الثناء عليك ، فكما كنت أوّلًا بالتفضّل ، فكن آخراً بالإحسان .

الناصيةُ بيدِك ، والوجه عانٍ لك ، والخير متوقَّعٌ منك ، والمصير على كلّ حالٍ إليك .

ألبِسنى فى هذه الحياة البائدة ثوبَ العِصْمة ، وحَلِّنى فى تلك الدّار الباقية بزينة الأمن ، وافطِم نفسى عن طلب العاجلة الزائدة ، وأجرِنى على العادة الفاضلة ، ولا تجعلنى ممّن سها عن باطن مالَك عليه ، بظاهر مالَك عنده ، فالشقىّ مَنْ لم تأخذ بيده ، ولم تؤمّنه من غده ، والسعيد من آويته إلى كنَف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقَشٍ فى الحساب ، ولا سائق له إلى العذاب ، فإنّك على ذلك قدير .

* * *

ومنها : اللّهمّ اجعل غدوّنا إليك مقروناً بالتوكّل عليك ، ورواحَنا عنك موصولاً

بالنجاح منك ، وإجابتنا لك راجعةً إلى التهالك فيك ، وذكْرَنا إيّاك منوطاً بالسكون معك ، وثقتنا بك هاديةً إلى التفويض إليك ، ولا تخلِنا من يدٍ تستوعب الشكر ، ومن شكر يعترى خلفَ المزيد ، ومن مزيد يسبق اقتراح المقترحين ، وصنع يفوق ذَرْع الطالبين ، حتى نلقاك مبشَّرين بالرّضا ، محكّمين في المُنى ، غير مناقَشين ولا مطرودين .

اللهم أعِذْنا من جَشَع الفقير ، وريبة المنافق ، وتجليح[1] المعاند ، وطيشة المَجُول ، وفَتْرة الكَسْلان ، وحيلة المستبدّ وفتور العقل[2] ، وحَيْرة المُحرج ، وحَسْرةِ المحوَج ، وفَلْتة الذُّهول ، وحُرْقة الثكول[3] ، ورقّة الخائف ، وطمأنينة المغرور ، وغفلة الغرور .

واكفنا مؤنة أخ يرصدُ مسكوناً إليه ، ويمكر موثوقاً به ، ويخيس[4] معتمَداً عليه .

وصل الكفاية بالسُّلْوة عن هذه الدنيا ، واجعل التهافتنا عليها حنيناً إلى دار السلام ، ومحلّ القرار ، وغلِّب إيماننا بالغيب على يقيننا بالعيان ، واحرسنا من أنفسنا ، فإنّها ينابيعُ الشَّهْوة ، ومفاتيح البلوى .

وأرِنا من قُدْرتِك مايحفظ علينا هيبتَك ، وأوضِحْ لنا من حكمتك ما يقلِّبُنا في ملكوتك ، وأسبِغْ علينا من نعمتك مايكون لنا عوناً على طاعتك ، وأشِعْ في صدورنا من نورك ماتتجلّى به حقائق توحيدك .

واجعل ديدَننا ذِكرك ، وعادتنا الشَّوْق إليك ، وعلِّمنا النُّصح لخَلْقك ، واجعل غايتنا الاتّصال بك ، واحجبنا عن قول يبرئ من رضاك ، وعَمَل يُعمِي صاحبه عن هداك ، وألِّفْ بيننا وبين الحقّ ، وقرّبنا من معادن الصِّدْق ، واعصمنا من بوائق الخَلق ، وانقلنا من مضايق الرِّقّ ، واهدنا إلى فوائد العِتق .

اللهم إنّك بدأت بالصُّنع وأنت أهله ، فعُدْ بالتوفيق فإنّك أهلُه .

---

(١) جلح في الأمر : ركب رأسه .
(٢) ا : « الفعل » .
(٣) ب : « الشكول » ، وما أثبته من ا .
(٤) يخيس : يغدر .

اللهمّ إنا نتضاءلُ لك عند مشاهدة عظمتك، ونذلّ عليك عند تواتر برّك، ونذِلّ لك عند ظهور آياتك، ونلحّ عليك عند علمنا بجودك.

ونسألك من فضلك مالا يرزؤك ولا ينكؤك، ونتوسّل إليك بتوحيدٍ لا ينتمى إليه خَلق، ولا يفارقه حقّ.

ومنها: اللهمّ عليك أتوكّل، وبك أستعين، وفيك أوالى، وبك أنتسب، ومنك أفرَق، ومعك أستأنس، ولك أمجد، وإياك أسأل: لسانا سَمْحاً بالصدق، وصدراً قد ملئ من الحقّ، وأمَلًا منقطعا عن الخلق، وحالًا مكنونها يبوّئ الجنة، وظاهرها يحقّق المِنّة، وعاقبةً تنسى ما سلف، وتتصل بما يُتمنّى ويُتوكّف.

وأسألك اللهمّ كبداً رجوفاً خشوفا، ودَمْعا نَطوفاً شوقاً إليك، ونفساً عزوفاً إذعاناً لك، وسرًّا نافعاً ببَرْد الإيمان بك، ونهارا مشتملا على ما كَسِب من مرضاتك، وليلا مالئاً بما أزلف لديك.

أشكو إليك اللهمّ تلهّفى على ما يفوتنى من الدّنيا، وأنّى فى طاعة الهوى؛ جاهلًا بحقّك، ساهيا عن واجبك، ناسياً ماتكرره من وعظك وإرشادك، وبيانك وتنبيهك حتى كأنّ حلاوة وعدِك لم تلج أذنى، ولم تباشر فؤادى، وحتى كأنّ مرارة عتابك ولأْمتك لم تهتِك حجابى، ولم تعرض علىّ أوصابى.

اللهمّ إليك المفرّ من دارٍ منهومُها لا يشبع، وحائمها لا ينقع [1]، وطالبها لا يربع، وواجدها لا يقنع، والعيش عنك رقيق، وللأمل فيك تحقيق.

اللهمّ كما ابتليت بحكمتك الخفيّة التى أشكلَت على العقول، وحارت معها البصائر، فعاف برحمتك اللطيفة التى تطاولت إليها الأعناق، وتشوّفت نحوها السرائر، وخذ معنا بالفضل الذى إليك هو منسوب، وعنك هو مطلوب؛ وافطِم نفوسنا من رضاع الدّنيا،

(١) الحائم: العطشان. ولا ينقع: لا يروى.

والطف بما أنت له أهلٌ ؛ إنّك على كلّ شيء قدير .

اللهم قُدْنا بأزمّة التوحيد إلى محاضر طاعتك ، واخلِطنا فى زُمْرة المخلصين لذكرك ، واجعل إجابتَك من قبيل مايتصل بكرم عفوك ، ولاتجعل خيبتنامن قبَل جهلنا بقدْرك ، وإضرابنا عن أمرك ؛ فلا سائل أحوجُ منا ، ولا مسئول أجودُ منك .

اللهم احجز بيننا وبين كلّ ما دلّ على غيرك ببيانك ، ودعا إلى سواك ببرهانك ، وانقلنا عن مواطن العجز ، مرتقيًا بنا إلى شرفات العزّ ، فقد استحوذ الشيطان ، وخبثت النفس ، وساءت العادة ، وكثر الصادّون عنك ، وقلّ الداعون إليك ، وذهب المراعون لأمرك ، وفقد الواقفون عند حُدودك ، وخلتْ ديار الحق من سُكّانها ، وبيع دينك بَيْع الخلَق ، واستهزئ بمناشر مجدك ، وأقصيَ المتوسل بك .

اللهم فأعد نضارةَ دينك ، وأفِض بين خلقِك بركاتِ إحسانك ، وامدد عليهم ظلّ توفيقك ،واقمع ذوي الاعتراض عليك ، واخسف بالمقتحمين فى دقائق غيبك ، واهتِك أستار المانكين لسترِ دينك ، والقارعين أبوابَ سرك ؛ الفانسين بينك وبين خلقك .

اللهمّ إنى أسألك أن تخصّنى بإلهامٍ أقتبس الحق منه ، وتوفيق يصحبنى وأصحبه ، ولطف لا يغيب عنى ولا أغيب عنه ؛ حتى أقول إذا قلت لوجهك ، وأسكت إذا سكت بإذنك ، وأسأل إذا سألتُ بأمرك ، وأبين إذا أبنتُ بحجتك ، وأبعُدُ إذا بعدت بإجلالك ، وأقرُبُ إذا قربت برحمتك ، وأعبُد إذا عبدت مخلصاً لك ، وأموت إذا متّ منتقلا إليك .

اللهمّ فلا تكلنى إلى غيرك ، ولا تؤيّسنى من خيرك .

* * *

ومنها : اللهمّ إنا بك نعزّ كما أنا بغيرك نذلّ ، وإياك نرجو كما أنا من غيرك نيأس ، وإليك نفوّض ، كما أنا من غيرك نعرض ، أذنت لنا فى دعائك ، وأدنيتَنا إلى فِنائك ، وهيّأتنا لِعطائك ، وخصصتَنا بحبائك ، ووسمتنا بولائك ، وصمّمتنا بآلائك ، وغمسْتَنا فى نعمائك ، وناغيتَنا بألسُنِ ماكوتاتك عن دفائن ما فى عالمك ؛ ولاطفتنا بظاهر قولك

وتولّيتنا بباطنِ فعلك ، فسمَتْ نحوك أبصارُنا ، وشامت بروق جودك بصائرُنا، فلمّا استقرّ ما بيننا وبينك ، أرسلْت علينا سماء فضلك مدرارا ، وفتحت لنا منّا أسماعا وأبصارا، فرأينا ماطاح معه تحصيلنا ، وسمعنا مافارقنا عنده تفضيلنا ، فلمّا صِرْنا إلى خلقك من ذلك ذَرْوا[1]، اتخذونا من أجله لعبا وهزوا فبقدرتك على بلوانا بهم ، أرِنا بك الغِنَى عنهم .

اللهم قيّض لنا فرجاً من عندك ، وأتِح لنا مخلَصا إليك ، فإنا قد تعبنا بخلقك ، وعجزنا عن تقويمهم لك ، ونحن إلى مقاربتهم في مخالفتك أقربُ منّا إلى منابذتهم في موافقتك، لأنّه لا طاقةَ لنا بدهائهم ، ولا صَبْرَ لنا على بلوائهم ، ولا حيلةَ لنا في شفائهم ، فنسألك بالضّراعة التامّة وبالإخلاص المرفود ، إلّا أخذتَ بأيدينا ، وأرسلت رحمتك علينا ، فما أقدرك على الإجابة ، وما أجودك بكل مصون ؛ ياذا الجلال والإكرام !

***

ومنها : اللهمّ إنّا قرُبنا بك فلا تُنئنا عنك ، وظهرنا لك فلا تبطنّا دونك، ووجدناك بما ألقيت إلينا من غيب ملكوتك ، وعزفنا عن كلّ ما لوانا عن بابك ، ووثقنا بكلّ ما وعدتنا في كتابك ، وتوكّلنا بالسرّ والعَلَن على لطيف صنعك .

اللهم إليك نظرت العيون فعادت خاسئةً عَبْرَى ، وفيك تقسّمت الظنون فانقلبت يائسة حَسْرى ، وفي قدرتك حارت الأبصار ، وفي حكمتك طاحت البصائر ، وفي آلائك غرقت الأرواح ، وعلى ما كان منك تقطّعت الأنفاس ، ومن أجْلِ إعراضك التهبت الصدور ، ولذكر مامَضى منك هملت الدموع .

اللهم تولّنا فينا ولّيتنا حتى لا نتولّى عنك ، وأمّنّا ممّا خوّفتنا حتى نقرّ معك ، وأوسِعْنا رحمتك ، حتى نطمئنّ إلى ماوعدتنا في كتابك ، وفرّق بيننا وبين الغلّ حتى لانعامل به خلقك ، وأغنِنا بك حتى لانفتقر إلى عبادك ، فإنّك إذا يسّرت أمرا تيسّر ؛ ومهما بلوتنا فلا تبلُنا بهجرك ، ولا تجرّعنا مرارة سُخطك . قد اعترفنا بربوبيتك

(١) ذروا : طرفاً .

عبوديّة لك ، فعرّفنا حقيقتها بالعفو عنا ، والإقبال علينا ، والرفق بنا ، يا رحيم !

* * *

ومنها: اللّهم إنّ الرغبات بك منوطة، والوسائل إليك متداركة، والحاجات ببابك مرفوعة، والثقة بك مستحصفة (أى مستحكمة)، والأخبار بجودك شائعة، والآمال نحوك نازعة، والأمانىّ وراءك منقطعة، والثناء عليك متّصل، ووصفك بالكرم معروف، والخلائق إلى لطفك محتاجة، والرجاء فيك قوىّ، والظنون بك جميلة، والأعناق لعزّك خاضعة، والنّفوس إلى مواصلتك مشتاقة، والأرواح لعظمتك مبهوتة ؛ لأنك لإله العظيم، والربّ الرّحيم، والجواد الكريم، والسميع العليم، تملك العالم كلّه، وما بعده وما قبله، ولك فيه تصاريف القدرة، وخفيّات الحكمة، ونوافذ الإرادة، ولك فيه مالا ندريه ممّا تخفيه ولا تبديه، جَلّلت عن الإجلال، وعظمت عن التعظيم، وقد أزف ورودُنا عليك، ووقوفُنا بين يديك، وظنُّنا ما قد علمت، ورجاؤنا ما قد عرفت، فكن عند ظنّنا بك، وحقق رجاءنا فيك، فما خالفناك جرأة عليك، ولا عصيناك تقحّما فى سخطك، ولا اتبعنا هوانا استهزاء بأمرك ونهيك، ولكن غلبت علينا جواذب الطّينة التى عجنتَنا بها، وبذور الفِطْرة التى أنبتنا منها، فاسترخت قيودنا عن ضبط أنفسنا، وعزبت ألبابنا عن تحصيل حظوظنا، ولسنا ندّعى حُجّة، ولكن نسألك رأفة، فبسترك السّابغ الذّيال، وفضلك الذى يستوعب كلّ مقال، إلا تممت ما سلَف منك إلينا، وعطفتَ بجودك الفيّاض علينا، وجذبت بأضباعنا، وأقررت عيوننا، وحققت آمالنا ؛ إنك أهل ذلك، وأنت على كل شىء قدير !

* * *

تم الجزء الحادى عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء الثانى عشر

فهرس الخطب*

(*) وهى الخطب الواردة فى نهج البلاغة .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .

